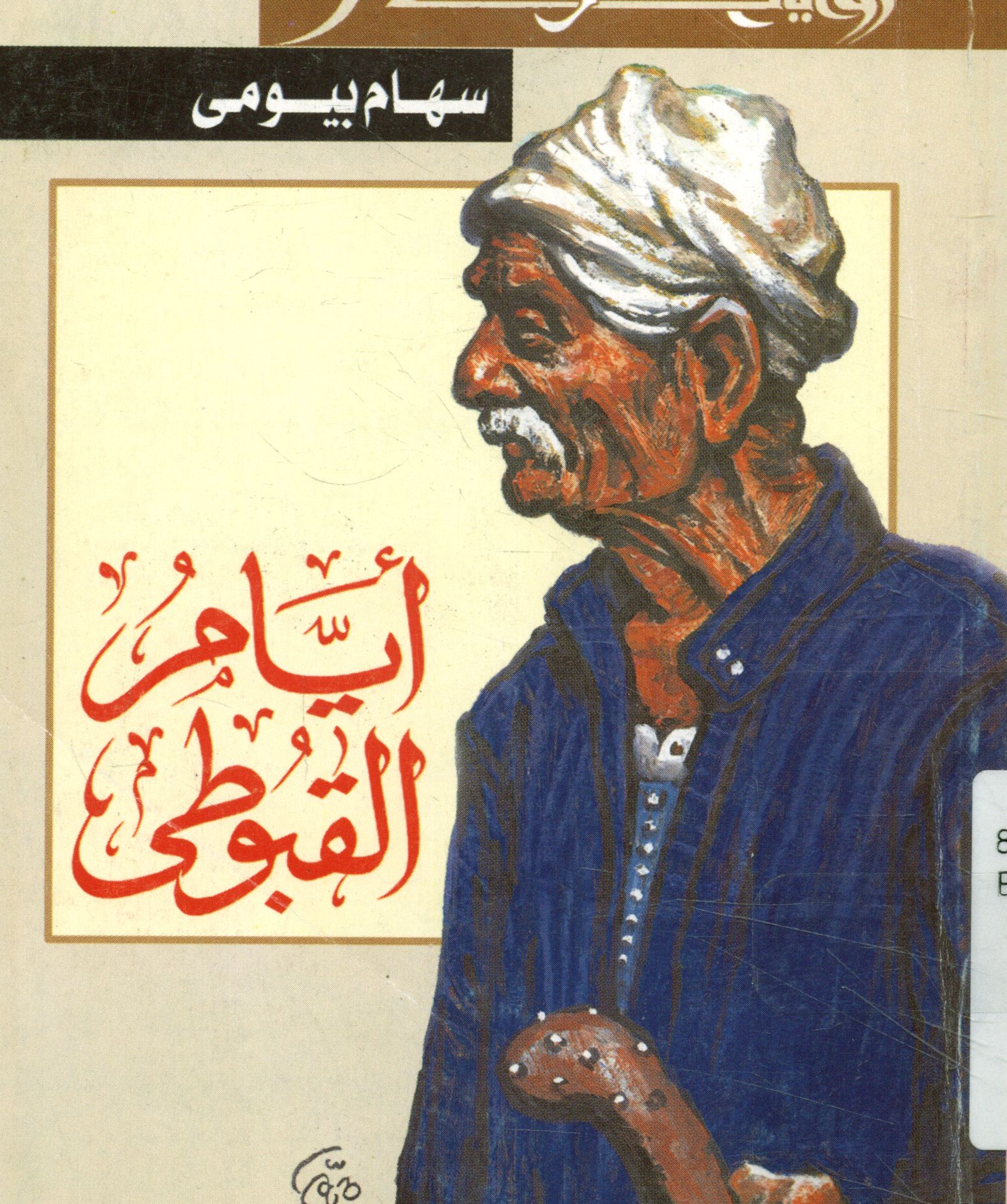
روايات الهلال



العدد ٦٦٧ - يوليو ٢٠٠٤ - جماد أول ١٤٢٥ هـ

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

الاصدار الأول
يناير ١٩٤٩

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالاً - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالاً - الإمارات ١٢ درهماً - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات ..

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس :
Telex 92703 hilal u n

فاكس :
FAX 3625469

أيام القبوطى

(الرؤية والمتاهة)

بقلم

سهام بيومى

●

دار الهلال

الغلاف للفنان :
محمد حجى

الفصل الأول

يتذكر السيد الفرماوى المرة الأولى التى رأى فيها السيد القبوطى . تتخايل الذكرى على ملامحه فى خطوط عميقة أنضجتها السنوات لتصاحبه حتى آخر العمر ، تتوارد صورها أمام عينيه بين الحلم والحقيقة وهو يحاول أن يغمضهما ويفتحهما عدة مرات ، مثلما تراءت له تلك النقطة على خط الأفق فى جلسته أمام البحيرة . لم يدر كيف انسربت منه الكلمات إلى حفيدته زاهية وهو يحكى لها عن أبيها ، وعن مملكة التنيس الرابضة فى أعماق البحيرة ، وما أضافته لها أمها أمينة فى حديثها عنه ، حتى اكتملت الصورة لديها ، وما توارد منها بعد ذلك فى حكايات يمنى وأحلام شلبية ومخيلة ناعسة ورؤى عزيزة ، وهذا السلسال الممتد من بنات أمينة ، حفيدات السيد الفرماوى نفسه .

يتذكر ذلك اليوم الذى كفت فيه عيناه عن ملاحقة أمينة ، لتصبح صورتها أمامه مكملة لأحداث ذلك اليوم الذى أعاد ترتيب الأشياء حوله بصورة لم يعهدها من قبل ، بحيث لم تعد ثانية كما كانت عليه ، بل لم يعد هو نفسه كما كان ، وهو يحاول جاهدا ملاحقة ما يجرى أمامه ويستعيذ بالملكين . منذ بدأت أمينة تدب بقدميها على الأرض وتتفوه بأولى كلماتها حتى ملأت المكان حوله بالحركة ، كأنما انقطع الحبل السرى الذى يربطها به . كان يعتقد أن سكينة هى قدره واختياره الذى ارتضاه من الدنيا وهو يخطو مشوار حياته فى هدى ما ارتضاه ، منذ جاءا إلى الفرما وحطا رحالهما فى أرض المناخ ، حتى مجئ أمينة التى استحوذ وجودها عليهما ، وهما يودعانها لهفة سنوات العمر وأشواق الحضور والغياب :

ومنذ لقائه مع محمد بن إدريس التنيسى ، وعبر سنوات العمر التى تلت ذلك ، أصبح القلق يشوب هذا الترقب حول مصير أمينة التى أصبحت فتاة يافعة وازدادت حركتها صخبا وعنفوانا . لم يدر إن كان ذلك بفعل ما أفضى به إليه بن إدريس فى حديثه ، أم لأنه أصبح بعدها يرى ما لم يره قبلا ، وعيناه تتعلقان بأمينة ونظراتها الشاردة التى تحاول أن تخترق بها حدود المكان كأنما أصبح يضيق بها ، حتى أصبح السيد القبوطى هو محور الوجود منذ مجيئه عقب أحداث ذلك اليوم وحتى اختفائه الذى هز أرجاء الفرما ، وطغى على كل ما عداه ، فكانت كلماته تتطاير فى فراغ لا متناه ، وهو يعيدها على مسامعهم .

هل كان بن إدريس يعلم ذلك ؟

لم يدر كيف تراءت له الأشياء يومها ، لو قال ما صدقه أحد . ولم يقل ، لكن سكينة كانت تصدقه رغم أنه لم يبح لها ، ولم يسألها حتى إن كانت قدر رأت بعينيها ما رأى .

أمينة ، التى كثيرا ما أثارت ضحكاتهما وهى صغيرة ، تدور بين أقدامهما ، تمتد يداها الصغيرتان وهى تتطلع إليهما ، تحاول تقليد ما يقومان به من أعمال ، سرعان ما أثارت الدهشة بعد سنوات قليلة من قدرتها على القيام بتلك الأعمال ... تخزين المؤن والحبوب التى يأتى بها السيد الفرماوى من القرى الواقعة على البحيرة ، تنظيف المكان وترتيبه، وتشوين الدريس للجمال ، ومساعدة أمها فى الطهى والخبيز والسقاية وتربية الدواجن ، وتمليح الأسماك وحفظها فى صفائح ، وتجفيف التمر الذى يجود به النخيل الذى ينمو بوفرة على شاطىء الفرما .

مع اقتراب موسم الحج، حين تزداد الحركة ويتوافد الناس من كل صوب مع مجئ قوافل الحجاج القادمة عبر شاطئ المالح الممتد الذى لا يعلم مداه إلا علام الغيوب ، ينخنخون الجمال فى المناخ ويمكثون أياما للراحة ، يتجمع حولهم أهالى الفرما والقرى المجاورة على البحيرة ليكونوا فى خدمتهم ، ويأتى بعضهم بالأطعمة من خبز وفطائر ولحوم ودواجن وأسماك ، ويأتى بعض التجار من دمياط ،

وينصب سوق المناخ وينشط البيع والشراء بينهم وبين الحجاج ، ويأتى الأدلاء البدو لاصطحابهم إلى رأس الجسر وقرية التمساح وحتى السويس حيث يستقل بعضهم البواخر إلى الأراضى الحجازية ، أما غالبيتهم ، فكانوا يواصلون الرحلة فى قوافل الجمال بصحبة أدلاء من البدو كانوا يوفرون لهم الحماية .

كان السيد الفرماوى يستعد بتخزين المؤن والدريس ، يترك الصيد ليكون فى خدمة الحجاج ؛ وتتحرك أمينة طوال الوقت كالدولاب ، وتشرف بنفسها على الشغيلة الذين يأتون للعمل معهم فى مواسم الحج .

عندما حط السيد الفرماوى رحاله فى المناخ لأول مرة هو وسكينة ، بنى بيتا صغيراً من الكيب وقوائم من الخشب بين البحر والبحيرة واستقرا فيه . واستيقظا ذات ليلة ليجدا نفسيهما وسط المياه وقد تهاوت قوائم البيت . لم يتعودا على ثورات البحر وأمواجه وصخب البحيرة فى هذا الجانب عند اتصالها بالبحر الذى يدفع بأمواجه إليها عبر أشتوم الجميل . أعادا بناء البيت بعد ذلك عدة مرات، وهو يحاول أن يقوى الدعائم ويثبتها عميقا فى الأرض ، وفى كل مرة كانت الأمواج تجرفه أو تسقط القوائم ، إلى أن استطاع أن يسبر صلابة الأرض ، ويبتعد مسافة مناسبة عن الأشتوم ويثبت القوائم عميقا فى الأرض بين مجموعة ملتفة من أشجار النخيل التى تنمو بغزارة على الشاطئ . إستخدم ألواحاً من الخشب مع الكيب وجعل واجهته جنوبيا باتجاه البحيرة . ومع تعاقب الفصول وتغير الطقس ، كان يضيف إليه استحكامات جديدة وسمكا للجدران كى تقاوم عوامل الطقس وتستجيب لعطائه ، ومع تزايد عدد المسافرين الذين يفدون إلى المناخ عبر الشاطئ فى مواسم الحج والتجارة ، يستأنسون بقاطنى المناخ ويحطون الرحال وينخنخون الجمال، ويستريحون من وعثاء السفر ، ويحصلون على حاجتهم من الزاد ليواصلوا رحلتهم إلى أراضى الحجاز . أضاف حجرات صغيرة تحيط بجدران البيت ، وتفتح أبوابها على اتجاهات مختلفة لاستخدامها فى تخزين الحبوب والمؤن والدريس وتربية الطيور وبعض الأغنام . غرست أمينة بذورا وتعهدتها بالرعاية

حتى أثمرت ظلالا وارفة ، جعلت منها تعريشة يستريحون فى ظلالها خلال أوقات النهار . وأصبح البيت كبيرا ومميزا ، يلوح للعابرين وهم يجتازون أشتوم الجميل إيذانا بالتوقف والراحة .

إعتادت أمينة منذ صغرها على الغرباء ، تستجيب لدعاباتهم وتتلقى هباتهم ، ويحملون لها الدعوات إلى الأراضى المباركة . والذين يترددون على المناخ عبر سنوات رأوها طفلة صغيرة تبعث المرح ، ثم صبية تذرع المكان بنشاط تساعد أبويها وتقوم على خدمة العابرين ، ثم فتاة ناضجة تؤدى الأعمال باقتدار وتشع بهجة فى المكان . لم يكن السيد الفرماوى يجهل النظرات التى تتابعها ، خاصة بعد أن فاتحه البعض فى أمر مصاهرته . لكن أكثر ما كان يقلقه هو أن تكون قسمتها التى هى فى عالم الغيب مع أحد هؤلاء الغرباء لتختفى عن عينيه وقد لا يراها ثانية . لذلك كان يقابل فى البداية رفضها لهؤلاء الغرباء بارتياح ، لكن مع الوقت عندما أخذ ذلك يتكرر باستمرار مع شباب مع الفرما وأبناء الجيران والمعارف ، بدأ القلق يساوره .

كان يفضى بمخاوفه إلى سكينة ، وهما لم يكونا يرجوان من الدنيا سوى رؤية سلالتهما تزرع فى المكان ، وأولاد أمينة يملأونه . كانت سكينة تشاركه قلقه وهما يفكران بأمر زواجها من أحد أبناء عمومتها أو خؤولتها الذين يترددون على المناخ.. كان بعضهم يمكث بعض الوقت للعمل فى مواسم الحج ، لكنها تبدو نافرة لاتلقى بالا لأى منهم ، وهم بدور هم لم يستطع أى منهم البقاء فى المناخ واعتياد الحياة فيها وسرعان ما كانوا يعودون إلى القرية . كانت سكينة بعدئذ كمن أفاقت من كابوس ، إذ لم تكن تتخيل أن تعيش ابنتها فى القرية حياة كتلك التى عاشتها هى فيها . وأخيرا ، سلما أمرهما لله إيمانا بالمقدر والمكتوب .

لم يدر السيد الفرماوى منذ متى بالضبط وهو يرى أمينة شاردة هكذا ، ترسل نظراتها نحو المجهول ، كأنما تحاول أن تخترق حدود المكان . لم تتوقف عن العمل والحركة بدأب كعادتها ، لكنها تبدو كما لو كانت فى عراك مع الأشياء ، فقدت الأشياء بهجة الاكتشاف والممارسة الأولى والروح التى كانت تضفيها على ما تقوم

به من أعمال وتتفنن بذلك لتفاجئ المترددين على النزل بتغيرات جديدة تكسب المكان رونقا وبهاء . لكن ها هى روحها الشاردة تخيم عليها ظلال ذلك المجهول، كأنما انفصلت الروح المتوثبة عن حدود الحركة . يتابعها بقلق ولا يدرى ما الذى انتابها ، وما الذى يلوح لها على البعد ، حتى كلماتها التى أصبحت ضنينة لم يمكن أن يستشف منها ما انتابها . تلا الأوراد ، وأطلقت سكينة البخور فى المكان واستشارت أولى الأمر ، علقت التمائم والأحجبة ، زارا تل بن سلام وقرءا له الفاتحة ووعدا بالنذور ، حملا الدعوات أمانة للذاهبين إلى الرحلة المباركة. لكن بن إدريس وحده ربما يعلم . هل هذا ما كان يعنيه فى حديثه عما سيأتى به الغيب إلى سلالته . لم يصرح له ، ولم يسأله بدوره . فهل هو ذلك المجهول الذى يجذب روحها شأنها شأن هؤلاء المجاذيب الهائمين فى الملكوت .

لم يدر يومها كيف جرى أمامه ما جرى وعيناه تتابعان أمينة وهى تدور فى المكان ، ما تكاد تنتهى من عمل حتى تشتبك بآخر ، وتهبط قافلة جديدة من الحجاج ينتشرون فى المكان وينخنخون الجمال ، ويتعالى دبيب قدميها وسط الضوضاء ويداها تمتدان فى كل الاتجاهات . اكتفى بالتطلع إلى وجوه المحيطين به لعله يستشف منها إن كان أحدهم قد رأى بعينيه ما رآه ، وأمينة تدلى الحبال فى البئر ، ثم تميل بالسطل إلى الموردة فتنسكب المياه و وتدور عيناه مع الحركة المتواترة ، حتى أنه لم يدرك منذ متى بالضبط وهو يراها جالسة عند البئر عاقدة ذراعيها والحبال تدور على البكرة وحدها رافعة السطل ، ثم يميل إلى الموردة والماء لا يكف عن الجريان . ويظل ذلك يتكرر أمامه . ثم وهو يرى مقطف الدريس يطير إلى المزود ويفرغ ما بداخله ، فتمد الجمال أعناقها ، ويعود المقطف خاويا ، وأمينة تقف عند الباب ساكنة. تنتقل عيناه بين المسافرين ، ويرى أوانى الطعام وهى تدور فى الفراغ ثم تحط بينهم ، وهم يشمرون أكمامهم ويتقدمون إلى الطعام مبسملين دون أن تشى ملامحهم بشئ . عيناه تبحثان عن أمينة التى اختفت من المشهد ، ويظل جامدا فى مكانه ، إلى أن ينتبه إليها وهى تقف أمامه ، تسأله عما به ، يمسك بكتفها يسألها : أين ذهبت ؟

تقول له وهى تحملق فيه : أتحدث إليك منذ فترة ولا تسمعنى .

يشعر بالمكان يدور به ثم يترنح فى وقفته . تسأله عما به ، تحاول أن تسنده ، لكنه يشيح بيده ، يقطع بضع خطوات تنقلب فيها الدنيا أمامه ، وتتداخل الصور والمرئيات فى دوامة عنيفة . يبرز وجه بن إدريس هازا رأسه . وتلك الابتسامة الكامنـــة فى زاويتى الفم تتلاشى تدريجيا .. بضع خطـوات قطعها كأنهـا آلاف الأميال حتى استطاع أن يصلب قامته إلى الجدار ، ثم يخطو متكئا عليه ويطرح جسده على المصطبة ، يطبق أجفانه بشدة ويفتح عينيه على اتساعهما وهو يدفع بالرؤى ويستعيذ بالملكين . ينتبه إلى سكينة تســـأله عما به ويدها تتحسس جبهته ، يهز رأسه ولا يستطيع الكلام ، ويشير لها برجاء أن تتركه وحيدا .

صفحة البحيرة تترامى أمامه رصاصية مجعدة ذات لمعة داكنة ، يسترسل معها وهو يحاول أن يقبض على الرؤى ويشحذ كل حواسه فى عينيه . تقترب صفحة البحيرة من وجهه ، تتسلل موجاتها رعشات تسرى فى أوصاله ، ينشر بصره إلى مداه فى المشهد الذى ظللته سحب رمادية داكنة . وتسرى نظراته فى تلك الخطوط الناصعة التى تحفها وهى تتلوى وتظهر وتختفى مع تحركات السحب. اختفى خط الأفق فى سديم رمادى بين السماء وصفحة البحيرة ، الأمواج الواهية ترسل وشوشات رتيبة ، وتتخلل عيدان البوص والهيش ، تغمر سيقانها ، ثم تنحسر فتلمع بينها شذرات من القشور والأصداف . ينساب الوشيش فى المشهد الرمادى الصافى ، يحاول أن يحدد كل شئ فى موضعه أو حركته الرتيبة كى تجلو له الرؤى ، تتطاير أخيلة غير محددة تقطع استرساله ، يبذل جهدا كى لا يحيد ببصره حتى تنتهى ، لكنها تستمر ، تبدو كطيور البحيرة التى تتخايل له ، وهى تلامس سطح المياه وتواصل صعودها الدائرى ثم تذوب فى الغلالة الرمادية، أو قارب ينطلق بهشاشة وسط الأمواج ، أو نتوءات لجزر متناثرة، تتداخل الأخيلة فى السديم الرمادى والتموجات الرتيبة لسطح البحيرة عندما تلتقط عيناه من بينها نقطة تتحرك أفقيا ، وتتداخل فى باقى الأخيلة ، تغيب عن عينيه لكنه بعد ذلك يستطيع أن يميزها وهى تمضى فى خط مستقيم يميز معه خط الأفق ، وتشده إليها بقوة .

الفصل الثانى

ثلاثة أيام بلياليها أمضاها السيد الفرماوى وهو جالس مكانه أمام البحيرة يتابع تلك النقطة على خط الأفق بعينين تطاردان النعاس ، لم يشعر خلالها بالوقت ولا بانصرام الليل والنهار . وقد بدأ يلحظ تلك الظلال الرمادية تخيم بثقل على البحيرة فى لمحات سريعة وعلى فترات متباعدة ، فتبدو تلك النقطة بجلاء ، ويشعر معها بقوة هائلة تهصره ثم تتركه مبعثر الأوصال ، ودقات قلبه المتسارعة تكاد تقوض ضلوعه . يحاول أن يستجمع نفسه ويتكور جسده ، يفتح عينيه على اتساعهما فتتكشف البحيرة المترامية أمامه عن آخرها ، وتتعلق نظراته بتلك النقطة ، ثم تخيم الظلال الرمادية فى لمحة خاطفة فيتبعثر ثانية ، ويحاول من جديد أن يلم شتات نفسه .

لم يشعر بسكينة التى بدأ القلق ينهشها مع الوقت ، ولا بالطعام الذى أحضرته عدة مرات ورفعته دون أن يراه أو يمسه ، ولا بملمس يدها وهى تمررها عليه وتتمتم بالآيات ، تأتى بالعباءة وتدثره بها ، ولا تدرى ما الذى تفعله ، تستعين بأمينة التى تسرع إلى أبيها وتحاول بدورها أن تحادثه أو تجعله يلتفت إليها دون جدوى . تدلك أمينة جبهته بماء الورد ، يتسلل إليها القلق ، وتتخلى عن سكينة رباطة جأشها وهى تولول ، تحاول أن تجذبه ليقف ، لكن جسده متسمر بقوة ، وعيناه معلقتان بشىء لا تستطيعان رؤيته . تفتشان بأعينهما حوله ، ولا تريان شيئاً محددا . لكن مقاومته أكدت لهن أنه مشغول بأمر ما ويريد الانفراد بنفسه.

يستجمع حواسه وهو يحاول أن يتابع مسار تلك النقطة ، يتلو ما يتوارد إلى ذهنه من أوراد فتـأتي مشوشة . يشعر أنه أسير قوة هائلة تجتاحه ... هذه إشارة لا يراها سـواه ، إذن فهي مرسلة له ، لكنه عاجز أمامها ولا يستطيع أن يتبين مغزاها . يمضي النهار بطوله على تلك الحال حتى تظلم الدنيا حوله تدريجيا ، ويجد صعوبة شديدة في متابعتها وسط الأخيلة التي تسرى في المشهد أمامه ويخشى أن تغيب عن عينيه وتذوب في الظلمة التي خيمت على البحيرة .

يبزغ هلال ويعلو ممتشقا في سماء البحيرة بلمعة داكنة . وبينما يحاول في ضـوئه الواهن أن يميز خط الأفق ، ينبعث وهج خاطف يستطيع معه أن يلمح بجلاء تلك النقطة ، التي تختفي مع الوهج في لحظة خاطفة تأخذ بروحه . ينتفض جسده وهو مشدود إليها بيقين ما . ينبعث الوهج مرة أخرى . يفتح عينيه على اتساعهما متمليا . وتتوالى غمزات الوهـج على فترات قصيـرة تصبح معها صفحة البحيـرة مرآة هائلة ، تتكشف أمام عينيه مساحات واسعة لم يمكنه رؤيتها من قبل ، تلتمع الجزر المتناثرة على سطحها ، وتبدو عيدان البوص والهيش خطوطا من الوهج . تنطلق مع كل غمزة من الوهج نقطة ضوئية من قوس الهلال ، تحوم قبل أن تستقر كل منها في بقعة ما وتتناثر في سماء البحيرة متلألئة .

يستولى عليه الذهول حتى يأخذ بعقله . هل هذه هي بحيرة المنزلة التي ربى على شواطئها وعرفها تمام المعرفة ، وطالما ذرعها بقاربه وهبط على شواطئها واستقر على جزرها ، وعرف مراحات الأسماك وأنواعها ومواسم تكاثرها ، وصاحب طيورها وحلق معها وهو ينتظرها في مواسم الهجرات . ها هي تتكشف له عن عالم جديد ، لا يعرف ما يجرى فيه بقدر ما فقد السيطرة على روحه وجسده أمام تلك الرؤى التي تبدو عاصية عليه . لا يدرى مبعث تلك الإشارات

بالضبط ، أهى جزيرة تنيس الرابضة فى المياه ، أم تل بن سلام الذى غمرت المياه أطرافه واعتلى مقامه رابية فى وسطها ، أم هى إشارات من سكان العالم السفلى للبحيرة ؟ كيف تنعكس فى أفق البحيرة ، وماذا تعنى ؟ هل هى إنذار بكارثة أم فاتحة خير ؟ .. ابن سلام الذى وطأ الماء دون أن تبتل قدماه ، واستقر فى عالمه الموصول بالماء ، يروض ملوك الجان لسكنى الأرض ، يدفع بقوارب الصيد فى مسارات البحيرة ، ويكشف عن مراحى الأسماك الوفيرة التى تتقافز إلى القوارب حتى تمتلئ بها . أم مبعث تلك الإشارات مملكة التنيس المسكونة بالمردة وحوريات الماء ؟ أم هو قادم مجهول من المالح استطاع أن يعبر الأشتوم ؟ أم رسالة سماوية مرسلة مع تلك النجوم التى تنبعث من قوس الهلال لتملأ سماء البحيرة ؟

كان رأسه يدور فى كل الاتجاهات ، بينما استقرت حركة تلك النقطة على خط الأفق ، وهى تروح وتجئ أمامه عبر البحيرة التى تتكشف أمامه عن اتساع يذهله ، حيث يرى عبر المدى ما لم يره من قبل .

تتشقق السماء بخيوط من الضوء وتستسلم أطرافه لبرودة طازجة تتسلل إلى جسده . تذوب الظلمة تدريجيا وتبدو تلك النقطة بجلاء وهى تتحرك على خط الأفق، ينبلج قرص الشمس فى قفزة واحدة فى ألق بلورى ، ثم يبدأ فى إرسال خيوط واهية من الضوء ، لا تلبث أن تتمدى وتسرى فى الأثير ويسرى معها دفء يبدد برودة السحر . يسرى خدر فى جسده ، وعيناه تحاولان مراودة الضوء ، ثم يستسلم للحظات من السكون . تتكاثر عبر البحيرة أخيلة حتى تملأ المشهد وتشتبك بخيوط الضوء فى كتل غير محددة . تغيب النقطة وسط الأخيلة ، ويسترخى جفناه ويرقبها من حدقتين نصف مغمضتين .

ينبعج سطح البحيرة فى موضع ما ، يعلو حتى يصبح ككتلة صخرية ثم ينفجر فى صخب . ينتبه وكتل الماء تتناثر فى كل الاتجاهات ، تستيقظ حواسه مع رذاذ

يلامس وجهه ، وتتوالد دوامات تغمر أطراف البحيرة وتتمدد على شواطئها ثم يعود السطح مستويا بأمواجه الواهية . يرى الشمس تتوسط سماء البحيرة ، يمسح بعينيه سطح البحيرة وهو يتذكر تلك النقطة الهائمة فى أفقها، ولكنه لا يستطيع أن يحددها .

وهج الشمس يغمر سطح البحيرة . وتعود المشاهد المعتادة فيها ، أسراب النوارس والبلشون والغاق والبشاروش تنطلق أسراباً وفرادى . تلوح نتوءات الجزر وقوارب الصيد ، يرى كل ذلك بوضوح لكنه لا يرى تلك النقطة على خط الأفق الذى يمتد أمامه فى شريط رفيع داكن لامع . يدور جسده مع عينيه ولا يرى إلا ما تعودت عيناه أن تراه من معالم البحيرة . يمضى الوقت وهو يحاول استعادة ما رآه عبثا ، ويود لو يحلق مع الطيور ليتبين موضعها ، لكن كل شئ قد اختفى . يمضى الوقت عبثا وهو يحاول العثور على تلك العلامة . هل كانت مجرد هاجس أو خيال عابر ؟ رغم ذلك ظل يدور بعينيه متسمرا فى مكانه شاعرا بافتقاد أخذ يتفاقم حتى أصبح لا طاقة له به .. أن يمضى كل شئ هباء ، أن تنقطع الإشارة أو الرسالة المرسلة إليه دون أن يتبين كنهها ، ربما كانت ستسفر عن شئ ما ينتشله من الحيرة والهواجس ، شئ ما يمتد إلى أيامه المقبلة ويلهم روحه تلك الجذوة التى تفتح الرؤى أمام بصيرته ، وتشحذ روحه وكيانه لتعينه على أيامه المقبلة وما ينتظره فيها .

يمضى اليوم حتى منتصفه وهو جالس خائر القوى يتعلق بخيوط واهية ، تتهاوى به عن تلك الرسالة الكونية . يشعر أنه لم يكن أهلا لها ، تتضاءل روحه حتى تصبح نقطة لا متناهية ، كما لو كانت قد غادرت الجسد وحلقت بعيداً عنه وتركته هامدا ، يحاول أن يستعيدها ويستعيد معها يقينه بذاته . يكابد مكابدة شاقة فى شحذ حواسه واستعادة الروح التى انسلخت عن الجسد الذى أنهكه التحفز ، حتى يستعيدها ثانية شفافة لا تشوبها شائبة ، تسحبه

من قيظ الظهيرة ، فيلهج لســـانه بالشكر والأدعية ، ويتوجه بقلب خالص إلى السماء .

تخيم الظلال الرمادية للحظة ، ينتفض جسده وتتأجج مشاعره ، هل هى حقيقة فعلا أم بثتها أشواقه . يعتدل جالسا ويدعك عينيه ، لا .. ليس وهما ، فهاهى الظلال تنبعث ثانية .. ينبعث معها فرح يجتاحه .. تنبعث الرؤى فى البحيرة مع تلك الغمزات من الظلال ، يرى تلك النقطة أمامه بوضوح ، ويستطيع أن يميزها وسط الأخيلة التى تملأ فضاء البحيرة . وهى تنقض مثل النوارس ، وتتهادى مثل القوارب ، وتتسامى كالسحب ، وتستقر كالجزر ، وتتماوج مع أمواج البحيرة حتى تملأ المشهد أمامه ويتوحد نبضه معها .

مع انصرام النهار وتسلل الظلمة كان يلمح احمرارا يشوب غمزات الوهج الرمادى ويتبدى تدريجيا بوضوح على خط الأفق حتى أصبح خيطا قرمزيا رفيعا ولامعا لحظة الغروب ، والشمس تودع فيه كل حمرتها قبل المغيب ، ثم بدأ يلحظ ألوانا أخرى تشوبه وتتداخل فيه وتلك النقطة تروح وتجئ فى حركة مضطربة على خط الأفق ، تظلم الدنيا ويرى خيوطا أخرى من الضوء تتدفق بألوان شتى تتداخل فيما بينها وتلون المشـــهد ، تصطخب الأمواج بألوان شتى وتعلو شفيفة فى الذرى.

تغيب الشمس وتظلم الدنيا وتتناثر النجوم فى سماء البحيرة ومازال الموج مضطربا ، يملؤه التوجس والرهبة .. تلك رسالة أخرى ، ماذا سيأتى به الغيب ؟ ها هو يرى بعينيه كل شئ .

تتناثر المياه بألوان الطيف ، كأن ما يصطخب فى الأعماق يحاول أن ينطلق إلى السطح . تتوارد إلى ذاكرته حكايـــات البحيرة التى يسمعها منذ الصغر ، هل هم سكان العالم الســـفلى للبحيـــرة الذين طالما ســـمع عنهم الحكايـــات

المروية التى توارثهـــا سكان القرى المحيطة بالبحيرة واتخذ الصيادون بعض العلامات والشواهد التى يرونها دليـــلا على ذلك العالم المســـكون ؟

تنتابه القشعريرة وهو يبسمل ويحوقل، ويتذكر تلك الحكايات عن ملك التنيس وملك الهكوش ، والديك الذهبى والكنز المخبوء وجنيات الماء والنداهة .. هو نفسه ، كانت تتوارد إلى ذهنه أحيانا هذه الحكايات وهو يذرع البحيرة أو يبيت ليلته وسط المياه ، أو يستقر فوق إحدى الجزر ، وكان يرى تلك الشواهد التى يستدلون بها ، ويأخذون منها علامات يحددون بها مسارهم فى السعى للرزق ، فهى ممالك مأهولة يطرقونها . تلك الحكايات التى طالما صاحبته ، عندما يستوقفه مشهد ما أو حركة غير مألوفة هو وغيره من الصيادين ، ويحكونها فيما بعد ، أو يربطون بينها . وكان البعض يؤكد أن ما رآه هو الحقيقة .

مملكة التنيس التى تحوى سراديب بداخلها الكنز المخبوء ، ينطلق منها الديك الذهبى ليؤذن ، ولا يسمع آذانه إلا الشخص الموعود الذى سيكشف له عن الكنز . ويحكون عن أميرة التنيس التى يشع نور بهائها فى البحيرة ، تسابق إليها الأمراء من كافة ممالك البحيرة ومن كافة أنحاء الدنيا، سليلة الملوك العظام الذين حكموها منذ بداية العالم ، وعمروا بلادهم بكافة الخيرات ، حتى أن أهلها كلما تمنوا شيئاً وجدوه أمامهم ، حتى ولو كان فى سريرتهم ... كأنها الجنة الموعودة . وكان نهر التنيس يجرى فيها بمياهه الفوارة التى تفيض وتتدفق إلى البحر عبر الأشتوم كأنه الكوثر ، والحقول والبساتين تحيط بضفافة بأشجارها المثقلة بالثمار كأنها الفردوس . وكان كل هم ملك التنيس أن يحافظ على تلك المملكة التى أسسها أجداده ، وعلم ابنته الأميرة أن تفعل ذلك عندما تصير ملكة ، إذ كان أكثر ما يخشاه أن تتزوج ملكا يضمها إلى مملكته وتصير جزءا منها وينمحى اسمها مع الوقت ، وكان يتمنى فى قرارة نفسه أن تتزوج أحد أبناء المملكة الذين تتوافر لهم الحكمة والشجاعة .

يحكون أيضاً عن مملكة الهكوش ، مملكة السحر والسحرة التى سكنت البحر ونشبت حروب بينها وبين مملكة التنيس. إذ كان ملك الهكوش يحاول أن يغزو مملكة التنيس ويخضعها لسلطانه طمعا فى خيراتها . بدلا عن أرض مملكته المالحة التى لا تنبت سوى الأعشاب ، وكان ينتهز الفرص قبل مواسم فيضان النهر كى يتسلل بجيوشه عبر الأشتوم ، وفى كل كرة كان ملك التنيس يجمع جيوشه ويحاربهم ويردهم مدحورين ويتعقبهم فى البحر حتى يشتتهم .

وسمع ابن ملك الهكوش عن أميرة التنيس ، وقرر أن يحظى بها كى يخضع مملكتها ، فجمع سحرة المملكة وأمرهم أن يعملوا سحرهم ليأتوا بها ، فأتوه بها ليلا وهى نائمة ، ففتن بها وازداد عزمه على الفوز بنعيم هذا الجمال ونعيم مملكة التنيس وأمضى ليلته معها .

ثم أمر السحرة أن يعودوا بها قبل أن تشرق الشمس . وظل يكرر هذا كل ليلة .

لاحظ ملك التنيس شرود ابنته الأميرة ، وهى ترسل نظراتها إلى المجهول ، كأنما أصبحت تضيق بها حدود المملكة ، فسأل أمها الملكة عما يشغل بال الأميرة فوجدها أكثر حيرة منه ، وقالت إنها أيضاً لاحظت شرودها . أتى لها الملك بالهدايا الثمينة مما لم تره عين من ثياب حريرية موشاة بالذهب من أغلى ما أبدعه صناع التنيس والفرما ودمياط من حرير الشام والهند والصين ، وبالمجوهرات الثمينة من الذهب والفضة المرصعة بالماس والأحجار الكريمة من أجمل ما أبدعه الصناع مما تزخر به كنوز المملكة . لكنها كانت تتقبلها شاكرة لوالدها دون أن تبدى فرحا كعادتها . أقام الولائم ودعا إليها وجهاء المملكة وعيون أعيانها ، والملوك والأمراء من الممالك المجاورة ، قدم الجميع الهدايا النفيسة ، وخطب الكثيرون ود أميرة البلاد ، لكنها لم تلق بالا لأى منهم . جاء إليها بالمغنين

يغنون أعذب الكلمات وأرق الألحان، وبالراقصات والراقصين يحلقون كالفراشات ، فلم تبال . جاء بالمهرجين والحواة للتسرية عنها ، لما يعرفه من شغفها بهم وهى صغيرة ، فلم يستلفت ذلك اهتمامها .

زادت حيرته فى أمرها ، وقرر أن يعرف بنفسه ما فى سريرتها . ولما ألح فى سؤاله أخذت أميرة التنيس تحكى لأبيها الملك عن تلك الأحلام التى تراها فى منامها كل ليلة ، وأنها تطير فى السماء حتى ترى المملكة كلها أمام عينيها ، ثم تهبط فى بلاد أخرى لا تعرفها ولم ترها قبلا ، وقد تزوجت أمير تلك المملكة . وأخذت تصف له تلك المملكة كأنها رأتها . تعجب الملك وزادت حيرته أكثر من ذى قبل . والأميرة تحكى له كل صباح عما تراه فى ليلتها السابقة، حتى قالت له يوما إنها تشعر كما لو كانت تحمل فى أحشائها ثمرة تلك العلاقة بأمير تلك البلاد التى لا تعرفها . وعندما تبين أن الأمر حقيقة ، إنتاب الملك الكرب وركبته الهموم هو والملكة ، خاصة بعد أن بدأت أعراض الحمل تظهر على الأميرة . إستشار الملك حكيم المملكة ، فأشار عليه بأن تلازمها وصيفاتها ، وأن يحطن بها وهى نائمة ويبقين يقظات ، ففعل الملك ذلك . وفوجئ فى صباح اليوم التالى بالوصيفات يحكين له أنه عند منتصف الليل جاءت رياح قوية فتحت الشرفة ، وشعرن ببرودة شديدة تجتاحهن تحولهن معها إلى تماثيل جامدة غير قادرة على الحركة ، ورأين الأميرة تطير وتحملها الرياح معها ، ثم عادت مع شقشقة الفجر مثلما ذهبت ، وحطت فى فراشها .

عرض الملك الأمر على الحكيم ، فقال الحكيم إن ذلك من فعل سحرة مملكة الهكوش . إستشاط الملك غضبا وجمع جيوشه وشن حربا على مملكة الهكوش فى جميع أنحاء البحر ، وتعقبهم بجيوشه فى كل مكان حتى شتتهم فى كل أنحاء الدنيا ، لكن ملك الهكوش الذى فقد عزوته ، كان يحاول أن يجمع ما يمكنه من شتات جيوشه بين فترة وأخرى ويضع نفسه فى خدمة الطامعين فى مملكة التنيس ، ليعاود الهجوم عليها من خلالهم ، وفى كل مرة كان ملك التنيس يردهم مدحورين .

أما أميرة التنيس، فقد حارت فى أمرها وأمر تلك الثمرة التى تنمو فى أحشائها ، لكن أباها الملك قال لها إن القادم هو طفلك، إبن هذه المملكة التى تنتمين إليها ، أنت لم تختارى له أبا ، فهو إبن المملكة بأسرها ، التى ستكونين مليكتها . كانت هذه الكلمات تهدئ من روع الأميرة ، وتعينها على التحمل حتى وضعت طفلة جميلة تشبه أمها كثيرا. وكانت كما قال الملك ابنة المملكة بأسرها . كل نساء المملكة أمهاتها ، وكل رجال المملكة آباءها ، وكل أبناء المملكة إخوتها . وعندما أصبحت ملكة حكمت المملكة كأنها تحكم بين أسرتها ، وكانت تسمى الملكة شمس .

يستشهد الصيادون على ذلك عبر الرؤى التى تتجلى لهم فى ليالى البحيرة ، عندما تصطخب الأمواج ، ويتحول سطح البحيرة إلى قمم عالية يتفجر منها الزبد، ومنحدرات سحيقة ، وتندفع مياه البحر إلى البحيرة عبر الأشتوم فيختفى الصيادون، وتلبد الأسماك فى القاع .

وها هو يرى كل شئ بعينيه ، ويكاد يوقن بذلك وهو يرى نتوءات البحيرة والماء يندفع فى رشاشات ذات ألوان قزحية . وتعلو الأمواج حتى يكاد يرى قاع البحيرة ، والأسماك تتقاذف وتبحث لها عن ملاذ . ولا تغفل عيناه فى كل الأحوال عن متابعة تلك النقطة على خط الأفق ، ويراها تروح وتجئ متذبذبة كقب ميزان ، يطول الوقت وهو يتابع ما يراه مسترسلا مع خواطره ، حتى يباغته ضوء النهار وهو يشق ظلمة البحيرة . لم يشعر بملابسه المبتلة ولا ببرودة الصباح ، ينال الإنهاك منه حتى يعجز عن مجاراة روحه اليقظة .

يمضى اليوم فى جو معتم تظلله سحب رمادية كعلامة على الرؤيا ، وسطح البحيرة مازال مضطربا. اختفت قوارب الصيد ، وهجعت الطيور ، وترنحت عيدان البوص والهيش ، ولم يبق سوى نتوءات لجزر يسفر عنها انحسار الموج ، ولا تغيب

عـيناه عن تلك النقطة التى تتذبذب على خط الأفق ، وفى منتـصف اليـوم بدأت السماء تصـفو تدريجيا حـتى تبـددت السحب الرمادية ، وأرسلت الشمس قـبل المغيب شعاعا صحوا فى دفعة أخيرة ، شمل الوجود وسرى فى أوصـاله ، وأمده بطاقة أعانته على الترقب .

كانت النقطة تتذبذب على خط الأفق بقوة وهـى ترسل وميضا فى الظلمة ، تهتز المرئيات مع اهـتـزازها وتنعكس فى تماوجـات على سطح البـحـيـرة ، وتسـرى ارتعاشات فى جسده . تندلع روحه فى المشـهد ويتفصد العرق غزيرا حتى تبتل ملابسه وتلتصق بجسده فيضيق بها وهـى تعوق حركته .. هل هـى الإشارة قادمة؟ يدق قلبه بعنف وينتفض جسده . تلك النقطة تبحث لها عن مستـقر حتى ترسل الإشارة، تحاول النفاذ . ترى ماذا تحمل معها يا رب السماوات ؟

فى برهة سريعة مثل الومض الخاطف ، تقبض قوة هائلة على جسده وتهصره .. حين تقفز النقطة من خط الأفق ، وتغيب عن عينيه قبل أن تلتقطاها ثانية على الجانب الآخر للبحيرة ، وهـى تتحرك فى خط متعرج مع تعرجات حافة البحيرة ، لا يستطيع أن يتبين كنهها بوضوح وهـى تدب على الأرض مثل طيف . يشمله سكون ويرتخى جسده ، ويجد أنها تسير مع تعاريج البـحيرة شمـالا . تتفتق السماء بخيوط الضوء ، ويتبينها هيكلا لا يعرف ما هو على وجه التحديد ، ويراها تمضى حثيثا كأنما تتجه إلى هدف مقدر لها .

يعود كل شـئ أمامه مثلما كان عليه ، ويستطيع أن يميـز بوضوح ما حوله كما تعود أن يراه . يسمع صياح الديكـة ، ثم الحركة اليومية المعتادة وهى تدب فى المكان ، وصوت سكينة وأمينة . يحاول النهوض من مكانه فتخور قواه .

لم تصدق سكينة نفسها وهـى تسمع صوته يناديها ، فأسرعت إليه وأمينة فى أعقابها .

الفصل الثالث

لم يتبدد قلق سكينة رغم عودة السيد الفرماوى إلى بيته وإلى فراشه . ما بين نوبات السبات العميق وصحو الهذيان كانت تحاول أن تستشف ما يعانى منه ، وما تراءى له عبر البحيرة خلال الأيام الثلاثة التى أمضاها وحيدا لا يشعر بما حوله . يجذب القلق سنوات عمرها المنصرمة فى لحظة واحدة ، وتطل منها لحظات الوحشة والانكسار التى أمضتها فى البيت الكبير وهو بعيد عنها ، خلال طلعات الصيد التى كان يقوم بها فى البحيرة ، وكذلك الرحلات التى كان يقوم بها إلى القرى والمدن البعيدة حول بحيرة المنزلة ، والزيارات التى كان يقوم بها للفرما فى موسم الحج وتمتد أياما . كجبل يحط على قلبها ، تستعيذ من تلك اللحظات الموحشة التى توقظ مخاوفها وتقوض لحظات الاستقرار التى تنعم بها معه منذ جاءا معا إلى الفرما واستقرا فى المناخ . تنظر حولها لتستمد اليقين، البيت والجدران والنزل والمسافرين وحجرات الخزين والوجوه التى ألفتها، وأمينة التى تتحرك بخفة فى المكان ملء العين وتزاول الأعمال بمهارة ، تنطلق بإحساس من يمتلك المكان . لم تعرف البيت الكبير وعوائد النساء فيه وأحكام الرجال . تتذكر أنها والسيد الفرماوى لم يرددا على مسامعها ذلك ، وتركا الحياة الجديدة تحدد عوائدها وأحكامها ، كان أكثر ما يقلقهما أن تتزوج أمينة من رجل يأخذها بعيدا ، إلى حياة لم تألفها تذبل فيها ، ويذبل المكان من بعدها .

كثيرون من سكان الفرما مثلهم . جاءوا من القرى البعيدة حول البحيرة ، هربا من سطوة الأهل وسطوة كبار الصيادين سعيا وراء الرزق بعد أن ضيقوا عليهم الخناق . يتجمعون فى بيوت صغيرة ويعيش معظمهم على الصيد ، ويعمل بعضهم

فى التجارة أو فى قراريط صغيرة مزروعة بالخضر جنوبى المناخ تغمرها المياه أثناء الفيضان .

تذكر ما أفضى به السيد إليها عن شرود أمينة ونظراتها المرسلة نحو الغيب ، وحديث بن إدريس إليه عن الآتى من الغيب . هل هو المجهول الذى أخذه خلال الأيام الثلاثة الماضية ؟ هو وأمينة مشدودان إليه . لا تستطيع هى أن تدرك ما يأخذهما إليه ، أمينة نفسها لا تدرى ما بها ، وكم حاولت هى والسيد وهما يطوفان بالأضرحة ويزوران مقام بن سلام ، ويتوسلان بأهل الخطوة . تتساءل: هل هى الرابطة التى تربط البنت بأبيها ؟ تحاول أن تستشف ذلك من ملامحها، وتشعر سكينة بالرهبة إزاء أمر مستغلق عليها لا تستطيع أن تعرف كنهه .

تحاول أمينة مع أمها أن تتبينا من الكلمات التى يهذى بها ما انتابه، دون جدوى. تضعان الطعام فى فمه ، يزدرد القليل وقطرات من الماء ثم يسقط فى السبات العميق . وخلال الأيام الثلاثة الماضية التى أمضاها فى مجلسه أمام البحيرة كانت أمينة تحاول أن تجعل كل شئ يمضى كما هو ، وتستقبل الحجاج الذين بدأوا يفدون إلى المناخ وتقوم بالأعمال التى تقوم بها وتعطى الأوامر للشغيلة وهى تطل عليه من حين لآخر . تحاول أن تحادثه لكنه يبدو مأخوذا إلى عالم آخر ، تتأمل ما ارتسم على ملامحه من ظلال لأخيلة لا تعرف كنهها ، وملامحه وهى تتقلص حينا وتنبسط حينا ، وعيناه تحملقان بلمعة غريبة فى شئ لا تستطيع تبينه، ثم تزوغان فى نظرات غير محددة . تنتابها الوساوس ويتصاعد لديها ذلك الهاجس الذى ينتابها ويشدها إلى البعيد الذى لا تعرفه ، شئ ما تستشعره لكنها لا تدرى ما هو ، ولا تعرف كيف تبوح به حتى لنفسها وهو يعتمل داخلها مخلفا تلك الأشواق المبهمة التى تخربش فى صدرها . تنتابها رعشة عند هذا الحد ، هل يدرك أبوها ما لم تستطيع أن تدركه ، ويعرف ما لا تعرفه هى غير سكان المناخ وزواره وحياتها فيه؟ يتولد لديها يقين بما هو فى عالم الغيب ، ويشملها بسكون

مفاجئ يلجم تلك الرغبة فى الانفلات خارج المكان التى تسيطر عليها . تنكب على العمل وتعود إليها تلك الألفة بالأشياء .

ثلاثة أيام أخرى أمضتها سكينة بجوار فراش زوجها كادت تجن خلالها وهى تراه أمامها لكنه غائب عما حوله ، كأنما نادته جنيات الماء وسحبن روحه للقاع . بدت لها البحيرة عالما موحشا غير ذلك الذى عرفته وأحبته وانعتقت فيه روحها ، وتمنت أن تمضى أيامها بين أمواجها اللينة التى تهدهد روحها وسماءها المفتوحة التى حبلت فيها بأمينة ، وخلال المرات التى اصطحبها فيها السيد الفرماوى إلى رحلات الصيد التى يقوم بها كشف لها عن عالم جديد ، وهو يمسح عنها مرارة العناء الذى لقيته من الأهل فى غيابه ، وهم يرددون له على مسامعها أن يتزوج بأخرى تنجب له الأولاد والبنات مثل باقى أخوته ، ويعمر الجانب المقفر من الدار.

كان أكثرهم مهارة وأوفرهم رزقا ، رغم ذلك عاشت على فتات نساء الدار . يعود كل مرة بالخيرات مما استبقاه من أطيب أنواع السمك الذى اصطاده ، والحلوى الدمياطية والأثواب من الحرير والكشمير والجوخ لا سيما مع قدوم الأعياد يتسابقون للفوز بأحلى ما فيها ، ويتركون لها ما لا يلزمهم أو لا يتركون شيئا ، وهى ترقبهم عن بعد .

فمنذ اشتد عوده كان يساعد أباه فى زراعة القراريط القليلة التى يملكها ويساعده فى الصيد الذى شغف به وأصبح يجوب البحيرة وحده . كان أبوه يمتلك قاربين صغيرين ، لكنهما لا يصلحان سوى للصيد فى المياه الضحلة القريبة من الشاطئ ، ولم يعودا كافيين لاحتياجات الأسرة المتزايدة بعد زواج إخوته ، فلجأ البعض منهم للعمل لدى كبار الصيادين خضعوا لسيطرتهم ، إذ كان هؤلاء الكبار يفرضون سطوتهم على البحيرة ، ويستعينون على ذلك بعصابات من الرجال الأشداء ويستأثرون بالأحواش الواسعة ويمنعون صغار الصيادين من الاقتراب منها . لذا ، كانت الطلعات التى كان يقوم بها مثار قلق لأبيه الذى كان يحكى له

دائما عن الصيادين الصغار الذين دفعوا حياتهم ثمنا لتلك الطلعات ، دون أن يجرؤ أحد على الإشارة إلى الفاعل ، عندما كانوا يكتشفون جثة طافية فوق الماء أو محتجزة بين عيدان البوص ، فضلا عمن اختفوا ولم يعرف أحد لهم مكانا . واضطر أبوه فى النهاية إلى منعه من أخذ المركب وحده ، فقال لأبيه : أرض الله واسعة ، ما الذى يجعلنا نتحملهم .

طاف بشواطئ كثيرة وتعرف على القرى والبلدان الواقعة على شواطئ البحيرة للعمل مع الصيادين فيها . زار المنزلة والمطرية وشربين وفارسكور وشطا ودمياط ، وفى كل مكان كان يواجه سطوة الكبار ، لم يجد مكانا آمنا سوى فى الفرما ، فكان يمضى فيها أوقاتا طويلة. هناك تعرف على العم أحمد سلمان ، وتعلم على يديه فنون الصيد ، وأحب عالم البحيرة من خلاله . العم أحمد سلمان صياد ماهر عجوز أمضى عمره فى الصيد ، عرف منه أنواع الأسماك المختلفة وأماكن تواجدها ومواسم تكاثرها وأوقات الصيادين المناسبة . كان يمضى أياما على الجزر ويعمل معه بعض الصيادون ، ومنهم بطرس صالح الذى أصبح صديقا له . ثم جاء بعده همام عبد الله إلى الفرما وانضم إليهما واستقر فيها ثم تزوج ابنة العم سلمان ، وعندما توثقت الصداقة بينهما فيما بعد ، حكى له أنه كان هاربا من السخرة ، ولم يستطع العودة إلى قريته ، فظل متخفيا سنوات وهو ينتقل من بلد إلى بلد حتى استقر فى الفرما .

شهد السيد الفرماوى قوافل الحجاج الذين يفدون إلى الفرما فى مواسم الحج ويحطون رحالهم فى المناخ وينخنخون الجمال ، يمضون أياما للراحة والتزود بالطعام الذى يحمله إليهم الفلاحون ثم يواصلون الرحلة للأراضى المقدسة بصحبة الأدلاء من البدو حتى السويس. كان بعضهم يأتى بالسفن إلى ميناء دمياط ويعبرون البحيرة إلى الفرما فى مراكب الصيادين ثم يواصلون الرحلة البرية مع الآخرين . عندما استطاع أن يحقق حلمه ويمتلك قارباً ، كان ينقل الحجاج عبر البحيرة ، وكثيرا ما كان يعرج بهم على تل بن سلام ليقرأوا له الفاتحة .

كانت الأسرة كلها تلتف حوله عند عودته ، أبوه وأمه وأخوته وزوجاتهم وأطفالهم ، يحكى لهم عما رآه .. عن السفن التى ترسو فى ميناء دمياط حاملة البشر من كل صوب .. مغاربة وشوام وأروام يأتون للتجارة ، وعن الأسواق والورش والصناع .. عن الموالد والمقاهى وليالى الطرب والمغنى ، فكانوا يستمعون إليه مأخوذين ، وهم الذين لم يغادروا قريتهم قط .

كانت تراوده الرغبة فى زيارة المحروسة التى طالما سمع عنها من المسافرين فى ميناء دمياط الذين يبحرون فى النيل حتى تحقق له ما أراد عندما ذهب مرة فى صحبة بعض الحجاج المغاربة الذين يحرصون على أن يأتوا مبكرا عن موسم الحج ، ليكون أمامهم متسع من الوقت لزيارة أهل البيت وأولياء الله فى المحروسة ، وللتجارة وزيارة معارفهم ، وبعضهم كان له أقارب مقيمون فيها . رأى عالما كبيرا لم يره قبلا .. المساجد والجوامع والمدارس والبيوت الكبيرة ذات الطوابق العديدة ، والشوارع الواسعة المزدحمة والوكالات الضخمة والقصور ، وأحياء كاملة لكل صناعة ، النحاسين والصاغة والفحامين والنجارين والحدادين وغيرهم ، حتى أنه عندما أخذ يحكى لهم عند عودته لم يستطع خيالهم أن يلم بكل ما يحكيه .

وفى غير مواسم الحج ، كان يعود للصيد ويحمل محصول الصيد من القرية إلى الأسواق بنفسه بدلا من انتظار التجار الذين يأتون ليشترونه بأثمان بخسة . تعرف على التجار وكان ينقل البضائع لهم فى قاربه عبر البحيرة ، ثم أخذته التجارة من الصيد .

ورغم كل الأماكن التى طاف بها ، لم تسترح نفسه إلا فى الفرما . أحب الفرما وسكانها الوادعين الذين يستقبلون الغرباء بكرم فى مواسم الحج ، يجذبون التجار بالبضائع إلى أسواقها ويقومون على خدمتهم ويقدمون لهم المؤن والزاد . كان يجلب الأطعمة والسلع من الأماكن التى يجوبها ويمكث فيها طوال تواجد الحجاج حتى لقبوه بالفرماوى.

تقول له أمه : كبدى عليك يا ولدى ، خيرك كثير لكن أرضك بور.

– أأتزوج غير سكينة ، أو آتى لها بضرة .. مستحيل .

تلوى شفتيها قائلة : إمرأة ، لكن ليتها مثل باقى النساء .

سكينة التى انتزعها من بين الأهل وشباب القرية ، والتى لم يحلم بسواها ، جاء بها إلى الدار مزهوا وجاء الخير بقدومها ، ينعم به الجميع ما عداها. يشعر بجرح عميق وهو يرى المهانة التى تعيش فيها وهم يوكلون إليها الأعمال الشاقة ، تنظيف الدار وجلب الماء وإعداد الزوادة للرجال والقيام بأعمال المنزل ، وفى الوقت المتبقى تنحنى على غزل الشباك . وفى كل مرة يعود ليرى عودها يذبل وظهرها ينحنى ويداها تخشوشنان . نساء الأخوة اللاتى كن ينظرن إليها بحسد أصبحن ينظرن إليها فى شماتة ، وهن يشاركن بأقل القليل ويتعللن بمشاغل الأولاد، ويرددن له على مسمعها أن يتزوج بأخرى ، ويرشحن له الفتيات من أقاربهن ويأتين بهن للدار . ويسخر الأخوة من مشاعره تجاهها .

فاجأهم يوما وقد قرر اصطحابها معه . قامت الدنيا ، التفوا حولهما ، وهى تمسك ببقجة وتتوارى خلفه.

– لم يبق سوى النساء يطلعن إلى البحيرة.

– أمضى أياما كثيرة بعيدا ، وأنا بحاجة إلى امرأتى.

– بلا قلة قيمة ، لم يبق سوى أن تعلمها التجديف ونزول الماء.

– فى المرة القادمة تطلع هى للصيد وتبقى أنت فى البيت تعمل الغزل ، وترسل لها الزوادة .

هذا الحديث كان يدور ، بينما النسوة يتهامسن عن تلك الساهية التى سحرت له ، وينظرن إليها بغلّ .

لم يبال السيد بكلامهم ، واصطحبها معه إلى الفرما . رأت عالم البحيرة الواسع لأول مرة ، ورأت الفرما مكانا هادئا آمنا ، وشهدت مودة الناس لزوجها

الذى يعرف الكثيرين منهم ، ورحبت النساء بها. نصبا خيمة على شاطئ البحيرة وأقاما فيها . كانت تساعده وهو يقوم بالصيد مثلما تفعل النساء هناك ، حتى جمعا المحصول ثم لملما حاجاتهما وتوجها إلى المنزلة ، ثم قفلا عائدين إلى القرية.

كانت الغيرة قد أكلت قلب نساء الدار ، فما أن وصلا حتى أخذت حماتها تلقى إليها الأوامر بالأعمال التى يجب أن تقوم بها وهى توجه إليها السباب ، وانتهزت بقية نساء الأسرة الفرصة للاحتكاك بها ، وانتحين بها جانبا وتكالبن عليها يضربنها ويجذبنها من شعرها وملابسها التى تمزقت فى أيديهن . اندفع السيد على صوت استغاثة زوجته وخلصها منهن وهو يطيح بهن ، وأقسم ألا يبيتا ليلتهما فى الدار. حاول أبوه وأخوته التدخل ، لكنه أصر .

كان الوقت يقترب من المساء ، نصبا خيمة على شاطئ البحيرة وأمضيا فيها الليل . مع شقشقة النهار ، استقلت معه القارب وهو يشق البحيرة . عرج بها على تل بن سلام ، وقفت أمام المقام تدعو من قلبها الملتاع أن تثمر أحشاءها ، وتعمر بيتها بالأبناء ، بنت أو ولد كله رضى من الله ، انفلتت الدموع من عينيها ، وانخرطت فى بكاء طويل ممرور ، والسيد يرقبها فى أسى .

لم تشعر باليد التى تربت عليها إلا عندما انتبهت إلى أنها ليست لها ملمس يد السيد التى تعرفها جيدا ، لكنها يد تربت بحنان ، التفتت بسرعة ، طالعها وجه باسم صافى ، انغرست نظراته فى أعماق سريرتها .

قال لها : تفاءلى خيرا يا ابنتى .

قال لها السيد : رجل كله بركة .

عرفها بابن إدريس الذى حدثها عنه قبلا . وها هى أخيرا تلتقى به وجها لوجه ، وقفت محملقة فيه وابتسامته تتسع حتى شملتها بسكون مفاجئ ، وها هو فى أول كلمة يدعوها أن تستبشر خيرا ، وكأنما حلت فيها البشرى . كانت تعرف الكثير عنه من حكايات السيد ، فعندما كان يعود من رحلاته ويحكى للأسرة عما

رآه وفعله ، كان يختصها وحدها بحكاياته عن بن إدريس ، وترى فيها عالما أرحب من ذلك الذى يحكى لهم عنه فى رحلاته ، حكايات تطلق العنان لخيالها وأحلامها ، وتبعث بشكل ما السكينة في نفسها . كان السيد نفسه وهو يحكى لها هذه الحكايات يفيض حماسا ..

تعرف به السيد حين رآه أول مرة جالسا على شاطئ البحيرة بحثا عن أحد الصيادين ليوصله فى طريقه إلى تل بن سلام ، أوصله وأمضى معه بعض الوقت يتحدثان . استلفت نظره تلك الكتب التى يحملها معه ، وأحس أنه ليس فقط واحدا من مريدى بن سلام ، بل يبدو أيضا عالما جليلا . أنس إليه ونشأت بينهما صداقة توطدت مع الأيام وكثيرا ما كان يعرج على تل أبن سلام ليراه ويمكث معه بعض الوقت ويجد أنساً فى صحبته ، فقد جعله يرى الكثير كما تعلم منه الكثير . لم يحددا مكانا أو زمنا للقاء ، لكنهما كانا يلتقيان كثيرا ، فى تل بن سلام عند المقام أو فى جزيرة التنيس أو على شاطئ البحيرة.

فتح بن إدريس عينيه على عالم واسع ، أوسع بكثير من عالم البحيرة والقرى والمدن التى زارها ، كان يفيض بأحاديثه فى أمور الدنيا والدين ، وأخبار الناس والقرى والبلدان وأخبار الأولين ، ويحدثه عن السير والفتوحات ، وعن الصوفية والمتصوفة ، يقرأ عليه أحيانا من الكتب التى يحملها ويشرح له المعانى ويتلو عليه الأشعار فتتوارد إلى ذاكرته بعض التواشيح التى كان يسمعها فى دمياط وتجذبه ألحانها دون أن يعى المعنى فكان يفسرها له ، وحفظ بعضها عنه .

وبعد أن استقرا فى الفرما ، ظل بن إدريس يتردد عليهم ، وعندما جاء بعد أن ولدت أمينة قدمها إليه السيد ليرقيها . دعا بعد الرقية قائلا : ليحرسها الله من كل أذى وليعمر بها نسلك ويعوضك بها خيرا .

كان يرقبها وهى تنمو يوما بعد يوم ويحمل لها الحلوى ويداعبها ويرقيها ، فكانت تتهلل لرؤيته . جاء آخر مرة وقد أصبحت أمينة صبية ، رأى البيت وقد

اتســع وتوافد المسافرون وقد ازداد عددهم ، والسيد الفرماوى وسكينة يبذلان ما بوسعهما فى عمل دؤوب ، وأمينـــة تتعلم منهما . ربت عليها ورقاها وقال للسيد : ابنتك سيتسع صدرها للشمس والريح ، مثلما ستتسع سريرتها للآتى من عالم الغيب ، فانتظر ما ســتأتى به الأيام ، ولا تجزع ، فالغيب علمه من عند ربى.

لم يره السيد بعدها ، انتظره ولم يأت ، كان يستوحشه ، ويبحث عنه فى الأماكن التى اعتاد أن يراه فيها دون جدوى . وطالت الأيام فقال لسكينة : لقد اختار مقره ومثواه . وكان دائما ما يتذكره قائلاً : رحمه الله حيا أو ميتا ..

كشفت البحيرة لسكينة عن عالم واسع وهى تنتقل مع السيد من مكان لآخر يترددان على القرى والمدن ويجوبان الشواطئ ويستقران على الجزر ، ينصب السيد الفرماوى خيمة من عروق الخشب أو حزم البوص أو بالمجاديف ويغطيها بقلع المركب ويقضيان فيها الليل ، ويمضى الوقت كحلم تخشى الاستيقاظ منه على البيت الكبير . كانت تشعر بالأمان والحب رغم عدم الاستقرار فى مكان واحد ، إذ كان على السيد أن ينتهى من أعماله وهى تساعده وتتعلم منه . كل لحظة تحمل لها شعوراً جديداً ، والقارب يرسو كل مرة على شاطئ مختلف . حضرت معه مولد سيدى أبو المعاطى فى دمياط ، استمتعت وهما يخوضان فى الزحام بمظاهر الاحتفال من ذكر وإنشاد وطرب وأحابيل الحواة ورقص الغوازى ، اشترى لها الحلى والملابس ، باتا ليلتهما على إحدى الجزر فى البحيرة ، قال لها : الفرما .. أرض مباركة وبكر .. تفتح ذراعيها للقادمين ، هناك سنبنى بيتا ، وستكون لنا حياة .

تتطلع إلى سماء البحيرة المفتوحة والنجوم التى تتناثر فيها متلألئة متهجدة يتناهى إليهما نقيق الضفادع وصوت طائر يقطع السكون بين حين وآخر . نسائم منداة تصافح وجهها ، تتدافع فتنتفخ ثيابهما والسيد يحيطها بذراعه ، يسرى

دفء بينهما وتتأجج الرغبة ، يميلان بجسديهما وينتظم إيقاعهما مسترسلا مع وشيش الموج ، تملأ عينيها بصفحة السماء المفتوحة وينتفض كل جزء فى جسدها وهى تعتصر الرحم ليطلق تلك الرغبة من روحها وكيانها بذرة مضيئة ، مثل تلك التى تتناثر أمام عينيها فى السماء.

كادا كلاهما يجنان فرحا ولم يصدقا نفسيهما عندما بدأت بطنها تنتفخ ، نشطت أحلامهما وهما يريان المكان يضج بالأطفال . كان السيد الفرماوى قد أكمل بناء البيت الذى ولدت فيه أمينة . لم تنقطع صلاتهما بالأهل فى القرية ، وكانت سكينة تذهب كل مرة وقد ازدادت بهاء . أثارت غيرة زوجات الإخوة ، لكن عندما مرت الأيام ولم تنجب مرة أخرى أعادوا على مسمعه ثانية أن يتزوج ، لكن لهفته على أمينة خيبت توقعاتهم .

صرخت سكينة فأسرعت أمينة إليها . كان السيد الفرماوى قد بدأ يفيق ، فتح عينيه وتناول جرعة ماء وسأل عن أمينة ثم سقط فى السبات . فتح عينيه ثانية وابتسم لهما بوهن وأنفاسه تتردد بانتظام وقوة كأنما يستنشق أكبر قدر من الهواء ، اطمأنتا عليه وتركتاه يستريح . انصرفت سكينة إلى شؤون المنزل وخرجت أمينة لتجلب الماء .

تسمرت قدما أمينة عندما وجدت نفسها أمام زائر جديد يطرق المكان ، لم تر قبلا مثل هيئته ، شيخ مهيب فارع القامة ذو لحية سوداء كثة ، شملها بنظراته التى دارت فى المكان سريعا . حيا الموجودين قبل أن يتخذ مكانه فى ركن تحت التعريشة ، تبدو عليه وعثاء السفر لكنه لا يحمل معه أى متاع . ظلت واقفة مكانها للحظة مشدودة إليه ، وتلك النظرة السريعة نفذت فى كيانها كالسهم المارق . ظلت نظراتها مشدودة إليه لكنه دار ببصره بعيداً ، وهو ساكن فى جلسته . أخذت تؤدى عملها وعيناها عليه ، لم يتحدث أو يسأل كما اعتاد المسافرون عندما يصلون إلى المكان ، كأنه يألف المكان ، رغم أنها تراه للمرة الأولى ، واحد من هؤلاء الذين لا يسألون ، بل يعرفون ما هم مقدمون عليه ، عيناه تنتقلان من بقعة

إلى أخرى متمليا ، وهو يتمتم بشفتيه . دخلت الدار وألقت نظرة على أبيها ومكثت معه بعض الوقت وهو بين الإفاقة والنوم . حملت قلة ماء باردة ووضعت في حلقها عودا من الريحان وحملتها إلى الشيخ ، عندما اقتربت منه لم تستطع النظر إليه ، وكادت أمينة تتعثر فى مشيتها عندما استدارت. عندما حان موعد الطعام حملته إليه ، نظر إليها وهز رأسه دون أن يتحرك من مكانه ، وتمتم شاكرا دون أن ينظر نحوها .

بعد ظهيرة ذلك اليوم ، رأته ينهض متجها إليها ، سأل عن صاحب الدار . سألته إن كان من معارفه ، هز رأسه دون أن يجيب . قالت له إنه بعافية فطلب أن يراه ، قادته إلى فراش أبيها ، وقف أمامه يتأمله وهو نائم ، ثم جلس برفق على حافة الفراش .

مسد رأسه بكفه ، فتح السيد الفرماوى عينيه بوهن وأمسك بيد الشيخ ، تسربت ابتسامته من شفتيه وهو يغالب النعاس حتى استسلم له والابتسامة عالقة بشفتيه ؛ نهض الشيخ برفق من جواره ثم التفت إلى سكينة وأمينة مطمئنا إلى أنه سيكون بخير. خلال اليومين التاليين، ظل يتردد عليه ويمكث معه بعض الوقت ويتلو الأدعية ، وقد بدأ السيد الفرماوى يفيق تدريجياً وتقل نوبات هذيانه، وجسده يستجيب لنعاس هادىء ، كما بدأ يألف وجه الشيخ ، الذى كان وجوده يبعث الطمأنينة فى نفس أمينة وسكينة التى قالت عنه إنه رجل مبارك من أهل الخطوة . كانت أمينة تقدم الطعام للشيخ وتهتم بأمره وهو يتخذ مجلسه تحت التعريشة حيث يبيت ، وتراه وهو يغادر المكان ثم يعود ثانية. وكل مرة تراه يسير فى اتجاه مختلف . مرة يتمشى على شاطىء البحيرة ، ومرة ناحية البحر ؛ أو يوغل السير شرقاً حتى يغيب عن عينيها ؛ ثم يأتى ليستأذن فى دخول البيت لرؤية أبيها.

ثلاثة أيام أمضاها السيد الفرماوى فى الفراش، وفى صبيحة اليوم التالى سمعته سكينة يناديها . سقطت الجرة من بين يديها وأسرعت إليه بملابسها

المبتلة، وجدته مضطجعا فى الفراش ، صاحت متهللة ولحقت بها أمينة أحاطتا به وكأن الروح ردت إليهما . كان فى كامل صحوته وقد بدا عليه الإرهاق كأنه عائد لتوهه من سفر بعيد ، سمعتا صوت الشيخ يستأذن فى الدخول. استقبله السيد الفرماوى وأفسح له مكاناً ليجلس بجواره ، قال له : أتعبناك ياوالدى.

نظر الشيخ إليه طويلا وقال : عود حميد.

إصطحبه خارج الدار ، وجلسا فى الركن الذى اتخذه الشيخ مجلسا ، تعلقت به عينا السيد الفرماوى متمليا ، وشعر براحة وألفة نحوه رغم أنه لم يره قبلا بملامحه المميزة تلك . سأله : من أين أتيت يامولانا ، وما هى وجهتك؟

قال إن اسمه السيد القبوطى، وقد ترك بلدته منذ زمن بعيد ويتجول فى أرض الله الواسعة وزار قرى وبلدانا ، كان يمكث فيها لبعض الوقت ثم يغادرها إلى غيرها، حتى وصل إلى الفرما . نظر إليه السيد الفرماوى مستفهما ، فقال : كل شىء بأوانه فالأرض تنادى ناسها.

لم يفهم السيد الفرماوى مغزى كلماته ، أجفل من السؤال ، شعر أن ضيفه يخفى وراءه أمراً جللا، ربما يكون هارباً من ثأر فى الصعيد ، أو هارباً من السلطة أو الجهادية أو السخرة، فملامح الضيف توحى بالتقوى والصلاح ولايمكن أن يكون قد أتى أمراً شائنا.

أعدت سكينة طعاماً شهياً شاركهم فيه الشيخ . استعاد الفرماوى حيويته وأكل بشهية ، وهو لايكاد يذكر ما ألم به خلال الأيام الستة التى أمضى ثلاثة منها فى جلسته أمام البحيرة ، وثلاثة أخرى أمضاها طريح الفراش.

منذ تلك اللحظة ، لم يفترق السيد الفرماوى والشيخ. إذ كان السيد الفرماوى يصطحبه معه أينما ذهب، خاصة بعد أن أبدى الشيخ رغبته فى الإقامة فى الفرما. كان قليل الكلام، لكن السيد الفرماوى استشف من كلامه أنه ترك بلدته منذ زمن، وقد أمضى عمره فى التجوال إثر حادث لايود الإفصاح عنه، ولم يشأ أن يلح فى الأسئلة.

كان السيد الفرماوى يفكر فى أمر البعض ممن يفدون على الفرما من بر مصر، خاصة فى مواسم الحج ، تشى لهجتهم أنهم أتوا من أماكن بعيدة عن البحيرة، كثيرون منهم كانوا ينصرفون بعد انصراف الحجاج، وبضعة منهم كانوا يستقرون فى الفرما ويصبحون من أهلها. كانوا فى البداية حذرين فى التعامل ، يتحاشون الحديث عن أنفسهم ، وأهل الفرما بدورهم كانوا يتعاملون معهم بحذر، ويحاولون أن يسبروا غورهم ، ويتبينوا من هم ، إذ ربما يكون الواحد منهم قد أتى أمراً منكراً أو هارباً من العدالة ، لكن بمرور الوقت عندما لايستلفت نظرهم شىء ، ويجدونه شخصاً مسالماً ، يقبلون عليه ، وبمرور الوقت يصبح واحداً منهم، وينسون ما كان من أمره . أغلبهم كانوا يتعلمون الصيد مثل همام عبد الله . لكن السيد الفرماوى كان يحيره أمر الشيخ ، وأين أمضى عمره قبل أن يأتى إلى الفرما بعد طول تجوال، أدهشته رغبة السيد القبوطى فى أن يتعلم منه كل شىء، ومنذ اللحظات الأولى وهو يساعده فى كل مايقوم به من أعمال ، حتى أن السيد الفرماوى كان يشعر بالحرج ويحاول أن يثنيه ، لكن الشيخ كان يبدى حماساً وإصرارا، وأدهشه قيامه بالأعمال الشاقة بجلد يعجز عنه الشباب ، وحار فى تحديد عمره ، كان يناديه : «يامولانا» حتى طلب منه أن يناديه باسمه .. السيد القبوطى.

طلب السيد القبوطى أن يتعلم منه الصيد وحذقه ، كما تعلم منه كل مايقوم به من أعمال ، وسرعان ماألفه أهل الفرما الذين تعودوا على مجىء الغرباء ليقيموا فيها كما جاء الكثيرون منهم . وأظهر من رجاحة العقل ما جعلهم يتحدثون إليه فى أمورهم ويستشيرونه ويحتكمون إليه فى المشاكل التى تواجههم، كما تعرف بالناس فى الأماكن التى يتردد عليها مع السيد القبوطى واكتسب مودتهم وصداقاتهم . رغم ذلك كان هناك هاجس يراود السيد الفرماوى .. أن ضيفه معرض لمكروه ، وكان يرقبه عن كثب، ويتفحص وجوه القادمين الأغراب خشية أن يكون هناك من يقتفى أثره.

ظل السيد القبوطى مدار حديث بين سكينة والسيد الفرماوى ، فقد اطمأنت إليه سكينة منذ كان يعود زوجها وهو طريح الفراش . قال لها السيد الفرماوى : لا أدرى لماذا يذكرنى بابن إدريس. كل منهما ذو عقل راجح وحكمة وأمضى حياته متنقلاً، لكن بن إدريس لم يبد رغبة فى الاستقرار وكان زاهداً متصوفاً، لكن السيد القبوطى يرغب فى الاستقرار، كأنما طاف البلدان ليبحث عن مستقر، وكأنما وجد ضالته فى الفرما، وأراه مقبلاً على الحياة، كما يبدو كمن يبحث عن شيء لا أدرى ما هو بالضبط.

كان السيد الفرماوى يرى الضيف وهو يذرع المكان حتى يغيب عن عينيه ثم يعود ثانية ، أو يطلع إلى البحيرة وحده ويغيب نهاراً بكامله أو يغيب فى الصحراء المحيطة بالفرما، وعندما سأله قال إنه يكتشف المكان. وذات مرة غاب حتى أوغل الليل ولم يعد ، وفى الصباح سأل عنه فى كل مكان فى الفرما، قال أحدهم إنه رآه يسير وحده شرقاً، أثار قلق السيد القبوطى حتى قال لنفسه: ليتنى ماتركته وحده. وأخذ يلوم نفسه وهو يشعر بفداحة فقده؛ وبعد ثلاثة أيام عاد بن إدريس وأخبرهم أنه ذهب إلى رأس الجسر، ووصل إلى قرية التمساح ثم عاد. أما ما أثار انتباه السيد الفرماوى خلال فترة غيابه ، فهو قلق أمينة عليه، فلم تكف من السؤال عليه وأعربت عن خشيتها ألا يعود ، ولم تخف فرحتها بعودته . لاحظ أنها بدأت تهتم بنفسها واستردت طبيعتها وانطلاقها ، وعملت خلال موسم الحج بهمة ونشاط وشارك معهم السيد القبوطى فى العمل.

استيقظ السيد الفرماوى ذات صباح ووجده قادماً من اتجاه البحيرة محملاً بحزم من البوص ، تجاوز بيته وطرحها أرضا وهو يلتقط أنفاسه قائلا : سأبنى بيتا هنا.

أحضر السيد القبوطى المزيد من عيدان البوص ، أخذ ينسج منها حصائر الكيب ثم أحضر عروقاً من الخشب وألواحا ، واختار مكاناً قريباً من منزله تجاه البحر، وعكف على إقامة المنزل . وكان السيد الفرماوى يساعده ، ومعه بعض

الرجال والصبية ، وخلال أيام من العمل المتواصل انتهى من إقامة البيت. عمل السيد القبوطى للبيت بابا على البحر وبابا آخر يفتح جنوباً تجاه بيت السيد الفرماوى ، وخلال أيام من العمل المتواصل انتهى من إقامة البيت وجعل أرضيته من ألواح الخشب مقامة فوق دعائم قوية من جذوع الأشجار ومرتفعة عن الأرض بحيث تسرب الماء إذا ما ارتفع الموج، مثل بيوت كبار الصيادين ، بيت رحب له نوافذ مفتوحة على كل الاتجاهات ، وله شرفة ذات مظلة من الكيب ، تستند حافتها على أعمدة مثلثة من الخشب ، ويستقبل الهواء القادم من البحر والشمس القادمة من المشرق ويكشف مساحات على مدى البصر حتى أشتوم الجميل وبحيرة المنزلة.

وبعدما انتهى من بناء البيت تجمع أهل المناخ حوله مهنئين ومبدين إعجابهم به وهم يطوفون داخله ومعهم أمينة وسكينة. كانت أمينة تتحرك بين حجراته جذلة وهى تطل من كل جانب فيه. أعدت مع أمها طعام العشاء، وأكلوا جميعاً بشهية، وبات السيد القبوطى ليلته فى البيت ، بعد أن حمل إليه السيد الفرماوى بعض الفرش.

استغرق السيد القبوطى فى النوم حتى منتصف اليوم التالى ، ولم يشأ أحد أن يوقظه بعد الجهد الشاق الذى بذله فى بناء البيت. وفى أصيل ذلك اليوم وقف السيد الفرماوى محملقاً فى ذلك الشاب الذى خرج إليه من البيت غير مصدق نفسه وهو يقترب منه. فقد أزال لحيته وبدا أصغر بكثير مما كان يعتقد . جلس بجواره تحت التعريشة ، بدت ملامحه أكثر تحديداً ، كانت عيناه تتابعان أمينة، ولم يخف على السيد الفرماوى ماتحمله نظراتهما ، قال له كأنما يقر أمرا بات واقعاً: هى لك .. وأنت لها. ماذا تنتظر بعد.

الفصل الرابع

يظل ماحدث فى الفرما بعد قدوم السيد القبوطى وزواجه من أمينة صورة ثابتة فى مخيلة السيد الفرماوى، يحاول أن يرصد منها ما طرأ على الفرما من تغيرات حتى اكتملت صورتها التى ظلت ماثلة فى ذهنه قبل أن يجتاحها الطوفان، ويتغير كل شىء فيها .. حتى اسمها ، والوجوه الأليفة التى عرفها .. حتى الأحفاد الذين جاءوا من صلبه.

وهو يحكى هذه الحكايات كانت زاهية تستمع وقد علت الدهشة ملامحها، تماماً مثل الحكايات التى كان يحكيها لها هى وضاحى ومهران عن مملكة التنيس وأميرتها الجميلة، والكنز المخبوء فى سراديبها. كان ينجح للحظات فى إخراجها من أحزانها ويحاول أن ينسيها ذلك الكابوس المفزع الذى عاشته، تتحسس بطنها التى بدأت تتكور، وتعود إلى فصول المأساة بكل صورها المفزعة التى عاشتها، تجذبه من يقين التيه وتعيده إلى تهاويم الواقع ، حتى وضعت طفلتها يمنى. كان يأخذها منها ويضمها إليه، مثلما كان يحملها وهى صغيرة، ويواصل الحكى وهو يحاول أن يستعيد الأحداث بتراتبها، كما تتوارد إلى ذهنه ، وكما تتراءى له عن بعد ممتد إلى اللحظة الراهنة.

فخلال سنوات قليلة من مجىء القبوطى تغيرت معالم المناخ ، بل والفرما كلها، ليس فقط بمحاولة سكان المناخ محاكاة السيد القبوطى بإضافة شرفات بمنازلهم، أو توسيعها وإضافة حجرات أخرى إليها، ولكن السيد القبوطى دأب كل فترة على إقامة أبنية جديدة بين بيته وبيت السيد الفرماوى حتى ملأت المسافة بينهما ، وهيأ هذه الأبنية بحيث تكون مسكناً للحجاج خلال فترة إقامتهم فى الفرما، فأخذوا

يحذون حذوه حتى أحاطت الأبنية بساحة المناخ من كل جانب فيما عدا الجانب الممتد إلى شاطىء البحيرة. وبالفعل أقبل الحجاج على الإقامة فى تلك المساكن، إذ وجدوا فيها مكاناً مريحاً للإقامة بديلاً عن الخيام التى ينصبونها ولا تقيهم لفح الشمس أو لسع البرد أو وطأة الرطوبة، إذ كانت حصائر الكيب التى تحيط بها تمتص الرطوبة وتسمح بمرور الهواء، وفى الشتاء كانوا يحيطونها بأحمال من وبر الجمال الذى جلبوه من البادية، وكانوا يقومون بإعدادها وتجديدها قبل موسم الحج وقدوم الحجاج.

جذب المكان المزيد من الحجاج الذين كانوا يحطون رحالهم فى أماكن أخرى، على مشارف دمياط أو المنزلة وغيرهما، وازداد عدد الفلاحين الذين يأتون ببضاعتهم من فطائر وخبز ودواجن ولحوم وألبان ليبيعونها للحجاج، وكذلك الصيادون الذين يأتون بالأسماك، وأصبحت هناك سوق كبيرة فى الفرما خلال موسم الحج، إجتذبت المزيد من البائعين والتجار وتزايدت أعدادهم. واتسعت السوق مع الوقت، فجاء التجار، من دمياط والمنزلة والمطرية وأيضاً الإسكندرية ورشيد، بالأطعمة والأقمشة والثياب والعطارة وغيرها من السلع. ويتذكر السيد الفرماوى ما كان يردده كبار السن من أهالى الفرما وغيرهم الذين تناقلوا عن أسلافهم الحواديت عن الفرما فى سالف الأزمان عندما كانت عامرة ببيوتها الجميلة وورش الصناع ، ووكالات التجار، والأسواق التى كانت تعمرها، التى تزدهر فى مواسم الحج ويؤمها الناس من كل مكان. كأنها قد عادت ثانية.

يستعيد السيد الفرماوى صورة السيد القبوطى منذ مجيئه ورؤيته له فى المرة الأولى، عندما دخل عليه وهو طريح الفراش ، كيف استراحت نفسه لرؤيته كأنما كان يبحث عنه منذ زمن طويل، وكيف أصبحت الرابطة التى ربطته بابنته ولهفته عليها وقد تحولت من خلال السيد القبوطى ، وهو يرقبهما مغتطبا. واستطاع السيد القبوطى خلال فترة وجيزة أن يُرسخ علاقته بالناس داخل الفرما وخارجها، كأنه عاش بينهم زمنا ، وأصبح له معارف كثيرون فى القرى التى يتردد عليها قبل

مواسم الحج لإحضار المؤن والدريس وتخزينهما . كان يدعو الباعة والتجار ليأتوا ببضائعهم إلى الفرما خاصة الشباب الذين يبحثون عن لقمة العيش، وكثيراً ما كان يعود مصطحبا معه واحداً منهم ليساعده فى العمل، ثم لا يلبث كل منهم أن يستقل بنفسه بمساعدته أيضاً فى العمل بالصيد أو التجارة، ويبنى بيتا ويتزوج. كلهم كانوا ينادونه : أبا القبوطى، حتى أصبح ذلك الاسم الذى يناديه به الجميع . خلال ترددهم على دمياط توثقت علاقتهم ببعض التجار الذين يتعاملون معهم، خاصة الحاج عبدالرحمن التابعى الذى تعرف عليه السيد الفرماوى قبل ذلك . واقترح عليهم الحاج عبدالرحمن أن يأخذوا من وكالته مايلزمهم من بضائع على أن يسددوا ثمنها فيما بعد .

شهد سوق الفرما رواجاً فى مواسم الحج، واستمر مع توافد الناس من الأماكن الأخرى الواقعة حول البحيرة، وطابت الإقامة فى الفرما للكثيرين منهم فاستقروا فيها، وازدحمت طرقاتها. حتى فرق المداحين والمنشدين الذين يجوبون القرى، ومواكب الصوفية والمشاعلية تجمعوا فى ساحة المناخ. والتف الناس حول حلقات الغناء والمدائح والأشعار والابتهالات والذكر، والحجاج يستمعون ويتشجع البعض منهم فينشدون بدورهم بعض المدائح والتواشيح التى يرددونها فى بلادهم. كان يحلو للسيد الفرماوى أن يستمع إليها، وهو يتأمل المعنى كما علمه بن إدريس، ويهيم فى فضاءات يلتقى به فيها.

كيف جاء الخير بقدوم السيد القبوطى ، وفاق كل مايحلم به ، وكيف التف حوله أهل الفرما ، وتأكدت ظنونه أنه رجل مبارك حبب الله فيه خلقه ، وأصبح الابن الذى عوضه الله به، حتى لم يعد يشغل باله من أين جاء، ويدعو الله ألا يناله مكروه . ويتأمل أحوال الفرما وما يجد فيها كل يوم والوجوه التى تتوافد عليها، يحيطون بالسيد القبوطى كأنهم جميعاً أبناءه ويدعونه أبا القبوطى، وكأنهم كلهم أسرة واحدة عندما يتجمعون فى ساحة المناخ فى نهاية اليوم، يفسحون المجال للشبان الوافدين للعمل معهم ويساعدونهم فى بناء بيوت لهم، ويشاركون فى أعراسهم، ويحكى لهم السيد القبوطى كيف جاء إلى الفرما غريباً مثلهم، ثم أخذ

السيد الفرماوى بيده حتى استقامت أموره.

يتذكر السيد الفرماوى أيضاً كيف جاء أبناء أمينة والسيد القبوطى تباعاً، وغمرته فرحة طاغية مع قدوم كل منهم، السعيد وإدريس وفاطمة ومحمد، استقبلتهم سكينة متلهفة فى أحضانها وأحاطتهم بجوانحها واحدا بعد الآخر، ثم تابعت دبيب أقدامهم على الأرض حتى اشتدت أعوادهم، كل منهم يأتى برزقه، وتتغير الفرما من حال إلى حال، لم يكن يفوق لهفتها على الأحفاد الصغار سوى تلكالمشاعر التي تنتاب والدهم السيد القبوطى بعد مولد كل منهم بغرس بذوره فى أرض الفرما. كانت لعبارة «أبا القبوطى»، التى يناديه بها شباب الفرما وصبيتها، مغزى عميق كلما ناداه بها أطفال من صلبه، خاصة بعد أن كبروا وأصبحوا يصطحبونه فى غدواته وروحاته.

يمر شريط الذاكرة سريعاً ويرى السعيد يكبر ويلتحق بالكتاب ليتعلم القراءة والكتابة، ثم يساعد أباه فى العمل فى تخزين البضائع ، وعندما يتعلم القراءة والكتابة يعلمه أبوه كيف يدون حسابات البضائع، ومع الوقت أصبح يعتمد عليه ويترك له مهمة التعامل مع الزبائن فى غيابه أو أثناء سفره بمساعدة عوض الذى كان يعمل مع أبيه قبل ولادته، حيث أوصاهما بصغار التجار الذين يحصلون على احتياجهم من البضائع من الوكالة على أن يسددوا أثمانها حين ميسرة. كان السعيد وهو يسير بجوار أبيه يبدو كرجل صغير، بملامحه الجادة وقامته الفارعة التى ورثها عن أبيه، فبدا أكبر من سنه.

أما إدريس ، فقد تميز منذ صغره بخفة الروح والشقاوة وميله للعب مع أقرانه، التحق بالكتاب بعد السعيد، وتعلم أيضاً القراءة والكتابة ، عندما كان يعلم أن جده وأباه ينويان السفر كان يترك اللعب ويتشبث بهما، خاصة عندما يعرف أنهما سيذهبان إلى دمياط. فقد كانا يتركانه هناك بصحبة مصطفى ابن الحاج عبدالرحمن الذى يماثله فى العمر، ثم يعودان ليصطحباه عند العودة. كان يذهب مع مصطفى إلى البيت ، تعرف على أسرته التى اعتاد أفرادها وجوده بينهم حتى

أصبح كأنه واحد منهم. كانت والدة مصطفى تسأله عن الفرما وأحوال أهلها وعن أسرته وهو يحكى لها عنهم وعما يفعلون، لم تكن والدة مصطفى تقوم بشئون المنزل وتساعد زوجها مثل أمه وباقى نساء الفرما، بل كانت تصدر الأوامر إلى الجوارى، ويقمن هن بالعمل.

كان إدريس يصطحب مصطفى وأقرانه ليتجولوا فى أماكن كثيرة، واكتشف إدريس عالماً آخر يختلف عن الفرما، فكان يحكى لجده عن شوارع دمياط الطويلة الواسعة المليئة بالمتاجر والورش والمقاهى المزدحمة بالناس، تفاصيل كثيرة لم يكن الجد ينتبه لها، عن بحر النيل هناك والمراكب التى تبحر فيه، ومرة ذهبوا إلى ميناء دمياط، وشاهد مراكب كبيرة لم ير مثلها فى الفرما، أكبر من البيوت، وتتسع للناس والبضائع، عرف أنها تسمى السفن ، وتسافر فى البحر إلى بلاد بعيدة، ومنها سفن تبحر فى بحر النيل إلى المحروسة ، وأخرى تبحر إلى بر الشام وبلاد الأتراك والأروام. كما شاهد أناساً غريبى الهيئة يرطنون كلمات غير مفهومة. كانا يترددان مع أقرانهما على الموالد ويتجولون بين حلقات الحواة والذكر ويشاهدون رقص الغوازى ويبتاعون الحلوى، وأنوار القناديل والكلوبات تحيل الليل نهارا. كان مصطفى يلح أحياناً على أبيه ليبقيه معه، ويصطحبه عندما يأتى فى المرة القادمة.

إلتحق محمد بالكتاب بعد السعيد وإدريس، وبز أقرانه فى تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن . طلب منه العريف ذات يوم أن يبقى بعد انصراف الأولاد، أمسك بيده واصطحبه إلى المنزل وطلب مقابلة أبيه ، أشاد العريف للسيد القبوطى بما رآه من علامات النبوغ على الصبى، وطلب منه أن يبقيه بعد انصراف الأولاد حتى يجعله يختم القرآن ، وافق السيد القبوطى فرحاً وأجزل له العطاء.

انصرفت أمينة للاهتمام بشئون البيت وتربية الأولاد، كانت أعباؤها تزداد مع قدوم كل طفل ، لولا سكينة التى كانت تقوم على رعاية الصغار وتسهر على

المريض منهم، تحضر الأعشاب وتغليها ليتناولوها حتى يستردوا عافيتهم ، ولم تعد أمينة تقوم بالأعمال التى اعتادت القيام بها خارج الدار، سوى مساعدة زوجها فى مواسم الحج، تاركة مسئولية الأبناء لأمها، حتى كبر الأولاد وتخففت من أعبائهم. وقد أصبحت فاطمة صبية فأخذت تعلمها القيام بشئون البيت، فكانت تساعدها ، وقد ورثت عنها الدأب والمهارة ، كما ورثت الكثير من ملامحها.

بعد أن كبر الأولاد وبعد عشر سنوات من التوقف عن الإنجاب، فوجئوا بأعراض الحمل تظهر على أمينة ، ولم يخف السيد القبوطى فرحته بالطفل القادم، لكن مع تقدم الحمل لاحظو شحوبها واعتلال صحتها ، وهى التى لم تشك يوماً من مرض مما أثار قلقهم، خاصة سكينة التى لازمت ابنتها ومنعتها من القيام بأى عمل حتى ولو كان بسيطاً ، فليس حملها هذه المرة كالمرات السابقة التى كانت تدب فيها العافية ولا تكف عن العمل ورعاية الصغار ، وتشرف بنفسها على كل كبيرة وصغيرة . لم تستطع أن تعاند أمها مثلما كانت تفعل فى المرات السابقة ولزمت الفراش خائرة القوى، ومع تقدم الحمل كان قلب سكينة يرتجف خشية أن يلحق بابنتها مكروه، ومع اقتراب موعد الوضع طلبت سكينة من القابلة أن تلازمها وتبيت بجوارها حتى تضع مولودها.

لم يخف السيد الفرماوى جزعه على ابنته وهو يرقبها بقلق ويلاحظ ماهى عليه من وهن ، يجلس بجوارها أوقاتا طويلة ويحاول أن يسرى عنها، يتذكر يوم ولادتها ويحكى لها قائلاً : كانت تحيط بالمناخ بيوت قليلة ، وما أن أطلقت سكينة صرخة حتى جاءت كل النساء لمساعدتها ، وضعتك قبل أن تأتى القابلة.

أما السيد القبوطى فكان يبدو أكثر هدوءا وتماسكا وهو يحاول أن يطمئنهم، لايكاد يتغيب عن المنزل إلا للضرورة القصوى، وعندما جاءتها آلام المخاض والتفوا جميعاً حولها لم يدر السيد الفرماوى مقدار ما كان يعانيه زوج ابنته إلا عندما رآه ينتحى جانباً والدموع تنهمر من عينيه ، حتى خرجت القابلة لتبشرهم بالمولود . اندفع السيد القبوطى إلى فراش زوجته ولسانه يلهج بالشكر والأدعية،

وهاله ما رآه عليها من وهن، وهى شاحبة تلتقط أنفسها بصعوبة ، حتى أنه لم ينتبه للوليد الذى حملته سكينة بين ذراعيها . وجاء الأولاد فى صخب متدافعين حول الأم والوليد . طلبت القابلة منهم أن يخرجوا جميعاً ليتركوها تستريح وتغفو قليلاً، واستبقت سكينة لمساعدتها.

بعد قليل، سمعوا تأوهات واهنة مما أثار هواجسهم ، أخذ السيد القبوطى يطرق الباب بقوة وسط هلع الأولاد وصراخهم ، حتى هشم الباب واندفع إلى الداخل والأولاد وراءه ، وخرج مأخوذا مصطحبا الأولاد للخارج ، إذ كانت زوجته تضع طفلاً آخر، وخرجت القابلة بعد قليل لتزف إليهم البشرى بالمولودة الجديدة ، واختاروا للوليدين اسمى ضاحى وزاهية.

بذلت سكينة كل مافى وسعها كى تسترد ابنتها عافيتها ، فكانت تلازمها هى والوليدين ليل نهار، وتعد لهم الطعام وتطعمهم ، وفاطمة تساعدها فى القيام بشئون المنزل حتى أخذت أمينة تسترد صحتها تدريجياً . كانت رعاية الوليدين تتطلب مجهوداً شاقاً، وكانت سكينة نفسها قد نال منها التعب من السهر عليهما وقد عز عليها النوم، وعندما تعافت أمينة كانتا تقتسمان رعاية الوليدين معا.

كان الولد بصحة جيدة، أما البنت فكانت هزيلة تعاف الطعام ، ولا يكاد يستقر فى جوفها ، أولتها سكينة رعاية أكثر، وكانت تتركها فى الليل مع أمها لترضعها وتصطحب هى الولد إلى بيتها لتعتنى به، فوجئت فى منتصف إحدى الليالى بأمينة تطرق الباب وهى تحمل البنت وهى فى حالة من الفزع، كان وجه الطفلة مزرقا وعيناها غير مستقرتين، وسوادهما يتدحرج فوق البياض، وتتنفس بصعوبة.

ضمت سكينة الطفلة وهى جزعة، ثم قامت بغلى بعض الأعشاب، وأخذت تدفع بالسائل فى جوفها ، وظلتا ساهرتين عليها، وقرب الفجر لفت سكينة الطفلة جيداً وأخذتها فى حضنها واصطحبت أمينة، سارتا على شاطئ البحيرة وسط الشبورة وجعلت سكينة الطفلة تستنشق الهواء المشبع بالرطوبة ، حتى انتظمت أنفاسها وخلدت إلى نوم هادئ، ثم عادت بالطفلة إلى البيت، بعد أن عادت أمينة إلى بيتها

لتنال كل منهما قسطاً من الراحة، وظلت سكينة تخرج كل يوم إلى شاطىء البحيرة مع شقشقة الفجر محتضنة الطفلة لتجعلها تستنشق الهواء الرطب ثم تعود إلي البيت مع شروق الشمس لتنال قسطاً من النوم حتى تحسن تنفسها.

استيقظ السيد الفرماوى ذات مرة واقترب منهما وهو يحكم الغطاء حولهما، فوجد الطفلة مستيقظة فى سكون وقد أحاطتها سكينة على شكل نصف دائرة، وقف يتأمل هذا الكائن الجميل ولامس وجنتها بإصبعه وأخذ يداعبها، أخذت عينا الطفلة تدوران حتى استقرتا عليه، وافتر فمها عن ابتسامة واهنة شقت قلبه الذى احتوى هذه الصغيرة فحملها وضمها إليه متفائلاً بها، وظلت الابتسامة عالقة فى خياله وتدغدغ قلبه.

ظلت الصغيرة فى رعاية جدتها وجدها، تبيتها سكينة معها، كانت نحيفة وعرضة دائماً للأمراض، لكن سكينة بحنكتها وخبرتها فى تربية إخوتها كانت تهتم بغذائها، تغلى الأعشاب وتناولها لها وتطعمها وتلاغيها وتساعدها على الحركة حتى اشتد عودها، لكنها ظلت نحيفة. ألفت الصغيرة وجه سكينة، فكانت تبتسم لرؤيتها وتحرك أطرافها، ويتعالى بكاؤها عندما تغيب عنها.

قال السيد الفرماوى لسكينة وهو يتأمل الطفلة: لكثرة ما أطل فى وجهها، كأنما انطبعت ملامحك على وجهها. فالصغيرة تشبهك.

الفصل الخامس

ارتبطت زاهية بجدها وجدتها لاتكاد تفارقهما، فكانت لاتغفو سوى فى أحضان سكينة وعندما بدأت تتعلم الكلام كانت تناديهما «آبا» و«آما» . وعندما تعلمت المشى، كانت تجذب سكينة لتطرق باب أمها فى الصباح لتلعب مع ضاحى، وكانت أمينة تتركهما فى رعاية جدتهما حتى تنتهى من مشاغل البيت والأولاد . وعندما أدركت زاهية بعد ذلك أن أمها أمينة وأباها السيد القبوطى كانت تميز جدها وجدتها بمناداتهم أمه سكينة وأبا الفرماوى، ولم تدرك الرابطة التى تربطها بضاحى سوى أنه رفيقها فى اللعب . عندما فهمت بعد ذلك أنه شقيقها التوأم كانت تناديه «أخويا ضاحى» بينما تنادى باقى إخوتها بأسمائهم.

وأصبح التوأم لايفترقان وملآ حياة جدهما وجدتهما ، خاصة بعد أن كبر إخوتهما وصاروا شبانا. يظل رنين ضحكاتهما يتردد على مسامع السيد الفرماوى فى رحلة الذاكرة عندما كان يصطحبهما إلى شاطىء البحيرة ويتركهما يلهوان على الشاطىء .. يراقبان طيور البحيرة وهو يعرفهما بها، ويملآن الدنيا ضجيجا وهما يخوضان فى المياه الضحلة ويتراشقان بالماء، ويصنعان من الطين عرائس ومراكب وبيوتا، ويزينانها بالقواقع ونتف من الأعشاب، أو يستقلان القارب معه وهو يوصيهما بالهدوء، أو يجلس معهما ليحكى لهما الحكايات عن نوادر البحيرة وحكاياتها، وحواديت أميرة التنيس والديك الذهبى وجنيات الماء.

تعود الصيادون على وجود الصغيرين . كانوا يداعبونهما ويقدمون لهما الهدايا وقطع الحلوى، وأحياناً يتولى أحدهم رعايتهما عندما ينشغل الجد بالعمل . كان الصغيران يحبان إبراهيم ابن أبو المكارم صديق جدهما ، وهو يجذب

انتباههما إلى أنواع السمك المختلفة ويريها لهما ، ويجمع لهما القواقع النادرة ونجمة الماء وبعض الأصداف ، ويعلمهما بناء بيوت من الطين، ويتجول معهما على الشاطىء، لكنه لا يستطيع أن يحكى لهما. تلك الحواديت التى يحكيها جدهما، فكان الصغيران يسألان إبراهيم عن أميرة التنيس ومملكة التنيس التى استقرت فى قاع البحيرة، ويطلبان منه أن يريها لهما، يحار إبراهيم وهو يحاول أن يفهمها أن تلك حكايات غير حقيقية ، فلا توجد مملكة تسمى التنيس ولا أميرة المملكة، ولا عالم تحت الماء ولا أى شىء مما يقولانه. ولا يقتنعان بإجاباته عن أسئلتهما بأنها حواديت غير حقيقية ويستشهدان بما يرويه الجد قائلين : لكن جدى قال إنها موجودة تحت الماء. ويحار إبراهيم فى أمرهما ولا يعرف بماذا يجيب. فكانا يشكوانه إلى الجد، ولا يستطيعان أن يسترسلا فى الحديث معه.

تسأل الصغيرة زاهيه جدها: لكن لماذا غرقت مملكة التنيس؟

يصمت السيد الفرماوى ، ولا يدرى بم يجيب ، يتذكر ماقاله بن إدريس فى ذكر مملكة التنيس ، لاتستطيع سنوات عمرها أن تستوعب ذلك، هو نفسه عندما سمعه منه أخذ وقتا طويلاً حتى يستوعب ذلك ، لكن زاهية تلاحقه : لماذا يابا الفرماوى؟

ويجيب قائلاً : لأن الناس انقسموا، وانشغلوا بخلافتهم بعد موت ملكتهم الجميلة، فانتهز سحرة مملكة الجميل فرصة انشغال الناس بخلافاتهم وسرقوا الطلسم وأغرقوا المملكة، لأن الطلسم هو الذى كان يحميها.

– وما هو الطلسم ياجدى؟

– الطلسم هو سر المملكة التى كانت تحفظه الملكة فى خزائن المملكة.

– والناس كلهم غرقوا؟

– بعضهم غرق والبعض الآخر نجا من الغرق.

– وأين هم الناس الذين نجوا؟

– تفرقوا على شواطىء البحيرة وفى بلاد الله الواسعة، بلد تشيلهم وبلد

تحطهم.

– يعنى يوجد ناس منهم فى الفرما؟

– ممكن.

– وهل تعرفهم .. من هم؟

– الله أعلم فهذه الحكايات مر عليها زمن طويل.

يسأل ضاحى ثانية، وهو يشير باتجاه جزيرة التنيس فى البحيرة : يعنى جزيرة التنيس هى التى لم تغرق من المملكة؟

يسرح السيد الفرماوى ببصره بعيداً : حتى يعرف أهل التنيس مكانها ، من يدرى .. ربما تحصل المعجزة، وتطفو الأرض ثانية.

– يعنى أهل التنيس ممكن يرجعوا ثانية؟

– الله أعلم.

تقول زاهية : لو كنت سمكة ، كنت أقدر أعوم تحت الماء وأراها.

يقول ضاحى : أنا ممكن أتعلم الغوص تحت المياه وأراها عندما أكبر.

يؤخذ السيد الفرماوى : لا .. إياك أن تفعلها ياضاحى ، لو نزلت تحت الماء سوف تغرق.

ثم يستطرد قائلاً ليخيفه ألا يفعلها : ممكن سحرة الهكوش يسحروك، ويجعلوك مثل المساخيط.

ظن السيد الفرماوى أنه أغلق دائرة الحديث بهذا التحذير ، لكن ضاحى كان يضمر أمراً آخر، فلم ينتظر حتى يكبر ويتعلم الغوص ليرى جزيرة التنيس، وسرعان ماأطلع أصدقاءه على سر جزيرة التنيس وقرروا أن يروها بأنفسهم وبدأ إعداد الخطة لذلك.

تجمعوا على شاطىء البحيرة ووقفوا فى صف طويل، وحسب خطة القائد ضاحى الذى وقف أمامهم يعطيهم إشارات بالتعليمات، ثم تنحى جانباً، فتقدم الصبى الواقف فى آخر الصف، ووقف أمام الصف، ثم تقدم الذى يليه فى آخر الصف ووقف أمام الأول ببضع خطوات، وهكذا أخذ الطابور يتقدم باتجاه

البحيرة، رآهم إبراهيم الذى كان قريباً منهم وظن أنهم يقلدون الصيادين وهم يمسكون بالشباك فى صف منتظم، فقال لهم: خذوا بالكم ياأولاد .. لاتبتعدوا داخل المياه.

وما أن التفت بعيداً عنهم حتى كان الصف يتقدم داخل المياه وهم يغوصون تدريجياً حتى جاء الدور على أحد الصبية فتقدم وأصيب بالهلع عندما وجد المياه قد وصلت إلى كتفيه وقدماه تهتزان وضاحى يهيب به أن يتقدم لكن الصبى تراجع مذعوراً وهو يصرخ، وذهب بعيداً عنهم، وفى لحظات وقبل أن ينتبه إبراهيم، كان القائد ضاحى وهو يحافظ على الروح المعنوية للفريق قد قرر أن يضرب لهم المثل حتى لاتنتقل إليهم عدوى الخوف، تقدم بنفسه بثبات وهو يغوص تدريجياً حتى اختفى بكامله داخل المياه ، وتعالى صراخ الأطفال جميعاً وهم يتراجعون.

أسرع إبراهيم جارياً وألقى بنفسه داخل المياه وأمسكه وعاد به إلى الشاطىء، ألقاه على بطنه وهو يضغط على ظهره بقوة حتى اندفع الماء من فمه وهو يميل رأسه إلى أسفل حتى أفرغِ ما بجوفه ثم حمله وأسرع به جرياً إلى بيت القبوطى.

تجمعوا كلهم إثر صرخة فاطمة التى فتحت الباب لإبراهيم وهو يحمل ضاحى فى حالة إعياء، إندفع القبوطى يضم ابنه الذى كان ملفوفاً بجلباب إبراهيم، وما أن رأى أباه حتى اندفع فى نوبة من البكاء، وحكى لهم إبراهيم ماحدث على الشاطىء.

جاء السيد الفرماوى هو يتعثر فى خطواته وحكوا له ماحدث . إستمع مشدوها وهو يشعر بالذنب وعاتبه قائلاً : أهكذا يا ضاحى .. ألم أحذرك؟

كانت المفاجأة قد أحكمت قبضتها عليه ، ليس فقط من مجرد تصور أن ينال ضاحى مكروه ، ولكن لكون تلك الفكرة قد تسللت إلى كيان حفيده.

إلتفتوا إليه ، وأدركوا أن ماحدث لم يكن مجرد تقليد الصيادين وهم يمسكون بالشباك.

قال إدريس بحده : هذه نتيجة تدليلك الزائد له يا جدى.

التفت إليه السيد القبوطى ناهرا : حاسب على كلامك يا إدريس .

إنتحى إدريس متبرماً من لوم أبيه ، فقد كان أبوه يكن احتراماً كبيراً لجده ، كما كان يكن حباً خاصاً للصغيرين اللذين أنجبهما على كبر ولا يطيق أن يمسهما أحد بكلمة، حتى أمينة نفسها التى كانت تأخذ عليه وعلى أبيها تدليلهما الزائد لهما . شعر السيد القبوطى بامتنان لإبراهيم الذى أدرك حرج الموقف فأدار دفة الحديث . كرر طلبه للسيد الفرماوى أن يتوسط له لدى أبيه لإقناعه بأن يخرج للصيد فى البحر ، نظرا لما يعرفه عن تأثيره على أبيه.

قال السيد الفرماوى : البحر غير البحيرة ياإبراهيم ، وهو يخشى عليك.

قال إبراهيم : أأنت الذى تقول هذا الكلام ياأبا الفرماوى؟ وأنت وأبى قد أسمعتمونا كلاماً كثيراً عن خروجكما من شاطىء القرية للبحيرة الواسعة، حتى جئتما إلى الفرما رغم اعتراض الأهل ، فتخلصتما من سطوة العائلة والصيادين الكبار.

وصل إبراهيم بقاربه إلى الأشتوم وهو يحوم أمامه، لكنه لم يستطع أن يعبره إلى البحر الواسع بقاربه الصغير . عرض على والده أن يصنعا مركباً كبيراً ذا غاطس ليخرج به، لكنه رفض وحذره من الابتعاد عن البحيرة، لكن إبراهيم لم يكف عن المحاولة، وعبر الأشتوم عدة مرات مع صديق له من المناصرة على الجانب الآخر للأشتوم . كان السيد القبوطى يستمع إلى إبراهيم وهو يحكى له عن مراحات الأسماك الوفيرة على شاطىء المالح التى تتكاثر بوفره حول الأشتوم ويصف له أنواعها وأماكن الصيد ، وهو يقول : المالح عالم ثانى ، والرزق فيه أوسع .

قال له مؤملا : كل شىء بأوانه ياإبراهيم .. طول بالك.

قال إبراهيم : هذا هو الأوان يا با الفرماوى .. ماذا سننتظر ؟ لم أعد صغيرا.

كان السيد القبوطى يتابع حديثهما ورأى لهجة الإصرار فى حديث إبراهيم فتدخل قائلاً : فيلجرب ، ولم لا.

توقفا عن الحديث، تعلقت عينا إبراهيم بالسيد القبوطى الذى تابع حديثهما عن كثب ، كان يرنو عبر البحر ثم التفت إلى إبراهيم بابتسامة واسعة غمرته، وظل محملقا فى السيد القبوطى مأخوذاً بتلك الابتسامة المطمئنة، ونظراته النفاذة التى لم ينسها أبداً، كأنما فتحت أمامه عالماً رحباً لينطلق فيه ويطلق كل ما بداخله من أحلام، كأنما ينظر فى مرآه يرى فيها كل أحلامه، نهض فجأة وهو يهتف: ينصرك يابا القبوطى.

أسرع جرياً، ولم يتوقف إلا فى بيته، وفى المساء جاء بصحبة أبيه، جلسا بحضور السيد الفرماوى والسيد القبوطى . قال متولى أبو المكارم والد إبراهيم: كان كل حلمنا أن نجد مكاناً نصطاد فيه بأمان بعيداً عن سيطرة الحيتان الكبار الذين كانوا يلاحقوننا فى رزقنا ، ورجالهم الذين ضيقوا علينا الخناق.. أتذكر فتواتهم الذين كانوا يحرقون لنا المراكب ويقطعون الغزل. الآن بعد أن بعدنا عنهم نترك لهم البحيرة بعد أن زاد عددنا فى الفرما.

قال إبراهيم : شواطىء الفرما امتلأت بالصيادين القادمين من كل مكان حول البحيرة وأصبحنا عزوة . نطلع البحر قبل أن يسبقنا إليه هؤلاء الحيتان.

شرع إبراهيم على الفور فى بناء مركب كبير ذى غاطس . أحضر الخشب اللازم وشرع فى العمل بنفسه مع النجار. غمرت الفرحة شباب الصيادين وألهبت حماستهم، وكان كل منهم يشعر أن الدور سيصيبه ويحذو إبراهيم، لذا أقبلوا على العمل معه بفرح وبحماس، يسألون فى كل صغيرة وكبيرة ويقترحون أفكاراً، كأن كل منهم يبنى مركبه. وبعد أن انتهوا منه قاموا بطلائه وتزيينه، كان الرجال الكبار مثل متولى أبو المكارم أبو إبراهيم يرقبونهم فى غبطة، فقد آن للشباب أن يتجاوزوهم، وهذا زمانهم.

يوم نزوله فى الماء ذبحوا جدياً، وتجمع الصيادون على الشاطىء مهللين واطلقت النساء الزغاريد وسار المركب فى الماء متجهة إلى الأشتوم. وكان يوم عيد للصيادين، بعده مباشرة عكف شباب آخرون على بناء مراكبهم.

واستطاع إبراهيم خلال فترة وجيزة أن ينطلق إلى مراحى الأسماك فى الملح، ويجمع محصولا وفيراً يتوجه به إلى الشوادر فى دمياط والمنزلة ، وما لبث بعد

فترة أن حذا الشبان من الصيادين حذوه فى الفرما، حتى أن التجار أصبحوا يأتون إليهم.

توطدت علاقة إبراهيم بأسرة القبوطى منذ أنقذ ضاحى، وكان بدوره يشعر بالامتنان للسيد القبوطي فلولا وقفته بجواره ماحقق أمنيته ، ومع تردده عليهم خفق قلبه لفاطمة وقد شدته إليها منذ رآها تصرخ وهى تفتح الباب لدى رؤيته حاملاً ضاحى . وخلال تردده على بيت القبوطى ، لاحظ النظرات التى تختلسها نحوه، وكان يتحين الفرصة لرؤيتها عندما يتردد عليهم ، مما شجعه على التقدم لأبيها بعد أن فاتح أباه الذى ارتاح لاختياره ، فهى ابنة السيد القبوطى ومحط أنظار شباب الفرما.

اتفقا على أن يتم الزواج فى موسم الحج القادم، فقد أصبح من عادات أهل الفرما أن يقيموا الأفراح فى مواسم الحج ، حيث يأتى التجار بالبضائع ليبتاعوا منها لوزام العرس، كما تأتى فرق المداحين والمنشدين وتقام الاحتفالات التى يشارك فيها الحجاج بإنشاد المدائح والأذكار الشائعة فى بلادهم، والتى حفظها عنهم المداحون وأهل الفرما، حيث تمتلىء أيام الفرما بالحركة والنشاط والبيع والشراء وتمتلىء لياليها بالبهجة والمسرة .

الفصل السادس

كان السيد الفرماوى يجلس على الشاطىء مع همام وبطرس، ويجواره زاهية وضاحى عندما لاح إدريس قادما نحوه من المرسى، كعادته أحياناً عندما يعود من دمياط، حاملا حلوى لزاهية وضاحى وله، يجلس معه بعض الوقت قبل أن يعود إلى البيت، يستمع أحياناً إلى حكاياته، ويتدخل فى الحكى مشاكسا جده، يطلب منه أن يتوسط له لدى أميرة التنيس كي يتزوجها ، أو يسألها عن مكان الكنز المخبوء فى سراديب التنيس.

هذه المرة جلس صامتا حتى انتهى الجد من حكاياته وانصرف بطرس وهمام ، طلب من زاهية وضاحى أن يذهبا ليلعبا ، قال لجده : هناك أمر أريد أخبرك به.

التفت إليه السيد الفرماوى، وإدريس يحاول أن يكبح انفعالاته ، لكن ملامحه وصوته الهادىء طمأنا الجد : خير يا إدريس.

- أود أن أتزوج.
- أميرة التنيس .
- لا أميرة دمياط.

نظر له الجد متفحصاً، ربما يكون الأمر جدياً، فهذه هى طريقة إدريس أحياناً، أن يبدأ الحديث فى الأمور الجادة بمسخرة. أحس من لهفته ولهجته التى يحاول كبحها أنه واقع فى الحب وأنه قد استقر على العروس ، وإلا فيما العجلة، فحتى أخيه الأكبر لم يفكر فى الزواج حتى الآن.

سأله : ومن هى هذه الأميرة؟

أجابه على الفور : إبنة الحاج عبدالرحمن.

قال : من فيهن ، أهناك من لم تتزوج منهن بعد؟

فرد عليه قائلاً : آخر العنقود.

أجاب بدهشة : توحيدة .. البنت الصغيرة.

فقال : هى بعينها ، فلم تعد صغيرة بعد.

فقال : ماشاء الله أصبحت عروسا.

لمح إدريس الفرحة على وجه جده رغم دهشته وهو يربت على كتفه : أنت أيضاً كبرت ياإدريس .. وعرفت كيف تختار.

أحس إدريس بالزهو لإطراء جده وفرحه بمصاهرة الحاج عبد الرحمن صديقه الحميم ، حتى يوثق النسب العلاقة بينهما . كانت الدنيا لاتسع السيد الفرماوى، فها هو الولد المشاكس قد أصبح رجلا بحق ، كان السيد الفرماوى يتأمله وهو يسير بجواره طائرا فى طريقهما للبيت.

فوجىء السيد القبوطى أيضاً بالخبر ، وفرح باختيار إدريس للعروس قال له : لن تسع جدك الفرحة بالخبر.

قال إدريس :

لقد أخبرته بالفعل .

عرف إدريس توحيدة منذ كانا طفلين عندما كان يتردد على بيتهم فى دمياط بصحبة شقيقها مصطفى رفيق طفولته ، حيث كان أبوه يتركه ليلهو معه حتى ينتهى من مشاغله ثم يعود ليصحبه للعودة. مازال يتذكر تلك الطفلة بخصلات شعرها الفاتحة الملتوية وهى تصر على أن تشاركهما ألعابهما وهما يتهربان منها ، فكانت تشكو مصطفى لأبيها الذى كان ينهره بسببها ، لأنها كما يقول أبيها «السكر المعقود».

كبرت توحيدة حتى أصبحت صبية فلم يعد يراها إلا مصادفة أثناء زيارته لهم حتى اختفت عن عينيه سنوات ثم رآها مصادفة عندما ذهب إلى بيتهم ليسأل عن مصطفى، فتحت الباب وفوجىء أمامه بفتاة يافعة ذات حسن واضح، وقد زايلها

نزق الطفولة، كاد يندفع قائلاً : إزيك يابنت ياتوحيدة، لكن مقابلتها المحتشمة وصوتها الخافت أوقفاه، وأسرعت إلى الداخل، ولم تبارح صورتها خياله بعد ذلك.

لاحظ مصطفى شرود صديقه ، ولم يدر بخلده مايفكر فيه، قال له : كهرمانة سألت عنك كثيراً ، وترسل منصورة للمرور أمام الوكالة، كنت أتهرب منها خشية أن تلفت الأنظار نحوى، ذهبت إليها وطلبت منها أن تكف عن إرسالها، سألتنى عنك بلهفة، لم أقل لها أنك أتيت دون أن تمر عليها، وقلت لها لم يأت، بدت غير مصدقة وقالت : طالت غيبته، وحلفتنى بكل غال أن أخبرها إذا جئت، ووعدتها أن أذهب بك إليها.

أشاح إدريس قائلاً : دعك منها.

قال مصطفى بدهشة : هكذا .. كهرمانة بجلالة قدرها ، تبعد عنها بعد أن أوقعت بها.

وفيما راح إدريس يتأمل عينى مصطفى وجانب وجهه والذقن المدبب، ويدرك التشابه فى سمات وجهه مع سمات وجه توحيدة، كان مصطفى بدوره يحملق فيه وهو يحاول أن يدرك سر التغير المفاجىء تجاه كهرمانة، وهو يعلم تماماً كيف سعى إليها وأحكم حباله حولها حتى أوقعها فى شباكه مخترقا حلقات المعجبين والمريدين ، ومنهم وجهاء دمياط والمترددين على حلقات الغوازى واسم كهرمانة يدوى كالطبل فى ليالى دمياط والكل فى انتظار قدومها وطلتها عليهم.

منذ رآها إدريس وهو يتحين الفرصة للاقتراب منها خلال تردده على الحلقة مع مصطفى حتى ذلك اليوم الذى كانا يشاهدانها فيه وسط جموع المعجبين ، فاقتحم إدريس الحلبة بعصاه ثم تقدم وهو يدير العصا ويحوم حولها راقصا ويلف ويدور، نظرت نحوه وهى تشخلل بالصاجات فضحك الناس من ذلك الذى اقتحم عرش كهرمانة، لكنه ظل ثابتا وهو يشهر عصاه كالسيف ويديرها بمهارة ويناورها فى الرقص ويحكم الدوران حولها ، كانت تنفلت منه وتدور فى الحلقة وتصول وتجول كالمهرة وهو يتابعها بلا هوادة ملتفا حول حركتها ، تسرع فيسرع معها

ويدور الرقص سجالا، ورقصت كهرمانة كما لم ترقص قبلا والأيادى تصفق فى إيقاع صاخب حتى نال منها التعب.

سألته بعد انتهاء الرقص وسط التصفيق الذى استمر : من دمياط أم المنزلة؟

قال : من الفرما.

دارت فى الحلبة وهى تعلن : تحية لزينة شباب الفرما.

عزفت الفرقة السلام ، طلبت منه البقاء ، لكنه عاد إلى مكانه وتهيأ للانصراف، كان قد جذب طرف الخيط إمعاناً فى الإحكام وانصرف وهو يلوح بيده ، فقالت له لا تحرمنا مؤانستك يافرماوى.

كان يتردد على فترات لكنه لم ينزل الحلبة ، بل يناور بالكلمات ويختار موعد الانصراف، حتى شعر أنها تترقب قدومه ، وشيئاً فشيئاً استحوذ على اهتمامها ومشاعرها، حتى أنه كان يشعر أنها ترقص له . حتى الجمهور الذى تعود التردد على الحلقة بدأ يشعر بفارق عندما ترقص فى حضوره، بل ويستحثونه على النزول إلى الحلبة، ففعل ذلك عدة مرات، حتى بدأو هؤلاء يتحدثون عن هذا الفرماوى الذى استحوذ على قلب الغجرية. وتناهت إليه هذه الأحاديث ، كما حدثه بذلك مصطفى، لكن خوفاً من تناثر الأقاويل جعل علاقته بها سراً لاتعلم به إلا منصورة خادمتها. لم يخف الأمر عن مصطفى الذى عرف بما يدور بينهما، وألح إليه بذلك فأسر إليه بأمر العلاقة .

لم يكن يتخيل حين فكر أن ينصب شباكه حولها أن تندفع نحوه بمثل هذا الجموح حتى أنها قالت له : لو طلبت منى أن أكف عن الرقص لفعلت.

قال لها : هكذا تتخلين عن كل المعجبين والمريدين.

فردت قائلة : لا أرى منهم سواك ، أنا أريد أن أكون لك وحدك.

شعر أن الأمور تندفع باتجاه آخر، إذ كان يخشى أن يتناثر الكلام ويصل إلى أبيه والتجار الذين يتعاملون معهم فبدأ يقلل من تردده عليها حتى رؤيته لتوحيدة التى جعلته يسقط كهرمانة تماماً من حساباته . وفى هذه المرة لم يستطع إخبار

مصطفى خوفاً من معارضته للارتباط بتوحيدة ، لذا تحدث إلى أبيه ليتحدث هو إلى الحاج عبدالرحمن.

استقبل السيد القبوطى قرار إدريس بالزواج بارتياح ، فلم تكن تخفى عليه طبيعة ابنه الجامحة، كما تناهى إلى مسامعه تردده مع مصطفى على حلقات الغوازى. تحدث ذات مرة هو والحاج عبدالرحمن الذى طمأنه أن ذلك مجرد طيش شباب، ولن يلبثا أن يتعقلا ، وما جعلهما مطمئنين هو أن الشابين كانا يقومان بعمليهما على خير وجه، فمصطفى يساعد أباه وإخوته فى العمل بالوكالة بكل جدية، أما إدريس فمنذ أن كان صبيا وهو يصطحب أباه وجده ويساعدهما فيما يقومان به من أعمال، ويشهد معاملاتهما مع التجار واكتسب منهما خبرة ودراية لمشاركته فيما يقومان به، وأظهر مع الوقت مهارة كبيرة فى التجارة واكتسب علاقات ومعارف بين التجار وأصحاب المراكب ، حتى أنهما شيئاً فشيئاً بدءا يعتمدان عليه، وتركا له التعامل مع التجار فى الفرما والبلدان الأخرى، وأحس أبوه بقدرته على ممارسة كافة المعاملات التجارية حتى المخازن التى أنشأها أبوه ازدحمت ، وتحولت مع الوقت إلى وكالة كبيرة . وعلى الجانب الآخر فقد عمل السعيد فى الوكالة بدأب بمساعدة عوض فى توزيع البضائع على تجار الفرما.

عندما فاتح السيد القبوطى أمينة برغبة إدريس فى الزواج ، فوجئت كما فوجىء هو. قالت له : يتزوج قبل أخيه الكبير ، فقال لها : مادامت هذه رغبته ، وقد أحسن اختيار العروس، ثم أن السعيد لم يفكر فى الزواج حتى الآن وقد يشجعه ذلك على الإقدام عليه.

قالت : لقد رتب كل شىء إذن ، ومن هى العروس؟

فقال : ابنة الحاج عبدالرحمن التابعى.

كانت أمينة قد سمعت عنه كثيراً من خلال السيد القبوطى وأبيها كأنها بدورها تعرفه منذ زمن ، وها قد حان الأوان لتلتقى بأسرته من خلال المصاهرة، لكنها كانت تفكر فى السعيد ابنها الأكبر وأول فرحتها وهى مصممة أن يلحق بإخوته.

قالت للقبوطى : لقد أخذه العمل فى التجارة حتى أنه لا يجد وقتا ليفكر فى نفسه وحياته ، لابد أن أجد له العروس المناسبة.

جعلت كلمة أمينة السيد القبوطى يفكر فى السعيد ، فمنذ صغره وهو يقوم بالعمل فى الوكالة على خير وجه، ويستغرق العمل معظم يومه فلا يذهب آخر النهار إلا للراحة، حتى أنه لايتردد على مجلسه فى ساحة المناخ الذى يؤمه أهل الفرما ، بخلاف أخوه إدريس الذى يملأ المجلس صخبا ويدلى برأيه فى كل شىء . كما لاحظ السيد القبوطى أن السعيد بدأ يضيق بالمتعاملين مع الوكالة الذين يتعثرون فى سداد ما عليهم، وبدلاً من أن يساعد على إقالتهم من عثرتهم، كما تعود السيد القبوطى ، بدأ يضيق بهم ويوقف التعامل معهم، كما بدأ يتبرم بالشبان والصبية الذين يلجأون للسيد القبوطى ليتيح لهم لقمة عيش فليحقهم بالعمل لديه أو يساعدهم على الحصول على احتياجاتهم ليفتحوا دكاناً أو يعملوا كباعة جائلين، وبعضهم قد أفلح بالفعل فى أن ينمى تجارته وأن يقف على قدميه ، وآخرون تعثروا فبحثوا عن عمل آخر أو لجأوا للعمل مع السيد القبوطى، هؤلاء الذين عمل السعيد وسطهم منذ كان صغيراً لكنه عندما كبر بدأ يضيق بهم، وكلما أتى أبوه بشاب أو صبى جديد للعمل أصبح لايتردد فى إعلان تبرمه دون أن يعى تلك المشاعر التى يحملها السيد القبوطى لهؤلاء الذين كانوا يعتبرونه بمثابة الأب، وكان بعضهم بمثابة الأبناء الذين لم ينجبهم. ومن هؤلاء عوض، الذى كان يعتمد عليه فى إدارة شئون العمل منذ جاء إلى الفرما وكان السعيد لايزال بعد صبيا. وكذلك عثمان، الذى افتتح دكاناً فى الفرما واستقامت أموره.

أما عوض ، فكان يعمل حمالا فى مرسى المنزلة وتعرف عليه السيد القبوطى عندما كان يقوم بنقل البضائع وشحنها فى المركب، فكان يؤدى العمل بهمة ويصحبه إلى الفرما ويعيد إنزالها، ويحملها إلى الوكالة ثم يعود ثانية. وعرف السيد القبوطى أن والده كان يعمل صياداً على مركب صغير يمتلكه ثم توفى تاركا له مسئولية أمه وإخوته الصغار، فعمل على المركب مكان أبيه إلى أن تجاسر ذات يوم وذهب إلى الصيد بالقرب من أحد الأحواش الخاصة بكبار الصيادين فتحرش به رجاله وحطموا له المركب بعد أن أوسعوه ضربا وأصابوا ساقه، وتخلف عنها عرج بسيط لم يعقه عن الحركة والعمل، فعمل مع الصيادين الآخرين

أو حمالاً فى المرسى وتعرف على السيد القبوطى، فكان ينقل له البضائع ويصطحبه إلى وكالات التجار حتى يذهب معه إلى الفرما ويعود ثانية حتى عرض عليه السيد القبوطى أن يعمل معه فى الفرما فوافق على الفور لما رآه من عطفه عليه وإعجابه بمثابرته واستأذن أن يذهب ليخبر أسرته فى قريته شطا، ثم سرعان ماعاد ببقجة صغيرة فيها بعض الملابس بعد أن أعطاهم كل مامعه من مال . وعندما استقر فى الفرما كان دائم التردد عليهم ليطمئن على أحوالهم ، حتى بدأت سواعد إخوته الصغار تشتد وخرجوا للعمل ، إلى أن تحسنت أحوالهم كثيراً.

وعندما فكر عوض فى الزواج أخبر السيد القبوطى فزوجه من ابنة أحد الصيادين ، وساعده فى بناء بيت يستقر فيه هو وعروسه، وأقام له عرسا شارك فيه الجيران ومعارف السيد القبوطى من أهل الفرما.

فى صباح اليوم التالى للعرس ، جاء إلى الفرما فى معدية قادمة من المنزلة صبى صغير لايتعدى العاشرة ، ووصل إلى بيت السيد القبوطى محاطاً بجمع من الناس وهو يرتدى ثياباً مهلهلة تستره بالكاد. سأل الناس عن عوض الذى يعمل لدى السيد القبوطى، فأخبروه أنه يتزوج ولم يشاءوا أن يطرقوا بيت العروسين صباح العرس. وتوجهوا به إلى السيد القبوطى ، وقف الصبى أمامه كما لو كان خارجا من شجار عنيف تمزقت فيه ملابسه، وآثار خدوش فى يده، أو كأنه نجا من غرق أكيد، وقد بدا عليه الإجهاد.

قال الصبى إنه شقيق عوض وقد جاء يسأل عنه وكل مايعرفه أنه يعمل لدى السيد القبوطى.

ربت السيد القبوطى على الصبى وطلب منهم إعداد الطعام له وثوب من ثياب ضاحى الذى كان الصبى يماثله فى العمر والحجم؛ وأخذ يستمع من الصبى إلى قصته. فقال له إنه حاول مراراً أن يأتى ليلحق بأخيه لأنه يريد أن يعمل فى الفرما مثله، لكن أمه وباقى أخواته رفضوا السماح له بالذهاب ، ولم يثنه ذلك فأخذ يتوسل إلى الصيادين علّ أحدهم يصطحبه فى مركبه إلى الفرما، وكان العاملون فى المرسى يعيدونه إلى أهله فى كل مرة، وتكرر ذلك عدة مرات إلى أن قرر أن يذهب بأى طريقة.

تسلل إلى مركب كبير للبضائع كان على وشك الإقلاع ورفض أن يغادره حتى أنهم أرسلوا إلى أهله فحملوه قسرا إلى الشاطىء وهو يحاول الإفلات منهم ويقاومهم بعناد حتى أن قلبه كاد يقفز منه عندما بدأوا الإقلاع فى المياه، فاندفع هائجا بكل مايستطيع من قوة حتى تمزقت ملابسه التى كانوا يمسكون بها، فى ثوان كانت مزق ثوبه فى أيديهم، والصبى قد ألقى بنفسه فى المياه وأخذ يسبح بكل قوته باتجاه المركب التى بدأت تبتعد عن الشاطىء، غير مبال بالنداءات التى علت من الشاطىء حتى بدأ يدخل في المياه العميقة لكنه لم يتوقف ، وتحولت النداءات الى صراخ ، مما دعا صاحب الفالوكة وركابها للتهدئة حتى يلحق بهم الصبى. اقترب منها فرفعوه مبتلا اليها، وخشى أن يعودوا به ثانية لأهله ، فما أن وطأت قدماه أرض الفرما حتى أسرع جريا حتى أمسك به البعض خشية ان يكون قد سرق شيئا ،مع غرابه هيئته ومزق القماش التي تتطير عن جسده ، حتى سألهم عن عوض الذى يعمل لدى السيد القبوطى فاقتادوه اليه .

سأله السيد القبوطى عن اسمه قال الصبى: مهران . وأخذ يتأمل الصبى النحيل بسنوات عمره التى تماثل عمر ضاحي تقريباً، فتعجب من قدرته وتصميمه وأخبره أن عوض تزوج بالأمس وهو الآن فى بيت العروس.

جاء عوض مسرعاً للقاء أخيه ودهش مما سمعه من أمر مجيئه. كان مهران أصغر إخوته. فقد كان رضيعاً عندما توفي أبوه وكان عوض بمثابة الأب، لكنه غاب في الفرما، مرت الأيام دون أن يعود فصمم الصبى على أن يلحق به ولكن عوض تصور أن خبر زواجه العاجل الذى لم يخبر به أسرته ربما يكون قد وصل إليهم، فبعثوا يتقصون الأخبار. أعطى عوض الصبى بعض النقود وطلب منه العودة ثانية إلى بلده حتى لا يقلق أحد عليه، ولكنه فوجىء برفض الصبى الذى قال : هم يعرفون أننى هنا، وأنا جئت لأننى أريد أن أبقى معك فى الفرما. ولم يخف السيد القبوطى إعجابه بالصبى، وقال لعوض: إذهب إلى المرسى، وأخبر أصحاب المركب الذى جاء فيه أن يطمئنوا أسرتك على الصبى ودعه هنا معنا.

سأل السيد القبوطى الصبى : ولماذا هذا التصميم على أن تأتى إلى الفرما؟

رد الصبى : أريد أن أعمل فى الفرما وأكسب عيشى بنفسى.

فقال له : لك ماتشاء .. من الغد إذا أردت.

وقال لضاحى إن مهران سيكون رفيقه من الآن، وقرر أن يلحقه بالكتاب ليتعلم الكتابة والقراءة وحفظ القرآن مع ضاحى.

وفى اليوم التالى اصطحبه إلى الوكالة وأوصى السعيد بأن يجعله يعمل معه ويعلمه ، لكن السعيد لم يبد عليه الارتياح ، وقال لأبيه : ماذا سيفعل هذا الصبى هنا ، لقد زاد عدد العمال دون حاجة العمل إليهم .

أجفل عوض عند سماعه كلمات السعيد، بينما انزوى الصبى وهو ينظر لأخيه وللسيد القبوطى . وقبل أن يتكلم عوض أو يعنف الصبى، اندفع السيد القبوطى ثائرا على السعيد قائلا : إياك أن تظن أن الوكالة لك وحدك ، فأنا مازلت حيا فى كامل صحتى وأعرف ما أفعله ، لولا هؤلاء ما اتسعت الوكالة وما اتسعت تجارة الفرما وما تحول المخزن الصغير إلى وكالة تظن أنك تأمر وتنهى فيها ، هذه الوكالة لأهل الفرما كلهم .

علا صوته منذرا لأول مرة حتى أن السعيد وجل بجد ، فلأول مرة يخاطبه أبوه على هذا النحو . وتدخل عوض لتهدئة السيد القبوطى ، لكنه لم يتوقف عن إيلام ابنه .

بعدها ، أخذ السيد القبوطى يفكر فى أمر السعيد وقد هدأت ثورته ، وتحول إحساسه بالسخط إلى شعور بالإشفاق على السعيد الذى كان يرتجف أمامه كفرخ صغير ، فالسعيد رغم دأبه فى العمل وتفانيه فيه منذ الصغر ينقصه الكثير من الدراية بأمور الحياة .

فهو يتعامل كل يوم مع العشرات من الناس الذين يترددون على الوكالة من زبائن وتجار ، لكن علاقته بهم تقتصر على ما تقتضيه أمور العمل . لم يحاول أن يعرف أحداً منهم أو يتخذه صديقا ، بل كان الحذر يسم تصرفاته معهم . لا يذكر أنه يوما مر على مجلسه فى الفرما أو أدلى برأيه فى أمر من أمور الفرما التى

يتحدث فيها الأهالى ، أو عايش همومهم ، بعكس أخيه إدريس الذى كان يصحب والده منذ الصغر ، ويكتشف أشياء كثيرة كانت تدهشه ، ويكتسب كل يوم خبرات ومعارف جديدة .

حاول السيد القبوطى بعد ذلك أن يقرب السعيد إليه ، وأحيانا كان يذهب فى نهاية اليوم ليصحبه إلى مجلسه أو يذهب ليصليا العشاء فى المسجد ويحدثه أثناء سيره عن أمر من الأمور التى تشغل الأهالى فى الفرما ويدفعه للإدلاء برأيه فيما يدور حوله ، فينطق بكلمات مقتضبة تفتقد البصيرة ، فيشرح له الأمور كى يستوعب ، وبالتدريج بدأ السعيد يعى الكثير من الأمور التى تشغل الناس ، وإن كان متحفظا فى إبداء رأيه أو الادلاء برأى حاسم ، وعندما يوجه إليه الجديث يرد قائلا : ربما .. يجوز. لكنه بحكم عمله فى الوكالة منذ الصغر ورزانته اكتسب احترام أهل الفرما .

إختتم محمد حفظ القرآن ففرح أبوه وقرر أن يقيم خاتمة شارك فيها أهل الفرما واستمعوا إليه وهو يتلو القرآن ، كان يتمتع بصوت جميل ، اقترح العريف على أبيه أن يذهب إلى المسجد الأحمدى بطنطا ليتعلم التلاوة على أيدى كبار المشايخ ، وأن يصحبه بنفسه فى رحلته ، لكن محمد قال إنه يريد الذهاب إلى المحروسة حتى يلتحق بالأزهر ويكمل تعليمه هناك فوعده أبوه أن يحقق رغبته ، واقترح العريف على أبيه أن يذهب محمد أولا إلى المسجد الأحمدى ليتعلم التلاوة وبعد ذلك يذهب إلى المحروسة وقال إنه على أتم استعداد ليستزيد من العلم ويكون أقدر فى الاعتماد على نفسه .

بدأت أمينة الاستعدادات لزواج فاطمة وإدريس ، زارت دمياط مع السيد القبوطى لخطبة العروس وحملت إليها الهدايا . وأعجبت بتوحيدة لجمالها وعقلها ، على حد قولها ، وتعرفت بأم العروس التى أبدت قلقها لابتعاد ابنتها الصغرى عنها ، لكن أمينة طمأنتها قائلة إنها ستكون مثل فاطمة وزاهية ، ففاطمة ستذهب وتأتى توحيدة لتعمر بيت زوجها ، والفرما ليست ببعيدة ستأتين فى أى وقت تبشائين على الرحب والسعة ، فليس لدى أخوات وأنت ستكونين بمثابة أخت لى .

وفى صباح اليوم التالى ، اصطحبت العروس وأمها لشراء لوازم العرس حتى تختار العروس بنفسها ما يروقها ، واشترت لفاطمة مثلما اشترت للعروس وتم شحن المشتروات إلى الفرما . وكان ادريس قد بدأ بناء البيت للعروس فى أحد الأبنية التى بناها أبوه حول بيت الأسرة ، فتم توسيع المبنى ليصبح بيتا جميلا يناسب العروس القادمة من دمياط .

ومع اقتراب موسم الحج وتوافد التجار ، لم تدخر أمينة وسعا لشراء ما يلزم العروسين من أقمشة حريرية وحلى وملابس ، وقامت بنفسها بالإشراف على اعداد بيت ابنها وفرشه ، وكذلك فعلت لبيت فاطمة الذى قام إبراهيم بإعداده بالقرب من بيت أبيه على شاطىء البحيرة جنوبى الفرما .

ومع توافد الحجاج بدأت فرق المنشدين والمداحين تتوافد على الفرما ، وما أن علموا بخبر العرس فى بيت القبوطى حتى ملأوا الساحة وهم يغنون أغانى العرس بجانب المدائح والأذكار . فما أن ينتهى النهار حتى تضاء الساحة ويتجمعون فيها ويتوافد أهالى الفرما ليستمعوا للغناء ، حتى الحجاج الذين جاءوا شاركوا بغناء الأشعار والمدائح والأغانى التى يتغنون بها فى بلادهم .

هل كان السيد الفرماوى بحاجة إلى أن ينبهه أحد وهو يسبح فى شلال متدفق من المرئيات تدفع بالصور أمامه على نحو غير منتظم . ولم يهتم بذلك وقتها مادام كل منها يؤدى للآخر ، فهاهى سلالته تنبت وتتعاقب أجيالها ، كان سعيدا وهو يستمع إلى تلك الأهازيج والتواشيح التى تتضمن بعضها أبياتا من الشعر مما كان يتلوه بن إدريس ويردده على أسماعه ، والتى كان يحفظ أبياتا منها . فكان يردد معهم ويندمج فى نوبة من الوجد ، حتى سأله ضاحى ذات مرة : كيف عرفتها يا جدى ؟

أخذ السيد الفرماوى يشرح كيف حفظها عن بن إدريس ، وأخذ يرددها عليه وهو يشرح له معانيها . وكان ضاحى مأخوذا بهذه الكلمات وجده يكشف له عن معانيها ، وتتداعى الرؤى وهو يتمتم بها ليحفظها ليرددها أمام أقرانه ، ويحاول أن يتلوها منغمة مع المنشدين والمغنين . كان يشعر بالزهو وسط أقرانه وهو

يدعوهم للعرس ، وهم ينتظرون ليالى الطرب والإنشاد فى آخر النهار يستمعون ويلهون ، وهو يوصى أمه بالطعام له ولأصدقائه .

كان أمر زواج فاطمة يحير ضاحى وزاهية فكانوا يسألونها : هل ستذهبين مع إبراهيم ولن نراك مرة أخرى ؟

فتجيبهم قائلة : بيتى سيكون قريبا من البحيرة بجوار بيت أهل إبراهيم فأنت تعرفه يا ضاحى وكلما جئتما إلى البحيرة مع جدى ستأتون لزيارتى وأنا سآتى لزيارتكم دائما .

فيقول : هل ستعيشون فى التبات والنبات وتخلفون صبيانا وبنات كما يقول جدى ؟

فترد قائلة : طبعا وسيقولون لزاهية يا خالتى ويقولون لضاحى يا خالى .

فيضحك الطفلان سرورا من فكرة أن يكون كل منهما خالا وخالة .

يقول ضاحى: عندما يكبر أولادك سأصحبهم للعب معى ، وآخذهم إلى البحيرة وأعلمهم العوم وسأقتسم معهم لعبى .

فترد فاطمة : عندما يكبر الأولاد ستكون أنت أيضا قد كبرت وكففت عن اللعب.

فقال : يعنى سأكون خالا كبيرا مثل السعيد وإدريس .

مع اقتراب يوم العرس ازدحم المنزل بالحركة وشارك كل أهالى الفرما ، إذ جاءت النساء منذ الصباح لمساعدة أمينة فى إعداد المكان وطهو الطعام وجئن بالهدايا والنقوط للعروسين ، وجاءت فرق الإنشاد مبكرا عن العادة لتحتل مكانها فى صدارة الساحة ، وذبحت الذبائح .

وفى منتصف النهار جاء ادريس بصحبة العروس وأهلها ومدعويهم من دمياط . استقبلتهم سكينة وأمينة ، وأطلقت النساء الزغاريد بصورة متصلة وهن يكبرن ويهللن للعروس التى غطت وجهها ودخلت إلى الدار مسرعة بصحبة أمها التى صممت ألا يرى ابنتها أحد من أهل الفرما إلا مساء بعد أن تكتمل زينتها ، وكانت قد أقامت لها ليلة عرس فى الليلة السابقة كى يحضرها المعارف والجيران ، وهؤلاء الذين لم تتح لهم فرصة للسفر معهم إلى الفرما ، ومن ناحية أخرى حتى يعتمر بيت أبيها بالفرح .

في الليل تجمعت النساء في الدار حول العروسين ، وبدت توحيدة جميلة كالبدر ، أثارت إعجاب فتيات ونسائها الفرما ، وكذلك فاطمة التي رحبت بالعروس واتخذت مكانها بجوارها ، وغنت النساء ورقصن تحية للعروسين ، وتبارت نساء الفرما ودمياط في تقديم الأغاني حتى أن سكينة نفسها وقفت تهتز في الحلقة غير مصدقة نفسها .

أما الرجال ، فقد ملأوا الساحة ، وتوافد معارف السيد القبوطي والسيد الفرماوي من كل مكان وغنت فرق المداحين والمنشدين ، وشارك الحجاج الذين جاءوا إلى الفرما ودعاهم السيد القبوطي فغنوا أغاني العرس في بلادهم متبارين مع فرق الغناء التي تخللتها ولائم الطعام وزفاف العروسين كل إلى بيت زوجها ، واستمرت السهرة إلى ساعات الصباح الأولى والكل لا يريد لها أن تنفض .

بات أهل توحيدة في بيت السيد القبوطي ، وبات الرجال في بيت السيد الفرماوي ولم تستطع أم توحيدة أن تمنع دموعها وهي تودعها فبكت توحيدة أيضا بينما أمينة تطمئنها أنها ستكون بخير .

أما ضاحي وزاهية، فقد بدت لهما أحداث ذلك اليوم كحلم لم يبارح خيالهما طوال العمر .

الفصل السابع

لم يهدأ لأمينة بال بعد زواج إبنها إدريس حتى تزوج إبنها البكر السعيد ، فلم تدخر وسعا فى السعى بين بنات الفرما ، وهى تستعرض كلا منهن بينها وبين نفسها لتختار له عروسا من بينهن ، وهى تعرض عليه مزايا كل منهن ، وتبث الحماس فى ابنها الذى بدا مترددا ، حتى وقع اختيارها على فتاة تربطها بأمها صلة صداقة منذ أن جاءت إلى الفرما مع زوجها تاجر القماش الجوال ، وكانت تساعده فى عمله تعرض الأقمشة على النساء من المعارف والجيران اللاتى كن يترددن عليها ، وربطتها صداقة بأمينة منذ أن استقرت فى الفرما وسكنت إلى جوارها ، حتى فتح زوجها دكاناواتسعت تجارته .

وبعد طول تردد وافق السعيد على العروس عائشة أمام إلحاح أمه ، وما أن تمت موافقته حتى فاتحت أم العروس التى رحبت وأخذت رأى ابنتها فوافقت . قاموا بزيارة أهل العروس لقراءة الفاتحة ، وشرعت أمينة على الفور فى إجراءات الزواج والاستعداد للعرس ، وأعدت للعروسين بيتا ملاصقا لمنزلها من تلك الأبنية التى قام السيد القبوطى ببنائها ، إذ قامت بتوسيعه وإعداده بمساعدة الشغيلة، مثلما فعل إدريس نظرا لأن العريس مشغول طوال الوقت ، وسافرت إلى دمياط لإحضار ما يلزم البيت مثلما فعلت لأخيه وأخته، وصممت أن يكون حفل العرس مثل عرسهما أيضا ، فتم الاتفاق مع فرق المنشدين والغوازى من دمياط ، ولكنه لم يكن مثل عرسهما نظرا لأنه لم يكن فى موسم الحج .

كان أهل العروس سعداء بالمصاهرة ، فالعريس يتمتع بسمعة طيبة لما عرف عنه من استقامة وجد فى العمل . ومنذ أن انتقلت عائشة إلى بيت زوجها أظهرت

الود لأهل زوجها ، فكانت تشارك حماتها مسئوليات البيت وتتحمل عنها الكثير من الأعباء ، كذلك اكتسبت مودة السيد الفرماوى وسكينة . فكانت دائمة السؤال عنهما ، وتؤدى لهما بعض الخدمات ، أما ضاحى وزاهية فكانت تعاملهما كأخوين صغيرين لها ، تستمتع لهما وتتسامر معهما . كل ذلك أكسبها مكانة بين أفراد الأسرة وأكد لأمينة أنها كانت محقه فى اختيارها لها ، وكانت تقارن بينها وبين توحيدة التى اعتكفت فى بيتها واقتصر اهتمامها على بيتها وزوجها ، وتتعامل معهم بحساب ولا تشارك معهم فى أى عمل أو فى اهتمامات الأسرة ، وتفضل دائما أن تصحب زوجها عند سفره إلى دمياط وهناك يقيمان أياما ، وأحيانا كان يتركها ويعود للفرما ليؤدى بعض الأعمال على عجالة ويعود ثانية ، فكانت أمينة تشعر أنها تباعد ابنها عنهم .

فمنذ زواج ادريس وأمينة لاتعرف شيئا عن ابنها وحياته مع زوجته ، ولا فيما يفكران ، وحارت فى أمر ابنها نفسه ، ولم تجد إجابة لتساؤلاتها حول زيارة تلك المرأة الغجرية التى جاءت من دمياط لتسأل عنه . فمن هى تلك الغجرية ؟ وماذا هناك بينها وبين إدريس ؟ وهل تعلم زوجته بذلك ؟

كل ما تعرفه هو ما سمعته من أخبار تناقلتها بعض نساء الفرما عن رجالهن ، أنها جاءت على مركب وبصحبتها امرأة أكبر منها سناً ، وما أن نزلت شاطىء الفرما حتى سألت عن إدريس ، فدلوها على مكانه ، وما أن رآها عن بعد حتى أسرع لملاقاتها واصطحبها بعيدا عن الأعين . وعندما سألته أمينة قال إنه دعاها هى وفرقتها لاحياء عرس أخيه ، لكن الأمر اختلط عليها وجاءت بعده بزمن . لكن اجابته لم تخل عليها ، خاصة أنه بدا مرتبكا أمامها . قالت له : إبعد عن طريق هؤلاء الغجريات وحافظ على بيتك وزوجتك . نفى إدريس تماما أى علاقة بالغجرية، وما طمأن أمينة هو أن الغجرية غادرت الفرما على الفور بعد لقائها بإدريس .

تتساءل عن علاقته بهذه الغجرية التى سمحت لنفسها بالمجىء إليه فى بلدته وبين أهله ، ولم يمض على زواجه سوى شهور قليلة وهل هذا هو سبب كثرة تردده على دمياط ومكوثه هناك فترات طويلة ، تاركا زوجته بصحبة أهلها ليفعل ما يحلو له .

ظل بال أمينة مشغولا على ابنها حتى عودته من دمياط ، وقبل أن تفاتحه أخبرها أن زوجته حامل ، فاندفعت إليه تعانقه وهى تدعو له بالذرية الصالحة . ولم تمض أيام قليلة حتى أخبرتها فاطمة بأمر حملها ، فغمرتها الفرحة ورفعت يديها إلى الله تدعوه أن تكتمل فرحتها بمولود للسعيد حتى تشمل الفرحة الجميع ، ولم يخب رجاءها فبعد شهور قليلة اكتشفت أن عائشة حامل ، فقد كانت تساعدها فى إعداد الطعام عندما وجدتها تترنح أمامها وقد انتابتها نوبة من الغثيان والقيء ، لم تملك نفسها فانطلقت منها زغرودة مجلجلة تجمع على إثرها كل أفراد الأسرة ، ولأول مرة ترى أمينة الدموع تترقرق فى عينى زوجها وتسيل على خديه ، وصوته يتهدج شكرا لله و لسانه يلهج بالأدعية . وعلى الفور ، بدأ كل من أفراد الأسرة يستعد بطريقته لاستقبال المواليد . إذ شرعت أمينة على الفور بإعداد البيت الذى خلا بزواج الأبناء لاستقبال الأحفاد . وسكينة تتحدث عن الزيارة التى ستقوم بها لمقام بن سلام لإيقاد الشموع والوفاء بالنذر . وضاحى وزاهية يعبران بصخب عن فرحتهما وهما يذرعان المكان ، ويحضران اللعب التى سيقدمانها للصغار .

أما السيد الفرماوى ، فقد جعلته الفرحة يحلق عاليا ويرى الوجود كله متجمعاً فى نقطة واحدة .. نقطة واحدة تتجمع فيها كل الموجودات والأماكن والذكريات ، مثل تلك النقطة التى أخذ يتابعها على خط الأفق فى نفس المكان الذى يجلس فيه الآن كأنما لم يبارحه بجسده . ولكنه ليس وحده مثل المرة السابقة، فهؤلاء كلهم يحيطون به ويجلسون حوله ، لكنه وحده فقط الذى لاحظ فى غمرة انشغال الجميع اختفاء السيد القبوطى وعودته ثانية فى لحظات قليلة ، كان يحملق وعيناه تكادان تقفزان من وجهه ثم أغمضهما على تلك الصورة لتظل تلك اللحظة محفورة فى ذاكرته لم يستطع أن يخبر بها من حوله ، مثل رؤيته لأمينة قبل جلسة الأيام الثلاثة أمام البحيرة .

ظل وجه بن إدريس باسما . إبتسامة من صدقت نبوءته عما سيأتى به الغيب . فقد تأكد له أن صهره رجل مبارك . فقد جاء السيد القبوطى وجاء الخير إلى الفرما بقدومه ، ليعمر بها نسله ويزرع سلالته فى أرض الفرما ، كان يزداد إجلالا

ومحبة له كإبنه الذى لم ينجبه ، ينظر حوله فيرى الفرما تتسع وتزدحم طرقاتها بالناس ويؤمها التجار من أماكن شتى فى مواسم الحج ، وعندما كبر السعيد وإدريس وأصبح أبوهما يعتمد عليهما ، عاوده الحنين إلى البحيرة وعالمها الذى أحبه وأنس إليه وإلى أقرانه الصيادين . فترك العمل فى التجارة وعاد إلى الصيد مهنته الأولى. وكان الشاطىء قد امتلأ بشبان جدد منهم ، يفكرون فى الأمور بشكل مختلف عن الآباء عندما كانوا فى سنهم يذرعون البحيرة ، ويحلمون بامتلاك قوارب كبيرة يخرجون بها إلى البحر .

عندما كبر ضاحى وزاهية كان يصحبهما معه ويعيش معهما طفولته ثانية ، يشاركهما ألعابهما ويعرفهما بطيور البحيرة ويدلهما على أنواع المحارات والأصداف ويرشدهما إلى الأماكن الضحلة ليستحما فيها ويشاركهما النزول فى المياه ويحكى لهما حكاية أميرة التنيس والديك الذهبى . إنضم اليهم بعد ذلك مهران ، وبدأ يتعلم الصيد على يد السيد القبوطى .

كان مهران بعد مجيئه إلى الفرما يساعد أخاه فى العمل فى الوكالة . ولكن السعيد رغم وصاية أبيه له ، لم يكن يرحب بأى وافد جديد للعمل معه ، وحتى لو كان هذا الصبى الصغير ، ولايخفى تبرمه ، مما سبب الحرج لعوض الذى كان ينهر الصبى دائما ويكلفه بأعمال كثيرة حتى لايغضب السعيد . لكن الصبى الذى جاء فارا إلى الفرما تخيل أنه سيعمل صيادا مع أخيه ، فوجىء بأخيه يمارس عملا بعيدا تماما عن البحيرة ويلحقه بالعمل معه ليفعل أشياء لا يفهمها . ويقضى بقية يومه بعد عودته من الكتاب سجيناً داخل جدران تلك المخازن . لكن السيد القبوطى قرر أن يكون الصبى فى رعايته بعد أن آخى بينه وبين ضاحى وألحقه بالكتاب معه ، لم يكن يعرف ما يعانيه الصبى ، وكان الصبى لايجد من يبوح له سوى ضاحى ، وكانت اللحظات التى يمضيها كل يوم بصحبته هى التى تهون عليه .

كان ضاحى يحدث مهران عما يفعله هو وزاهية مع جدهما فى البحيرة والأسماك التى يصطادها جده ، والأسماك التى يصطادها هو وزاهية ، وعن

الحكايات التى يحكيها جده عن البحيرة والكنز المخبوء فى أعماقها . كان الصبى يستمع إليه بشغف وهو يسرح معه بخياله ، ويزداد إحساسه بالاختناق والضيق حتى قال له ذات مرة : أحب أن أصطحبك مرة إلى البحيرة ، فعوض لايجعلنى أغيب عن عينيه طوال اليوم ، وما أن أفرغ من عمل حتى يكلفنى بآخر .

قال له ضاحى : سأكلم أبى ليجعله يسمح لك بالمجىء معنا . اتسعت ابتسامة مهران قائلا : صحيح يا ضاحى ؟

كان مهران ، الذى يبدو هادئا قليل الكلام ، ينطلق فى اللعب والصخب والضحك وهو يعوم فى الماء مع ضاحى وزاهية ، وهم يشكلون تماثيل من الطين ويصطادون الطيور ، ويساعدان السيد الفرماوى فى الصيد . كان الصبى يسأله فى كل كبيرة وصغيرة ويحاول أن يعبر عما بداخله وهو ما لم يتح له منذ جاء إلى الفرما وظل حبيسا فى المخزن وسط أجولة الحبوب . ولايجد متسعا من الوقت للراحة من العمل الشاق المتواصل ، كان يحاول أن يساعد السيد الفرماوى ويقلده فيما كان يقوم به وهو سعيد بهذه الفرصة التى أتيحت له ، فقال له أريد أن أتعلم الصيد حتى أستطيع أن أصطاد وحدى . ربت السيد الفرماوى عليه وقال له : لا مانع إذا كان الصيد يعجبك أكثر من العمل فى الوكالة ، فأنا بحاجة إلى صبى مثلك يعمل معى ويرافقنى فى رحلاتى عبر البحيرة .

فرح الصبى غير مصدق ، ولكنه دار بخلده أن ذلك ربما يضايق أخاه فقال للسيد الفرماوى إن عوض قد يعترض ، فقال له السيد الفرماوى : عوض أمره سهل سأكلمه بنفسى . وبمجرد أن فاتحه فيما بعد رحب عوض . وانضم مهران إلى السيد الفرماوى وصديقيه ضاحى وزاهية . كان العمل فى البحيرة مسليا بالنسبة له وبدأ يتعلم من السيد الفرماوى أصول الصيد ويصحبه فى القارب خلال البحيرة ويترددان على الجزر التى تحيط بها مراحات الأسماك ، وأثناء ذلك يستمع إلى حكايات السيد الفرماوى عن البحيرة التى كان يحكيها لزاهية وضاحى والتى كثيرا ما أثارت خياله ودهشته . وعندما أخذ الجد يحكى عن أميرة التنيس ويصف جمالها ، قال مهران ببراءة : يعنى تشبه زاهية . دهش السيد

الفرماوى من تعليق الصبى ، إذ أنه ربما يصف زاهية فعلا .

شعرت زاهية بالزهو وضحكت مسرورة بعد أن صاح جدها مهللا ، حتى أنه بعد ذلك كان يدعوها أميرة التنيس .

أصبحت صحبة الصغار فى البحيرة مبعث بهجة حقيقية فى حياته منذ قرر العودة للبحيرة وعالمها الذى أحبه ، وعاد ليمارس الصيد .

ترك العمل فى مواسم الحج والتجارة للسيد القبوطى وولديه السعيد وإدريس . يستعيد مع الصغار ذكريات العمر ، يحكى لهم عن صحبته لابن إدريس والقرى الواقعة على البحيرة والبلاد والمدن التى زارها والناس الذين عرفهم والتقى بهم ، وعن أسرار عالم البحيرة وجنيات الماء وحكايات مملكة التنيس وحروبها مع مملكة الهكوش ، وعن كرامات بن سلام ، ومولد سيدى أبو المعاطى فى دمياط ، وعن الصيادين الذين عمل معهم منذ أن كان صغيرا والذين تعلم منهم أصول الصيد وحيله ، خاصة العم سلمان الذى كان يحكى لهم عنه حكايات غريبة تثير دهشتهم سيل متدفق من الصور كان يصنع عالما يحيط بالصغار الذين التفوا حوله ، وهم يتابعون بشغف تلك الحكايات . فما يحيرهم هو قوله لهم : ليس كل ما يعرفه المرء يقوله ، وذلك عندما يسألونه عن هذا الكم من الحكايات كيف استوعبتها ذاكرته وحفظها بمثل تلك التفاصيل فتزداد حيرتهم وهم يعلمون أن مازال هناك الكثير فى جعبته .

يقول لهم : الصياد الحقيقى لايقول كل ما يعرفه ، فالصيد يعلمه ذلك ، لأنه وهو يصطاد قد تتكشف له مراحات من الأسماك لم يكتشفها أو يعرفها أحد ، فتظهر له فجأة . إذا باح بسرها اختفت ولن يستفيد منها هو أو غيره . يحكى عن العم سلمان الذى عمل معه وتعلم منه الكثير من فنون الصيد . قال لهم : كنا نبيت فى احدى الجزر ، لم تكن المراكب فى البحيرة أيامها كثيرة مثل الآن ، فكان أصحاب المركب يوصلوننا إلى الجزيرة ويتركوننا أياما ، كانوا يأتون خلالها ليأخذوا المحصول ، ويحضرون معهم الزوادة من القرية كل بضعة أيام ، التى تعدها زوجته وترسلها معهم . ذات مرة هبت عاصفة وانقطعت الزوادة ، ويصعب

الصيد فى العواصف حيث تتجه الأسماك إلى القاع ، ولم يكن لدينا شىء نأكله بعد أن نفد الطعام والماء فكنا نشرب من ماء البحيرة الذى يزداد ملوحة فى هذا الوقت من العام . ومر يومان علينا حتى بدأت أمعاءنا تتلوى من الجوع وهو يصبرنى قائلا : سيأتى الفرج ، وأمسك بالفوطة التى كانت تصر فيها زوجته الطعام ورفعها بيده قائلا : روحى يا مبروكة ، ووجدت الفوطة تطير فى الهواء وتبتعد بعيدا حتى اختفت . ومضى يتمتم بكلمات لم أتبينها . عندما سألته كيف تم ذلك وضع كفه على فمى حتى أتوقف عن الكلام ، ومرت فترة ثم وجدته يقول : تعالى يا مبروكة ، وبعد قليل وجدت الفوطة طائرة فى الهواء وقد عقدت على شكل صرة وحطت بيننا وفتحتها . ووجدنا فيها أكلا طازجا ، وخبزاً كأنه خارج لتوه من الفرن وكذلك خضاراً مطهياً وقربة ماء . فأكلنا حتى شبعنا وارتوينا . ومرة ثانية طلب منى ألا أساله كيف جاء الطعام .

وعندما عدنا إلى القرية عرفت من زوجته التى كانت قلقة عليه لعدم وصول الزوادة له أنها كانت تعد الطعام فى ميعاده آملة أن يأتى أحد ليأخذه حتى رأت الفوطة تنزل عليها فى ساحة الدار وهى جالسة أمام التنور ، وعرفت على الفور أنها فوطة زوجها فوضعت عليها الطعام وصرته ، ورأتها بعد ذلك تطير وحدها .

تزداد دهشة الصغار وتكثر أسئلتهم ، فيحتج السيد الفرماوى قائلا : ألا تصدقون؟ إسألوا عمكم بطرس ، ثم ينادى قائلا : يا بطرس .. يا بطرس .

يأتى بطرس مسرعا على صوت الفرماوى ، وقبل أن يلتقط أنفاسه ويجلس ، يجد الفرماوى مندفعا : قل لهم يا بطرس ، ماذا كان يفعل العم سلمان عندما ينفد الزاد ؟

يواجه بطرس نظرات الصغار المتحفزة ، ويجلس صامتا متأملا . فيستحثه السيد الفرماوى قائلا : قل لهم ، ماذا فعل عندما نفد الإدام ؟ ألم تكن معنا يومها ورأيت بعينيك ؟

يقول بطرس : فعلا ، كنا نصطاد فى إحدى الجزر ، وقد انتهينا من الصيد وانتقينا بضع سمكات لغذائنا ، أوقدت راكية كى نشويها ، لكن عم سلمان قال

إنه يشتهى السمك المقلى ، كان الإدام قد نفد ، ولم يبق سوى بضع قطرات فى القدر ، فأخبرته أن الإدام نفد ، لكنه أصر أن يأكل السمك مقليا ، فأحضرت القدر أمامه وقلبته ، فتساقطت منه بضع قطرات ، فخطفها من يدى ناهرا إياى وهو يقول : أتبدد نعمة ربنا ، وضع القدر أمامه وأخذ يتمتم ، وبعد قليل ناولها لى قائلا : خذ .. وقم أقلى السمك . أخذت القدر منه ، كانت قد امتلأ بالإدام . هذا شاهدته بعينى هاتين .

كانت هذه الصحبة تثير غبطة السيد القبوطى ، كان يستقبلهما بعد عودتهما من الكتاب ، وتنضم إليهما زاهية ، يحكون له عما فعلوه فى يومهم ويتسابقون فى الحكى ويطمئن إلى مهران الذى بدأ لسانه ينطلق فى الكلام بعد أن كان صامتا طوال الفترة التى أمضاها فى العمل بالمخزن مع أخيه . وكان يتابع بنفسه تقدمه فى الدراسة هو وضاحى ويطلب منهما أن يسمعاه ما حفظاه ، وبعدها ينطلقون فى البحيرة ، أو يتجمعون حوله ليستمعوا إلى حكاياته ويلهون على الشاطىء .

جاء الشيخ محمد من طنطا وطلب منه أبوه أن يتابع تقدم أخيه فى الدراسة ، هو ومهران فكان يفعل ذلك ويطمئن أبيه . واستطاع ضاحى ومهران أن يحرزا من خلال تلك المتابعة فى أيام قليلة أضعاف ما أحرزاه قبل ذلك . وقال الشيخ محمد لأبيه عن ضاحى : هو ذكى وسريع الحفظ إذا دأب على المذاكرة لكنه مشغول باللعب ، وكذلك مهران فهو يتقدم ولديه رغبة فى التعلم .

بعد أسابيع أمضاها الشيخ محمد مع أسرته بعد مجيئه من المسجد الأحمدى بطنطا وتعلمه تلاوة القرآن ، طلب من أبيه أن يحقق وعده بالسماح له بالسفر إلى المحروسة للالتحاق بالجامع الأزهر . وكان أبوه قد أجل الموضوع فترة من الوقت حتى يتأكد من رغبة ابنه ، فكان يراه طول الوقت مشغولا بالقراءة من تلك المحفوظات التى نقلها من المسجد الأحمدى ويتصرف بوقار العلماء ويحظى باحترام أهل الفرما . حتى الشيخ حمزة ، شيخ الجامع ، كان يأتى ليسأل عنه ويجالسه ويتناقش معه فى أمور الدين . قال ذات مرة للسيد القبوطى : سيكون عالما له شأن لو أرسلته ليكمل دراسته بالأزهر ، والله إنى لأستمع إليه كتلميذ .

عندما قال السيد القبوطى للشيخ محمد : هيا أعد نفسك للسفر إلى المحروسة، تهلل وجهه بالفرح وهو يشكر ربه ، ثم أهداه أبوه عباءة كان يحتفظ بها لهذه المناسبة ، وبمجرد أن عرف الجميع ذلك بدأت الاستعدادات للسفر ، اشترى له جبة وقفطانا وعمامة وكاكولا وبعض الثياب استعدادا للسفر ، عندما ارتداها ليجربها أثار انبهار الجميع إذ كان يبدو عالما فعلا .

لم يصدق السيد الفرماوى أن هذا حفيده الذى سيتعلم فى الأزهر ويصبح عالما ذا شأن ، يعيش فى رحاب الأزهر محاطا بمقامات أهل الله الصالحين فى المحروسة التي طاف بها ذات مرة عندما اصطحب بعض الحجاج المغاربة . فعاودته الرغبة للقيام بتلك الزيارة ثانية .

قال للسيد القبوطى : سأصطحبكم فى تلك الرحلة إلى المحروسة . فقال له على الفور : والله إنى كنت أعدها لك مفاجأة كما أعددتها للشيخ محمد ، لتحقق أمنيتك بالطواف فى أرجاء المحروسة .

بدأت الاستعدادات فى بيت القبوطى للسفر ، إذا كان أهل الفرما يتوافدون يوميا ، وهم يتحدثون عن الرحلة ورؤية أهل القبوطى قبل سفرهم ، وتوصيتهم لإحضار بعض الأشياء التى تخصهم . ومع اقتراب يوم السفر حملوا الهدايا للشيخ محمد ، وقامت سكينة وأمينة بإعداد الزوادة . وكان السيد الفرماوى لايصدق نفسه . وصلى شكرا لله ، إذ جاء هذا اليوم وحقق كل ما كان يتمناه، والتف حوله ضاحى ومهران وهم يوصيانه بالهدايا التى سيأتى بها إليهم وهو يعدهما بذلك ويوصى ضاحى ومهران ألا يبتعدا عن شاطىء البحيرة ، إذ أوصى بعض الصيادين بأن يعملوا معهم على القارب بعد أن تردد طويلا أمام إلحاحهم ، إذ لم يكن يتصور أن يبعدوا عن البحيرة خلال فترة السفر الطويلة . أخذ الصبيان يتقافزان من الفرح والسيد الفرماوى يرقبهما ضاحكا . قال ضاحى : سنثبت لك يا جدى أننا صيادان بحق وغدا ترى . أما مهران ، فكانت فرحته أكبر لخوفه من العودة للعمل بالوكالة . وأوصاهما السيد القبوطى بالجدية فى الكتاب ، وقال لهما مشجعا ، إذا نجحتما فى تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، سأجعلكما تلحقان

بالشيخ محمد فى المحروسة .

فى يوم السفر ، ملأ أهالى الفرما ساحة المناخ ليودعوا المسافرين وجاءت النساء بمزيد من الزاد وقامت أمينة وسكينة بتعبئته فى السلال والمقاطف وساعدها الأهالى فى حملها ، واتجه موكب كبير إلى المرسى يتقدمه الرجال وهم يحيطون بالمسافرين ، حتى الأطفال كانوا يحيطون بالموكب . وفى المرسى تجمعوا على الشاطىء وأخذوا يساعدون فى صف المقاطف والسلال فى مركب إبراهيم ، ثم أبحر المركب بهم فى اتجاه دمياط حتى يستقلوا من هناك المركب الكبير الذى يقلهم إلى المحروسة .

ثم أخذ المركب فى التحرك وهم يدعون لهم بالسلامة ويلوحون بأيديهم ، حتى اختفى المركب وراء أمواج البحيرة .

الفصل الثامن

رغم أنها لم تكن المرة الأولى التى يذهب فيها السيد الفرماوى إلى المحروسة ، شعر كأنه ذاهب إليها طائرا . وطوال الأيام الخمسة التى أبحر فيها المركب من دمياط حتى مرسى بولاق ، كانت الحقول تحيط بهم ، بحر من الخضرة على الجانبين يبحران فيه ، تصاحبه طيور الماء وتحلق روحه معها . كانت عيناه تتابعان المشاهد فى القرى التى يمرون بها فتظل عيناه عالقتان بها إلى أن يسحبه المركب من المشهد . ولكثرة ما تكررت أمامه بكل تفاصيلها أصبحت عالما يعايشه طوال الأيام الخمسة ، الخضرة الكثيفة وعيدان الفلاحين النحيلة التى تبدو كأخيلة وسط عيدان الزرع ، رجال ونساء ، وحتى صبية وأطفال ، ينكبون على العمل أو يسحبون الحيوانات ، أو يتناولون طعامهم فى ظلال أشجار على أطراف الغيطان.

رسى بهم المركب فى مرسى بولاق ، أنزلوا أمتعتهم وركبوا عربة كارو حملتهم بأمتعتهم إلى رحاب الأزهر . كانت عيناه تدوران طوال الطريق كطائر يحلق يخشى أن يفوته مشهد من مشاهد المحروسة .. الناس، والبيوت، والطرقات، والمتاجر، والجوامع ، والأصوات ، والروائح ، والإيماءات، والأحاديث .

بمجرد وصولهم الأزهر نزلوا بأمتعتهم على أحد المقاهى وتناولوا طعامهم وشربوا الشاى ونالوا قليلا من الراحة ؛ وسرعان ما وفق السيد القبوطى فى العثور على مسكن بعد سؤال الناس . دلوه على حجرة فى ربع كبير بالجمالية يملكه أحد كبار التجار ، معظم حجرات الربع يسكنها طلبة أزهريون، كما أخبروه . تطوع أحدهم باصطحابه إلى وكالة صاحب الربع ، عرف الرجل أنه غريب وقد أتى من الفرما ليلحق ابنه فى الأزهر ، فرحب به وطمأنه إلى أن ابنه سيكون فى

أمان بينهم ، قال له إنه يعتبر هؤلاء الشبان مثل أبنائه ، فهم طلاب علم ودين ، وغدا يصبح منهم العالم والقاضى والفقيه . إستراح كل منهما للآخر ، وسرعان ما تم الاتفاق على تأجير إحدى الحجرات الشاغرة فى الربع ودفع الإيجار ، ثم حملوا متاعهم إلى الحجرة وافترشوا الفراش الذى أتوا به من الفرما لاستخدامه فى النوم على ظهر المركب واستغرقوا فى النوم . قام السيد القبوطى خلال الأيام التالية بتجهيز الحجرة بكل ما يلزمها ، كما سعى على الفور لإتمام إجراءات إلحاق الشيخ محمد بالأزهر بعد أن استدل من الطلبة الذين يقيمون بالربع ، أشارت عليه مجموعة منهم أن ينضم إليهم تحت رعاية أحد الشيوخ المشهود لهم بالعلم الواسع والخلق القويم ، وفى صباح اليوم التالى اصطحبوهم إلى الشيخ ، وتعرف إليه السيد القبوطى ، وقدم إليه محمد الذى كان يبدو صغيرا بالنسبة لباقى الطلبة فأبدى الشيخ استحسانه ، خاصة بعد أن أخبره السيد القبوطى أنه مكث فترة بالجامع الأحمدى ، فسأله عن الشيوخ الذين تعلم منهم وكان بعضهم من معارف الشيخ الذى قدم نفسه لهم باسم عبدالفتاح الأسيوطى.

وما أن انتهيا من إلحاق الشيخ محمد بالأزهر واطمأنا إلى انتظامه فى الدراسة ، حتى انطلقا إلى أرجاء المحروسة لتفقد أحوالها ورؤيتها بتأن وهما يجوبان الأضرحة فى مختلف أنحائها ويتأملان المعمار والأبنية ؛ أدهش السيد القبوطى السيد الفرماوى عندما وجده على معرفة ببعض المريدين والدراويش الذين يقيمون فى بعض التكايا ، بل وعندما اصطحبه لزيارة جامع عمرو بن العاص بالقرب من فم الخليج ، وبعد أن انتهيا من الزيارة ، قال له إنهما سيذهبان إلى مكان قريب للسؤال عن بعض معارفه . وسارا فى الأراضى التى تقع خلف الجامع وأشار السيد القبوطى إلى موضع مدينة الفسطاط القديمة التى يتقدمها جامع عمرو ، وهو يحدثه عنها قائلا إنها كانت مدينة عامرة آهلة بالبشر والبيوت الكبيرة ذات الطوابق العديدة والطرقات المنتظمة والورش التى يبدع فيها الصناع آيات الفن من أعمال النسيج والخشب والزجاج والفضة والذهب والنحاس وغيرها من الصناعات ، وكان الخلق يؤمونها من كل صوب ، فقد كانت حاضرة بر

مصر كلها ، ولم يبق منها سوى هذه الأطلال .

قال السيد القبوطى : كأنك تحكى ما رواه لى بن إدريس عن مدينة التنيس .

أخذ السيد الفرماوى يتطلع حوله إلى الأرض التى تعلوها كيمان من الأتربة ، قال : وهل غرقت الفسطاط كما غرقت التنيس ؟

قال السيد القبوطى : لا ، فقد التهمها حريق كبير أتى عليها ، إذ أضرموا فيها الحريق حتى لاتقع فى يد الغزاة ، قبل أن يهيل عليها الزمن التراب الذى تراكم سنوات وراء سنوات كما ترى .

تعجب السيد الفرماوى من مقدرة صهره على الإلمام بكل تلك المعارف التى لاتظهر إلا فى الوقت المناسب فيكون لها مغزى ومعنى ، رغم أنه لايتكلم كثيرا عن الأشياء التى يعرفها إلا أنه حين يكشف عنها تضىء البصيرة . هذا الرجل الذى جاءه كالحلم وحول حياته نفسها إلى حلم كبير ، بقدر ما يبدو شفافا صافيا كأنه يعرفه من زمن بعيده ويجعل من يراه يألفه يبدو فى أحيان أخرى غامضا ينطوى على سر كبير لايستطيع أن يكشفه لحكمة ما ، وتجعل السيد القبوطى يتهيب فى أحيان كثيرة أن يسأله رغم السنوات التى أمضياها معا . كان يختلف عن بن إدريس الذى كان يفيض بما لديه من معارف يتلوها فى أى وقت وأى مناسبة والذى فتح عينيه أيضا على أشياء كثيرة عن العالم الذى يعيش فيه ، عن معنى الكلمة حيث كان يشرحها له وهو يتلو عليه بعض الأوراد والأشعار وتاريخ الناس وأخبار البلدان ، وعن تجليات العشق . وكان يقول له الحب ليست له صورة واحدة فقط ، فقد تحب مكانا أو شخصا أو حالة أو فكرة ، إذا أحببت فأحب بقوة فكل صور الحب تؤدى إلى بعضها البعض .

عندما يفكر بأمر القبوطى وتدور برأسه التساؤلات التى لايطرحها تختلط صورته بصورة بن إدريس ، ولولا اختلاف الهيئة والشكل والعمر لاعتبره هو . لكن ها هو مع الوقت يدرك بعض الاختلافات بينهما ، لكن تظل لكل منهما فى النهاية محبة خاصة وود صاف .

كانت شمس الضحى تتوهج وهما يسيران خلف جامع عمرو يهبطان

ويصعدان الكيمان باتجاه تلك الأبنية التي لاحت للسيد الفرماوى عن بعد ، وعندما اقتربا بدأت تتضح ملامحها . قال له السيد القبوطى : تلك كنائس قديمة كانت موجودة قبل أن يأتى المسلمون إلى بر مصر . وقبل أن يصلا إليها إذ به يصطحبه عبر طريق منحدر وملتف . سارا فيه هابطين حتى أصبح ممرا منخفضا مختفيا بين التلال يلفان فيه . وإذ أمامهما طريق طويل يعرجان فى نهايته فى حارة تبدو كأخدود طويل تحدها من جانب أحجار مسنونة أسفل كيمان الأتربة والجانب الآخر صف من البيوت والمتاجر تتخللها طرقات يسير الناس فيها ، وباعة يفترشون الأرض ، حتى أنه تعجب كيف استطاع الناس أن يقيموا مكانا مثل ذلك فى هذا العمق وسط الأرض الصخرية ، حتى البيوت نفسها كأنها نحتت من الصخر . ورغم حرارة الظهيرة كان الهواء البارد يتخلل ذلك الطريق والطرقات الأخرى المتفرعة منه التى سارا فيها ، هواء رطب منعش يبدد الهجير . كانت الحياة تبدو عادية كما فى غيرها من أحياء القاهرة ، بكل مظاهرها . لكن تلك البيوت القابعة تحت تلك الأسوار الضخمة التى تبدو منها قباب الكنائس والأديرة بالنظر إليها من أسفل تبدو كأنها ممتدة إلى السماء .

كانت للبيوت بوابات ضخمة بها رؤوس مسامير فى شكل تكوينات زخرفية ، كذلك زينت الشبابيك ، التى كان معظمها مغلقا أو مواربا، بنفس الزخارف .

قال له السيد القبوطى إنه سيذهب إلى شخص يدعى حنا يسكن فى ذلك المكان ، وإنه يحمل إليه أمانة من بطرس . سأل السيد الفرماوى : بطرس من ؟ قال بطرس صالح جارنا فى الفرما . وتعجب أيضا السيد الفرماوى ، الذى يعرف بطرس منذ زمن طويل ، أن يسر بطرس بذلك إلى السيد القبوطى دونه كأنما الأمر ينطوى على سر خاص بهما . اتجه السيد القبوطى إلى أحد الأبواب وطرقه ففتح له شخص إستقبله مهللا ، فأدهش السيد الفرماوى أن تكون للقبوطى سابق معرفة به . ثم ، عرّفه به على أنه أحد معارفه القدامى ، ويدعى حنا ، ثم قدمه إلى حنا قائلا : أبى وصهرى وشقيقى .

سلم حنا على السيد الفرماوى بحرارة ، وأمسك بيديه ليجلسه على الأريكة ،

بعد أن جلسا قال حنا : أوحشتنا كثيرا وافتقدناك بعد رحيلك . قال السيد القبوطي للسيد الفرماوى موضحا : لقد عشت بينهم فترة من الزمن هنا فى هذا المكان ، أيام لايمكن أن تنسى . إستقبلونى عندما جئت مع حنا دون سابق معرفة ، وعشت بينهم كأني واحد منهم حتى آن أوان الرحيل . نظر حنا إليه نظرة ذات مغزى ، وقال للسيد الفرماوى : هذا رجل من خيرة الرجال .

حكى كل منهما للآخر عن أحواله وعن أبنائه ، ثم سلمه لفافة صغيرة قال إنها من بطرس . كان الرجل يقارب السيد القبوطي فى العمر . قال له إن ابنه الصغير الذى ولد أثناء وجوده هنا أصبح رجلا ، وفضل أن يكون فى خدمة الرب والتحق بالدير . ظهر التأثر على وجه السيد القبوطي فقال حنا : إذا أحببت أن تراه يمكن أن نذهب إليه بعد أن نتناول طعامنا . وعلى الفور كانت زوجة حنا قد انتهت من إعداد المائدة .

إصطحبهم الرجل إلى طريق على الناحية الأخرى من تلك البيوت القابعة تحت الكنائس والأديرة ، ومروا بطريق شبه دائرى صاعدين حتى وجدوا أنفسهم أمام أبنية الكنائس الضخمة ، وأخذ حنا والسيد القبوطي يشرحان للسيد الفرماوى تاريخ تلك الكنائس وما يراه من معمارها . وأدهشه أن يرى بها زخارف تشابه تلك التى رآها فى بعض الجوامع القديمة التى طافا بها . قاموا بزيارة مشهد مارجرجس ، ورأى السيد القبوطي يوقد شمعة ويقرأ الفاتحة ففعل مثله ، وبعد ذلك اصطحبهم حنا إلى الدير حيث أخبر الحارس أنه يود رؤية اصطفانوس وجلسوا بانتظاره على مقعد وسط أشجار عالية وارفة ومثمرة وأحواض زرع تحيط بهما والهواء يتخللها رطبا منعشا ، جاء الشاب فى مسوح الرهبان وسلم على أبيه الذى عرفه بالسيد القبوطي قائلا : لقد شهد مولدك وعمادك ، ثم تركنا وذهب إلى الفرما . سلم عليه الشاب ثانيا وقال له : باركك الرب يا والدى ، أخذ الشاب يحدثهم عن الدير وحياته فيه . مكثوا معه بعض الوقت وقد طابت لهم الجلسة وسط الخضرة وأحواض الزهور الفواحة . قدم لهم اصطفانوس بعض ثمار الفاكهة ، مكثوا بعض الوقت ثم تقدموا مستأذنين للانصراف . مضى بهم

حنا في طريق آخر أمام الدير باتجاه فم الخليج حتى موقف عربات كارو وأوصى أحد الحوذية من معارفه بأن يصحبهما معه في طريقه إلى الغورية . وعادا إلى حجرتهما ولم ينسيا أن يشتريا طعاما وبعض الحلوى للشيخ محمد الذى عاد مبكرا ذلك اليوم ، وكان في صحبته بعض زملائه من قاطني الربع ، الذين سرعان ما توطدت علاقته بهم .

توالت زيارات القبوطي والسيد الفرماوى لأهل الله ، يوزعان الهبات ويوصلان الدعوات التى أوصى بها أهل الفرما ، ثم يؤديان الصلوات .

طلب السيد الفرماوى مشوقا زيارة مقام ابن الفارض إمام العاشقين ، والذى كان بن إدريس يتلو عليه بعض أشعاره ويحدثه عنه ، فذهبا إليه في القرافة الصغرى . وفى عودتهما عرجا على مقام الإمام الليث بن سعد ، كما زارا بعد ذلك مدرسة السلطان حسن وجامع قلاوون ، وتعجب السيد الفرماوى مما رآه من ضخامة البناء وجلاله وزخارفه الجميلة المتنوعة .

لم يضيعا وقتا بالمحروسة دون رؤية شيء جديد بالزيارة أو اكتشاف أماكن جديدة أو ارتياد بعض المزارات . زارا بعض التكايا والأسواق والوكالات ، كما كانا يذهبان إلى الحمام ويصحبان الشيخ محمد معهما ، ويتناولان الطعام فى المقاهى المختلفة أينما حلا ، ويتعرفان إلى الناس بكل مكان يذهبان إليه ثم يعودان إلى الحجرة فى نهاية اليوم لينالا قسطا من الراحة ، ويستمعان من الشيخ محمد عما فعله في يومه ، وأحيانا كانا يلتقيان به فى صحن الجامع الأزهر بعد صلاة العشاء ليستمعا إلى الدروس .

كانت الأوقات التى أمضياها معا قد ربطت بينهما برباط قوى بعد أن شغلتهما ظروف كلا منهما فى الفرما . واكتشف السيد الفرماوى أن صهره لم يكن فقط رجلا رحالا ، بل له أيضا معارف في المحروسة . هذا فضلا عن قدرته الفائقة على التعرف على الناس الذين كانوا يشعرون بالألفة نحوه . لم تقتصر تنقلاتهما على المساجد والأديرة التى زاراها بل شهدا حلقات الذكر والحضرة فى رحاب تلك المساجد وبعض الموالد ، كما حضرا مجالس الطرب التى كانت تعقد بالقاهرة .

ويدد السيد القبوطى إحساس السيد الفرماوى بالغربة فى المحروسة بقدرته على الحركة والتنقل ، لدرايته السابقة بها . كان يشعر أنه عرف الكثير وخبر الكثير مما سمعه من بن إدريس ، وما عرفه من الحجاج فى الفرما أثناء الزيارة التى اصطحبهم فيها قبلا إلى المحروسة ، ولكن ها هو يعود كما لو كان شابا فى مقتبل العمر يتلهف على المعرفة ويثير فضوله كل لحظة ما يراه ويعرفه . وكانا خلال جولاتهما قد اشتريا بعض الهدايا لكل أفراد الأسرة ولأهل الفرما .

شىء ما سمعاه مصادفة قلب الزيارة رأسا على عقب بعد أكثر من شهر أمضياه بالمحروسة ، هو خبر عن حفر البحر فى الفرما . تناهى إليهما الخبر عندما كانا يحضران درس العشاء بصحن الجامع الأزهر ، عندما أخبر الإمام الحاضرين بأن سعادة أفندينا سعيد باشا سيحفر البحر فى الفرما ليصله بالبحر فى السويس بذلك ، وأن الله قد سبب الأسباب وأرسل له صديقة الفرنساوى المسيو دليسبس الذى اقترح عليه هذه الفكرة ، وأنه قد وافق على أن يقدم له كافة ما يلزم لتنفيذها ، وطلب منهم الدعاء لسعادة أفندينا أن تسدد خطاه ، وبعدما عرف أنهما من الفرما ، عقب قائلا : أبشروا ستتغير أحوال بلادكم ، وتنعمون بالخير فيها .

قال السيد القبوطى : عندما أتينا من الفرما لم نسمع مثل هذا الأمر .

أما السيد الفرماوى فقد انطلق قائلا : يحفرون البحر .. كيف ؟

قال الرجل : هذه خطة ينتويها أفندينا سعيد باشا ليوصل البحر المالح فى الفرما بالمالح فى السويس حتى ييسر على الحجاج السفر إلى الأراضى الحجازية بالبواخر بدلا من السير على الأقدام وركوب الجمال ، وهذه الفكرة قد ألهمها له صديقه الفرنساوى المدعو المسيو دليسبس .

قال أحد الجالسين : جزاه الله كل خير ، فسوف يسهل على المسلمين الحج وأداء فريضة الله .

قال السيد الفرماوى متعجبا : وما شأن الفرنساوية بحجاج بيت الله !

وقال السيد القبوطى : لابد أن لهم غرضا من وراء ذلك ، وهؤلاء قوم لاينوون خيرا .

لم يكن الشيخ وهو يحاول أن يشرح الموضوع مبشرا لهم بتحسن أحوال بلدهم قد تصور أن تأتى الأمور بصورة عكسية تماما ، فلم يجد بدا أن يقول لهم : إن سعادة أفندينا سعيد باشا هو راعينا ، وهو لاشك يدرك مالا نستطيع أن ندركه .

تعجب السيد الفرماوى من أهل المحروسة الذين لايهمهم ما سيجرى للفرما ، بل يجدونه خيرا ، وخلال الأيام التالية حاولا أن يتسمعا الأخبار من العارفين بالأمور ، وتأكدا من صحة الخبر الذى أكده لهم الشيخ محمد مما أخبرهم به بعض الشيوخ فى الأزهر .

تذكرا ما شاهده بعض أهالى الفرما من وجود أغراب يتجولون فى صحراء الفرما وهم يمتطون الجمال بصحبة بعض الأدلاء من البدو ، ولم يعر أحد الأمر انتباها وقتها ، وبعدها جاء بعض هؤلاء الأجانب فى مركب كبير رسى بهم على شاطىء الفرما ، وتجولوا مرة أخرى على ظهور الجمال ، وسلكوا طريقا باتجاه رأس الجسر ، ثم رآهم بعض الصبية عند عودتهم ثانية ، حتى وصلوا إلى الشاطىء ، ونزل بعضهم للاستحمام فى البحر ثم عادوا إلى المركب الذى سار بهم بمحاذاة الشاطىء فى اتجاه دمياط .

كان أول ما فكرا فيه هو العودة للفرما بأسرع ما يمكن ، فقد خشيا أن تحدث أمور فى غيابهما . وعلى الفور شرعا فى إعداد حاجياتهما والسؤال عن موعد إقلاع المركب المتجه إلى دمياط فى اليوم التالى . كانت رحلة الذهاب التى قطعها السيد الفرماوى طائرا محلقا فوق مياه النيل والحقول الخضراء قد غدت ثقيلة على نفسه ولم يخف عن السيد القبوطى مخاوفه أن يكون هناك أمر مدبر للفرما وأهلها . وهو يتحسب لحظة وصوله وسماعه لما جد من أخبار .

الفصل التاسع

لم يكد السيد الفرماوى يطأ أرض الفرما بعد رحلته إلى المحروسة بصحبة السيد القبوطى ، واستقبال الأهالى لهما وهم يسألونهما عن أخبار الرحلة وأخبار الشيخ محمد ، حتى أخذ يتجول فى الفرما ويطأها شبرا شبرا يصافح الوجوه بعينيه عله يستشف شيئا ما ، وهو يمسك بيد زاهية ، بينما ضاحى ومهران يتقافزان حوله ، كان كل من رآهم ينضم إليهم . ساروا فى موكب كبير متجهين إلى الشاطىء . التف الصيادون حوله .

- وحشتنا يا فرماوى .

- القعدة على الشاطىء ليس لها طعم بدونك .

صاح أحدهم وهو يقلده : الراكية والشاى يا مهران .

اصطحب الأولاد معه فى القارب وقد أمسك كل من ضاحى ومهران مجدافا وهما يضربان المياه بقوة ، بينما التصقت به زاهية وهو يحيطها بذراعه . وقبل أن يبتعدوا عن الشاطىء أسرع الجميع نحو القوارب وقد أحاطوا بهم ، وانطلقت القوارب بهم فى عرض البحيرة وهم يتسابقون وتتعالى ضحكاتهم وهو يتلفت حوله ويرخى سمعه مع وشيش الماء وإيقاع المجاديف ، ويعبىء صدره بهواء البحيرة الرطب المنعش .

عندما اجتمع الرجال فى نهاية اليوم بساحة المناخ ، أخبرهم السيد القبوطى بما سمعاه فى المحروسة عن الفرما ، وعن اعتزام الفرنساوية حفر البحر فى الفرما لتوصيله ببحر السويس . وقبل أن يكمل الكلام اندفع السيد الفرماوى قائلا : يريدون إغراق الفرما كما أغرقوا التنيس .

لم يلق أحد بالا إلى كلماته وسط الوجوم الذى خيم عليهم . تدافعت الكلمات فى اتجاهات شتى معبرة عن مخاوف الأهالى . تذكر بعضهم هؤلاء الأجانب الذين رآوهم وهم يتجولون فى صحراء الفرما ، مؤكدين ما أخبرهم به السيد القبوطى ، وأنه لم يخطر ببالهم وقتها أنهم أتوا لهذا السبب .

قال الشيخ حمزة إمام الجامع مستفهما : يعنى الحرب ستقوم بيننا وبين الفرنساوية مثل أيام بونابرته ؟

قال السيد القبوطى : بل سيتم ذلك بمباركة الوالى سعيد باشا نفسه .

قال الشيخ صديق العريف : يعنى يريدون تسليم الفرما للفرنسيين ليفعلوا بها ما يشاءون .

قال همام : يعنى السخرة وراعنا وراعنا ، يسوقوننا لحفر البحر ونتحول إلى أنفار ، وكل ما بنيناه فى الفرما يضيع .

وبينما أخذ البعض يتساءل عن حكاية الحرب مع الفرنساوية هذه خاصة الشباب ، اندفع السيد القبوطى ثانية قائلا : وعندما تغرق الفرما أين نذهب نحن ؟!

إنتبه الجالسون إلى كلمته هذه المرة . وعلت تساؤلاتهم حول مصيرهم عندما يأتى هؤلاء لحفر البحر . وتساءل أحد الصيادين : هل يرضى أفندينا أن نشرد من الفرما بعد أن استقرينا فيها وأصبحت حياتنا هنا .

قال متولى أبو المكارم : يجب أن نذهب إلى المديرية ونستفهم من أولى الأمر عما يحدث ، ونفهم منهم كيف سيكون الحال . أكيد لايعرفون الضرر الذى سيقع علينا .

كان الرجال يجتمعون كل يوم وهم يتوقعون قدوم الأغراب بين لحظة وأخرى ، ولا حديث لهم إلا ما سيحدث حين يأتون . وأصاب الخوف البعض ، ففكروا فى العودة إلى القرى التى جاءوا منها ، لكنهم ظلوا يمارسون أعمالهم ويتسمعون الأخبار ، أما السيد الفرماوى فقد عاد إلى البحيرة ولم يكف عن ترديد حكاية التنيس على مسامع الصيادين قائلا إنهم يريدون إغراق الفرما مثلما غرقت التنيس ، وهو يحذر جميع من حوله قائلا : إذا حفروا البحر فسوف تندفع مياهه

وتغرق الفرما كما غرقت التنيس ، ومن ينجو من الغرق لن يجد له مأوى وسيتشتت أهل الفرما كلهم .

الصيادون الذين سمعوا هذه الحكايات قبلا ، لم يدركوا ما ترمي إليه حول غرق الأرض ، مجرد خيال عن عالم تحت الأرض والمملكة التى غرقت ، والغرق لايحدث إلا بفعل فاعل . رغم ذلك أفاض السيد الفرماوى فى الحكايات عن تلك التنيس ، حتى قال أحدهم يوما : ما شأننا نحن والبلوى التى نواجهها بأميرة التنيس وهذه الحكايات التي سمعناها ونحن أطفال .

غضب السيد الفرماوى لسماع تلك الكلمات وثار قائلا : لكن آثار التنيس مازالت موجودة ومازالت جزيرتها كائنة في البحيرة أمام أعيننا ، وكل العلامات تدل على وجودها . أخذوا يهدئونه ويطيبون خاطره : لكنه كان يخشى ألا يصدقوا حتى تقع الكارثة وتغرق الفرما مثلما غرقت التنيس . تذكر فيما بعد أنه هو نفسه كان يعتبرها مجرد حواديت تحكى للأطفال ، وتذكر تلك المرة التى سأل فيها بن إدريس عن بلدته فأشار إلى الماء . إنتفض السيد الفرماوى وهو يبسمل ، فابتسم بن إدريس وهو يربت عليه قائلا : لا يابنى أنا إنسى مثلك كما ترانى ، أنظر إلى هذه البحيرة ، فى قديم الزمان كانت توجد بلدة كبيرة مكان هذه البحيرة أغرقها الطوفان ، كانت تسمى التنيس ، ويقال إنها فى سالف الأزمان كانت مملكة عظيمة عامرة بالخيرات ، جاء ذكرها فى كتب الأقدمين ، إن التنيس كانت موجودة حقيقة. وحكى له أنها كانت من أجمل ممالك الأرض بوفرة خيراتها وحقولها الخضراء وأشجارها المثمرة ومعمار بيوتها ذات الطوابق المتعددة وقلعتها الشهيرة ، والثياب الحريرية المطرزة بخيوط الذهب والفضة التى اشتهر أهلها بصناعتها . قال له إنهم كانوا يصنعون كسوة الكعبة ، ويرسلونها إلى المحروسة ، وتطوف الشوارع فى احتفال كبير قبل موسم الحج ، حيث ترسل مع موكب الوالى إلى الحج ، أو مع من ينوب عنه .

وعندما جاء الغزاة هدموا معابدها ودكوا حصونها فغرقت فى البحر ، وتشتت أهلها فى كل صوب فى بر مصر ، فى هذه القرى حول البحيرة ومديريات الوجه

البحرى والصعيد ، يعنى أنا لى أقارب فى كل مكان ، بعضهم أقباط وبعضهم مسلمين ، وأحيانا ألتقى ببعضهم عند تل ابن سلام فنتعرف ببعضنا البعض ونذكر نسبنا وعائلاتنا ، حتى أصبحت ألم بالكثير من أصول الأسر فى التنيس .

قال الفرماوى لابن إدريس مندهشا وهو يضرب رأسه بكفه : كنت أظن أن التنيس والحكايات التى يحكيها الصيادون والناس حول البحيرة مجرد حواديت، وأحيانا كنا نصدقها .

– بل هى حقيقة لها رأس وبدان وقدمان .

– وحكايات ملك التنيس وملك الهكوش وأميرة التنيس والديك الذهبى والكنز .

– أنا كنت أسمع مثلك هذه الحكايات ، لكن أهل التنيس يؤكدون أن هناك كنزا مخبوءاً غرق مع بلدتهم ، جاء ذكره فى الكتب التى اطلعت عليها ، ويقال إنه كان هناك أخوان أحدهما طيب والآخر شرير ورثا ثروة كبيرة ، وأن الأخ الطيب كان ينفق من ماله بسخاء على المحتاجين ، وكان الأخ الشرير يعيب عليه ويتهمه بالإسفاف ، وكان بخيلا يرفض أن يتصدق من ماله ، وراح يكدس الأموال من نقود ومجوهرات ، حتى ناءت بها خزائنه ، وكان يزهو بها ويستعرضها فى موكب يخرج بها على أهل البلدة محاطا بالخدم والعبيد ، ويسعد وهو يرى الحسرة فى عيون المحتاجين ، وفى إحدى المرات زلزلت الأرض ، وخسفت به وبأمواله وغرقت كنوزه ، وهذا أمر لايعلمه إلا الله .

لم يجد السيد الفرماوى أمامه إلا زاهية وضاحى ومهران ليردد تلك الحكايات على مسامعهم . وأصبح الصغار يستمعون بلهفة بعد أن أدركوا من الحديث الذى دار بين الرجال أن ذلك صحيح . ولم يعودوا يستمعون فقط بل أصبحوا يشاركون الجد وهو يحكى ويضيفون من عندياتهم .

مع الوقت ، انصرف ضاحى ومهران إلى لهوهما ومغامرتهما فى البحيرة ، ولم يبق أمامه سوى زاهية التى كانت تتشرب حكاياته وهى تنصت إليه وعيناها مفتوحتان على آخرهما . كان يشعر براحة كبيرة وهى تجلس إلى جواره إذ كانت أقرب أحفاده إليه بملامحها التى ورثتها عن جدتها سكينة ، بعينيها العسليتين اللتين تلمعان كشمس البحيرة لحظة الشروق .

لم يجد جديد فى الفرما . فهدأت مخاوف السيد الفرماوى قليلا بعد أن بدأ الرجال ينصرفون عن ساحة المناخ وتناقل الأخبار ، إلا من تعودوا أن يأتوا إلى مجلس السيد القبوطي . وعادت الحياة في الفرما إلى سيرتها .

شهدت أسرة القبوطي ميلاد جيل جديد، إذ رزقت فاطمة بمولود أسماه أبوه مسعد، وبعدها رزق إدريس بنعيمة ، وكانت محاولات أمينة مع توحيدة قد فشلت في إقناعها بأن تضع طفلتها في الفرما وهي تعدها بأن ترعاها هي والمولود، لكنها أصرت على أن تذهب إلى بيت الأسرة في دمياط .

بعدها بشهور وضعت عائشة طفلا أسموه «طاهر». وبذلك، اكتملت فرحة أهل القبوطي والفرماوى بالأطفال، وشاركهم الفرحة أهل الفرما . كان ضاحى وزاهية ينتظران الأيام بفارغ الصبر حتى يريا الصغار يمشون ويتكلمون كي يشاركونهما اللعب . وأقامت سكينة ليلة لأهل الله احتفالا بالمواليد وحضرها أهل الفرما . والسيد الفرماوى لا تسعه الفرحة. عندما جلست زاهية الى جواره ، قال لها : غدا سيشغل الصغار مكانك يا زاهية .

طغت الفرحة بالمواليد على كل ما عداها . كانت فرحة زاهية وضاحى كبيرة لأنهما أصبحا خالاً وخالة وعماً وعمة للصغار، وأصبح هناك في الأسرة من هم أصغر منهما سناً. والتف حول الصغار جميع أفراد الاسرة يتناوبون حملهم ويقضون الوقت في مداعبتهم وإطعامهم .

تناسى الجميع في الفرما ما أتى به السيد القبوطي من أخبار عند قدومه من المحروسة ، حتى أتى ذلك اليوم الذى جاء فيه بعض الرجال من أهل الفرما مهرولين وهم يطرقون باب القبوطي ليخبروه أنهم شاهدوا جماعة من الرجال الأجانب في صحراء الفرما، وقد هبطوا من مركب رسى بهم عند شاطىء الفرما وأخذوا يتجولون في الأراضي راكبين الجمال ومعهم بعض الأدلاء البدو، كما فعلوا في المرات السابقة .

وما أن سمع السيد القبوطي ذلك حتى نادى أبناءه وطلب منهم جمع أهالى الفرما .

سرعان ما انتشر الخبر في كل مكان في الفرما وتوافد الأهالي علي ساحة المناخ ليستطلعوا ما حدث .

أخذوا يتشاورون فيما يفعلونه وأخيرا استقر الرأى على أن يذهبوا اليهم ، ويطلبوا منهم الانصراف بالحسنى ليبلغوهم ان أهل الفرما غير راضين عن وجودهم ، اما إذا لجأوا الى القتال فسوف يقاتلونهم حتى يطردوهم، وساروا في موكب كبير يتقدمهم السيد القبوطي وكبار رجال الفرما وأبناؤه، بينما حمل بعض الرجال العصى للدفاع عن أنفسهم وعن باقى الرجال إذا ما تعرضوا لمكروه .

توقفت قافلة الرجال الغرباء عند رؤيتهم حشد الرجال القادم عن بعد . وعندما اقترب منهم تراجعوا ووقفوا مكانهم يحيط بهم بعض البدو. وانتابهم الخوف من صيحات الغضب التي يطلقها هؤلاء الرجال .

سمع رجال الفرما عند اقترابهم همهمة بكلمات أجنبية وقبل أن يقتربوا منهم تماما ، تقدم رجل يركب جملا ومعه أحد البدو مترجلا ، سألهم : من أنتم ؟ وماذا تريدون ؟

قال السيد القبوطي : نحن أهالي الفرما، ونريد أن نعرف من أنتم، ولماذا جئتم هنا ؟

قال الرجل غاضبا : هؤلاء ضيوف أفندينا وقد أرسلهم هنا للفرما ، كيف تجرءون على سؤالهم هكذا ؟

قال له السيد القبوطي : قل لأفندينا إننا نرفض وجود الغرباء على أرض الفرما .

فقال له : كيف تجرؤ يا صياد على مخاطبة مبعوثي أفندينا ، ومن تظن نفسك حتى تقبل أو لا تقبل .

تقدم أحد الرجال ملوحا بالعصا، وحذا البعض حذوه، فأشار لهم القبوطي بحسم بالتوقف. وأصاب ذلك الرجال الغرباء بالذعر فتراجعوا، ورغم تسلل الخوف الى ملامح الرجل الواقف أمامهم فقد علا الغضب وجهه .

قال له السيد القبوطي : لن يدع أهل الفرما غريبا يستولى على أرضهم. نحن نعرف ما تريدون من حفر بحر الفرما دون أن يفكر أحد في مصير أهل الفرما .

قال الرجل : أفندينا باشا يعمل لصالح أهل مصر .

عاد ذلك الرجل إلى بقية المجموعة وهو يتحدث إليهم ثم ما لبث بضعة أشخاص منهم أن اتجهوا إلى المركب الراسى فى المالح وبقى الآخرون . جاء أحد الادلاء البدو وقال لهم : يقولون انهم سيغادرون عن طريق التمساح فاتركوهم لحال سبيلهم . كان الرجل الذى تحدث اليهم يرطن وقد ملأه الغضب كمن يتوعدهم .

عاد الأهالى الى الفرما . ظلوا يتجمعون يوميا فى انتظار ما يجد. ولم يأت جديد فعادوا الى سيرتهم .

الفصل العاشر

لم يستطع إدريس الإفلات من محاولات كهرمانة المستمرة لملاحقته ورؤيته بكل السبل ، فقد طار عقلها عندما علمت بأمر زواجه، واستشاطت عندما عرفت أنه تزوج أخت مصطفى، مما جعلها تعزو إلى مصطفى محاولة إبعاده عنها حتى يستأثر به لأخته ، وهى التى كانت لحسن نواياها توسطه لديه ، فتضاعفت رغبتها فى الاستحواذ على إدريس لإطفاء النار المشتعلة فى قلبها والانتقام من مصطفى وأخته .

والحقيقة أن مصطفى نفسه فوجىء بأبيه يخبره أن إدريس طلب توحيدة للزواج ، مع أن إدريس كان معه فى نفس اليوم، وكان المفروض أن يخبره مراعاة لصداقة العمر، وكان إدريس كان قد عاد الى الفرما فى نهاية اليوم ليخبر الاسرة، ليأتوا معه لقراءة الفاتحة .

قال له مصطفى فيما بعد : نحن طوال عمرنا أصدقاء، لم يفرق بيننا شىء ، لكننى لن اتسامح معك فى حق توحيدة إذ مسست شعورها. قال إدريس : يعلم الله مدى شعورى تجاه توحيدة ، وهذه الصداقة تزيدها محبة، ومعزة الأسرة فى قلبى منذ أن كنا أطفالا ، وهذا ما شجعنى على التقدم ، قال له مصطفى : ومغامرات الموالد .. وكهرمانة ؟

تطلع اليه إدريس كأن الذى يحدثه شخص آخر غير مصطفى الذى شاركه هذه المغامرات ، وجد الجدية والصرامة على ملامحه ، فالذى يحدثه صهره وليس صديقه.

قال إدريس يطمئنه : أنت نفسك تعرف إننى ابتعدت عن كهرمانة منذ فترة ولا

أبغي لقاءها ، وابتعدت تماما عن تلك الأجواء .

قال مصطفى : كنت أريد أن أسمع تأكيدا لذلك بنفسي .

قال له إدريس : ثم إنك كنت شريكي ، وأحيانا دليلي في تلك المغامرات.

قال مصطفى : ذلك يفعله معظم الشبان في مقتبل العمر ، أما وأنت مقبل على الزواج فينبغي أن تبتعد أولا عن ذلك ، وأنا بدوري سأبتعد تماما عن ذلك قبل التفكير في الزواج .

كان إدريس جادا في وعده ، وكف عن الذهاب الى الموالد وحلقات الغوازي، وابتعد تماما عن أي مكان يمكن أن يصادف فيه كهرمانه او ترسل فيه مراسليها إليه ، لذلك فوجئ تماما بزيارتها له في الفرما والسؤال عنه مما أطار عقله، وهو يحاول أن يداري وجودها بأي شكل بعد أن وصلت إليه بصحبة أحد الصيادين من المرسى ليدلها عليه ومعها منصورة .

قالت له بمجرد رؤيته وقبل أن ينصرف الصياد : أتظن أنني لا أستطيع أن أجدك بسهولة ، حتى لو اختبأت تحت الأرض .

أمام تلك اللهجة حاول السيطرة على مشاعره ولم يشأ أن يثيرها حتى لا تتمادى وتسبب له فضيحة ، فقد كان كل همه أن يبعدها عن الفرما بأي وسيلة وحاول بداية أن يسكتها .

قالت له : خائف الآن يا إدريس ، تخشى أن تعلم الهانم زوجتك ؟ ومن تكون هي بجانب كهرمانة ؟ أنسيت أنك أنت الذي كنت تسعى ورائي وتتمنى رضائي .

عرف أنها مصرة على ما انتوته فحاول تهدئتها بكل الطرق حتى لا يتصاعد غضبها، فأكد لها إنه لا يمكن أن ينساها وأن مكانتها في قلبه كما هي ،ولم تقرر الانصراف إلا بعد أن وعدها بزيارتها في دمياط .

قالت له وهي تودعه : لست أنا التي تطردها من حياتك هكذا، والفرما ليست بعيدة عن دمياط .

بات يخشى أن تنفذ تهديدها إذا لم يذهب إليها وحار في أمره . فكان يذهب إلى دمياط ليقضي أعماله ويعود سريعا دون أن يتجول في الشوارع أو يمر على

معارفه ، وأصبح تائها وهو يحاول أن يتدبر أمره ، حتى أنه كان يحاول إثناء زوجته عن السفر الى دمياط والبقاء في الفرما ، لكن أمام إصرارها كان يضطر الى اصطحابها والبقاء معها في منزل الأسرة أو العودة إلى الفرما لعدم ارتياحه إلى الاقامة بينهم ، و نظراً للوضع الذى وضعته زوجته فيه ، كان يخرج أحيانا للتمشي أو للمرور علي أحد المعارف ، حتى وجد نفسه يوما وجها لوجه أمام منصورة ، فاضطر أن يخبرها أنه ذاهب للقاء كهرمانة .

إستقبلته كهرمانة متحفزة ، قالت له : أخيرا جئت ، أم تعتقد أن أحدا لايراك وأنت تأتى دمياط وتذهب دون أن تفى بوعدك .

فقال : ياه .. لديك كل أخبارى .

فقالت : تركتك بمزاجى حتى أرى آخر ما لديك .

حاول ملاينتها أو إقناعها بالابتعاد عنه قائلاً إن الله سيعوضها بمن هو أفضل منه ويعرف قدرها . فأغضبها وقالت : إياك أن تعتقد أن تركى لك الفترة الماضية قد جعلك تطمع فى الفرار : إسمع ، بإمكانى أن الجأ الى أى طريق حتى لا تبتعد عنى ، حتى لو عرفت الدنيا كلها ومن هذه التى تفضلها علي ؟

قال : مالك ومالها، هى حاجة وأنت حاجة ثانية .

قالت : من ستكون هذه بجانب كهرمانة ؟ أتحب ان أذهب إليها حتى أعرفها من أكون ، ومن تكون هى ؟

عند هذا الحد من تماديها تخلى إدريس عن لهجته ولم يجد بدا من تهديدها ، جذبها من ذراعها بشدة قائلا : إن ذلك لو حدث فلن يعرف لك أحد مكانا ، وإذا ساورتك نفسك أن تأتى الى الفرما فسيأكلك سمك البحيرة.

شعرت كهرمانة بالفزع وهى تحملق فيه غير مصدقة، ثم حل الخوف والإحساس بالمرارة محل التحفز والتهديد ، فانطلقت دموعها حتى شعر إدريس بالحرج لتهديده لها ، فاخذ يهدئها وهو يرق لحالها، وهى تقول بين نهنهتها : أهذا هو جزائى لأنى أحببتك ؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم.

أخذ يطيب خاطرها قائلا إن رأسها صلبة وقد أغلقت المنافذ في وجهه.

ونجحت أخيرا فى أن تجعل يصرح بأنه سيأتى لرؤيتها كما نجحت فى أن تجذب طرف الخيط .

كان جادا فى محاولته الابتعاد عنها ، فقد أحب توحيدة فعلا رفيقة صباه، ارتبط بأسرتها منذ كان صغيرا واقترب منهم حتى أنه كان يعد نفسه واحداً من أفراد الأسرة ، وازداد حبه لتوحيدة بعد أن حملت ووضعت طفلتهما وأحاطهما بالرعاية . عندما تزوجها بنى بيتا جميلا يليق بها ،ووفر لها كل ما تهفو اليه ، كى تطيب لها الإقامة فى الفرما ، لكنها بدلا من أن تستقر معه فيه لم تكن تطيب لها الإقامة إلا فى بيت أسرتها فى دمياط ، وحتى بعد أن أنجبت ابنتها نعيمة ، كانت تذهب بطفلتها وجاريتها لتبقى بجوار أمها ، كأنها لم تفطم منها بعد ، فلا تكاد تعود معه إلى الفرما حتى ترجع ثانية إلى دمياط لتمضى فيها معظم الوقت. كانت أمه تسأله عما يضايق زوجته فى الفرما فلا يجد إجابة إلا إنها تتوحش أسرتها، حتى قالت له أريد أن تربى إبنتك معنا هنا فى الفرما مثلما ربيت أنت ولا تنشأ بعيدة عن أسرتها ، ولم يشأ أن يخبرها أن زوجته وأمها تريان عكس ذلك .

رغم علاقته بأسرة الحاج عبد الرحمن منذ صغره، إلا أنه لم يكن يشعر بالراحة فى بيت أهلها، خاصة وأن زوجته لم تكن تراعيه وتلتصق بأمها طوال الوقت، فكان فى الأوقات التى يضطر فيها للبقاء فى دمياط بجوارهما يظل خارج البيت مع معارفه القدامى. وسرعان ما تسلل الى بيت كهرمانة ثانية، فلم تصدق أن الفرصة سنحت لها لانتزاعه من أخت مصطفى .

عندما جاء ابوه وجده من المحروسة ، وأخبروهم بما تناهى الى مسامعهما عن الفرما وحكاية حفر البحر ، شعر بالخطر القادم وهو يستمع الى كلام أبيه عما يهدد الفرما وأهلها من خطر على أيدى الغرباء الفرنساويين الذين سيجورون على أهل الفرما، وتصبح لهم اليد العليا فى الأمور وتحديد مصائر الناس .

ولأول مرة يرى أباه وجده يتحدثان للناس بتلك اللهجة التى يدافعان بها عما حققاه فى الفرما وعما حققه كل من أهل الفرما الذين جاء معظمهم من القرى الواقعة على الجانب الآخر للبحيرة سعيا وراء الرزق وهربا من سطوة كبار الصيادين بدءا من الحيتان الكبيرة حتى بعض أصحاب المراكب .

فجاءوا إليها معدمين وأقاموا حياة جديدة وعاشوا فى مودة. فهمإدريس ما تعنيه كلمات أبيه، وهو الذى تعود علي العمل منذ صغره، فخورا بمهارته وبما حققه للوكالة ،ومندفعا بكل طموحه كي يصبح واحدا من كبار التجار. مما أكسبه مكانة بين أهل الفرما .

وعندما جاء الغرباء، قام إدريس بجمع أهل الفرما ليلقنوهم درسا لكنهم كانوا بضعة رجال وانصرفوا مسرعين، وظل أهل الفرما بعدها شهورا طويلة يتوقعون عودة الفرنساوية بين لحظة وأخرى حتى بدأ حماسهم يفتر، وقال أحدهم : لقد عرفوا أن للفرما أهلاً يحرسونها وأنها ليست صيدا سهلا ..

فقال له القبوطي : لقد كانوا بضعة رجال شبه عزل ، لكن ليس كل مرة سيأتون هكذا ، فما حدث سيجعلهم يعدون عدتهم .. لنا الله .

قال الشيخ صديق العريف : لقد أدركوا انهم يجب أن يأتوا فى حراسة مشددة. وقال آخر : أتعتقد أنهم سيعودون ثانية؟

قال السيد القبوطي : لابد أنهم يعدون العدة لذلك ، من يدرى ؟ أكيد يعدون العدة الآن لتنفيذ ما انتووه .

كان رأس إدريس ممتلئا بالهواجس وهو يدرك صعوبة المواجهة التى لابد أن تتم، فإذا جاءوا لن يعود أهل الفرما هم سادتها ، وسيساقون الى ما يريده لهم هؤلاء الاغراب. كثيرون من أهل الفرما يدركون ذلك ، حتى شقيقه الأكبر السعيد ينتابه القلق على الوكالة ، وهو الذى عرف الدنيا من خلالها وتفانى فى عمله فيها لتنمو تجارته يوما بعد يوم ، فقد ركبته الوساوس وصرح له بأنه يخشى أن يأتوا فيقتحموا الوكالة ويستولوا علي ما فيها .

بعد سنتين من الرحلة إلى المحروسة عاد الشيخ محمد فى اجازة الى الفرما ، لم تصدق أمينة وهى تراه أمامها وتضمه الى صدرها .أصبح عالما حقيقيا فى زيه الدينى، وهو يقبل رأسها ويديها فتفخر بهذا الإبن الذى زاد نضجا وغلما مما جعله يمتن أكثر لأبيه وأسرته ولا يبعد عنهما كانت ترقبه وهو يتجول بالفرما ويقف وسط الناس يسألونه فى كل شيء.. عن أخبار المحروسة، يستفتونه فى أمور دينهم، وكانت أحاديث عن المحروسة تنصب كلها على الأزهر وما يتلقاه من علوم

وعلى معارفه وزملائه ، ولايتطرق الى غير ذلك مما أوحى لها بأن ابنها يصب جل اهتمامه في العلم، حتي الشيخ حمزة شيخ الجامع طلب منه أن يؤم المصلين بدلا منه ، ويلقى عليهم خطبة الجمعة قائلا : نحن علمناك وأنت صغيرا والآن نتعلم منك بعد أن أصبحت كبيرا وعالما .

سأله أبوه عما يكون قد بلغه من أخبار عن الفرما وعن قدوم الفرنسيين لحفر البحر .

قال الشيخ محمد : يقولون ان المسيو دليسبس الفرنسى قد عرض الامر على أفندينا محمد سعيد باشا، ووعد بأن يساعده فى حفر ترعة تصل البحر فى الفرما ببحر السويس لانها ستعود بالخير على بر مصر، وتسير فيها البواخر للتجارة ونقل الحجاج الى الاراضى الحجازية بدلا من السير بالجمال فى الصحراء ، وقد بعث بالرجال لمعاينة المكان وقيل إن بعض الأعراب طلعوا عليهم ليمنعوهم .

قال له إدريس : وكيف يأتي الخير علي يد الفرنسيين إذا دخلوا الفرما أغرقت المياه الارض. نحن الذين وقفنا عندما جاءوا الى الفرما وليس الاعراب كما قيل لك. انتابت الدهشة الشيخ محمد من حديث اخيه، وسأله: لماذا ؟ وكيف ؟

قال ابوه : اسأل شيوخك فى الازهر ما ذا فعلوا عندما دخل الفرنسيون الأزهر بخيولهم وبنادقهم أيام بونابرت ، فما بال الفرما عندما يدخلونها ، أم أنهم يفكرون فى الفرما بصورة أخري غير ما جرى فى المحروسة .

حار الشيخ محمد ولم يعرف بما يرد ، وهو الذى حمل العلم والمعرفة فلم يجد فيهما اجابة .أيقول لأبيه إنهم أبلغوا الأزهر لينوروا العامة بأن المشروع سيعود بالخير على بر مصر ، ويخدم حجاج بيت الله الحرام ويوفر عليهم مشقة السفر. فكر قائلا لنفسه: المحروسة غير الفرما، وأهلها يفكرون فى الأمور بطريقة مختلفة. ودعا فى سره أن يفعل الله ما فيه الخير .

أخذ أبوه بعد ذلك يشرح له وجهة نظره ونظر أهل الفرما. وقال له ، أقول لك ذلك حتى تعرف ما يحدث بالضبط ، وتكون لسان حالنا فى المحروسة إذا لزم الأمر. فكما عرفت من كلامك أنهم لن يتراجعوا عما هم مقدمون عليه دون أى اعتبار لأهل الفرما .

قال له الشيخ محمد : هذا صحيح ياوالدى ، ثم تشجع قائلا : بل انهم أقنعوا شيوخ الأزهر بأن هذا المشروع سيعم بالخير علي بر مصر، وهم يدعون لأفندينا أن يسدد خطاه .

أخذ السيد القبوطي يشرح لابنه الأخطار التى تهدد أهل الفرما بدخول الاغراب الفرنسيين إليها والتحكم فى أهلها ، بل والتحكم فى مصر كلها، وهم بالطبع يوهمون سعيد باشا بأبنهم سيأتون بالخير، الذين سيستأثرون به لاستعباد أهلها وإلى أن يكتشف ذلك يكونون قد تمكنوا منها .

كان الشيخ محمد يفكر فى كل ذلك أثناء إقامته في الفرما ويستلهم من أبيه صواب الرأى ليعينه على مهمته الصعبة التى تنتظره ، لم يكن يتصور أن يسبح ضد التيار كطالب علم أمام شيوخه الكبار ، لكن ذلك لم يمنعه من الاستمتاع بوجوده مع أفراد الأسرة الذين افتقد وجودهم .. أمه وجدته وجده وأخوته ، وشارك فرح الأشرة بالمواليد الجدد ، ودعا الله أن يبارك فيهم ويعمر بهم الفرما كما تمنى جده وأبوه ، إذ كان جده وجدته يجلسان والصغار يحيطون بهم والفرحة تطفر من وجهيهما ، وهما يجلسانهم علي ارجلهما ويطعمانهم مثلما كان يراهما يفعلانه مع زاهية وضاحى .

كانت زاهية تزاحم الصغار لتجلس في مكانها بجوار جدها، فيقول لها : لقد شغل الصغار مكانك يازاهية الآن أصبحت عروسا .

فتقول محتدة : لن يشغل مكانى أحد وسأظل دائما بجوارك .

غدا تجلسين بجوار عريسك وليس بجوار رجل عجوز مثلى .

فتقول : حتى لو تزوجت وأنجبت فسأجلس مع أبنائى فى نفس المكان..

فيضحك السيد الفرماوى وهى تصر أن تلتصق به ويرمقها بإعجاب ، فقد أصبحت صبية علي قدر كبير من الجمال الذى ورثته عن جدتها سكينة بعينيها العسليتين اللتين تشعان دفئا ، وظلت لها مكانتها الخاصة فى قلبه منذ أن كانت طفلة رضيعة ، كانت أحب أحفاده إليه وأقربهم إلى قلبه هى وضاحى ، ولم تخف

عليه نظرات الاعجاب التي تلاحقها ، ومهران الذى كان يصر أن يناديها أميرة التنيس ، فكانت تشعر أنها أميرة حقيقية ، وهى تطلب شيئا فيسارع بإحضاره ، أو يراها تقوم بعمل فيسرع لمساعدتها أو القيام به عنها .

كان قلب السيدالقبوطى قد اتسع للصبى اليتيم وأصبح كتوأم لضاحى، خاصة أن الصبى كان سريع التعلم وخلال فترة وجيزة من اصطحابه له فى البحيرة تعلم منه بسرعة ، كما كان مطيعا يلبى الأوامر وكان يجدف بالقارب فى البحيرة الى مسافات بعيدة كان يظهر جرأة ورغبة قوية فى اكتشاف عالم البحيرة بصورة تذكره بنفسه عندما كان فى مثل سنة وكان يخالف تحذيرات أبيه وإخوته الكبار، ويغافلهم ليأخذ القارب بعيدا فى البحيرة ، ومع الوقت كان الصبى يشعر أنه فرد من الأسرة لما يغمره به كبارها من رعاية وحنان .

عاد الشيخ محمد إلى المحروسة فى نهاية إجازته ، لكن ليس كما جاء، فلقد جاء محملا بالبشر والثقة وعاد بالاسئلة والهواجس، وهو يخشى أموراً تحدث تحمل شرا لأهله وللفرما كلها، فهم لايرون الأمور كما يراها الناس في المحروسة .

فى الأزهر كانت نفس الكلمات تتردد كما يتلوها أولو الأمر ، وحرص ألا تطول غيبته عن الفرما ، فعاد ورأى الحياة تسير بصورة طبيعية ، والأسرة تنتظر قدوم مواليد جدد لإخوته .

الفصل الحادى عشر

يذكر السيد الفرماوى ذلك اليوم ، كما يتذكره كل أهالى الفرما الذين كانوا مجتمعين مساء في ساحة المناخ كعادتهم عندما هبط عليهم إدريس قادما من دمياط ، أخبرهم يومها بما رآه وسمعه منذ وطئت قدماه دمياط ، فقد استشعر منذ اللحظات الأولى لوصوله أن أمورا غير عادية تحدث هناك ، فهو يعرف المدينة جيدا ، نقل الأقاويل التى تتردد هناك ، التى توقعونها طويلا.. أن ما يسمى كومبانيه قناة السويس تعتزم حفر ترعة تصل بحر الفرما ببحر السويس ، وقد صدرت تعليمات من المديرية بناء على أوامر عليا من أفندينا للعمد ومشايخ البلدان ومقاولى الأنفار ليشرحوا للناس أهمية الكومبانيه ومزايا العمل بها ، فقد جمعوهم فى ساحة المديرية ، فى حضور مندوبين من الكومبانية ، يرطنون بالفرنسية، ومعهم أشخاص يتولون ترجمة الكلام ، وأخذوا يخبرونهم بما يقولونه للناس، ومنها صرف أجور مجزيه للعاملين بدلا من تسخيرهم كما كان يحدث من قبل، لأن القائمين على الشركة اناس متمدينون يعرفون قيمة العمل ويقدرونه ولا يبخسون أى عامل أجره ، وأن كل الذين قرروا الالتحاق بالعمل من الفلاحين لم يجبرهم أحد على ذلك ، بل فكروا بعقلهم حتي يحققوا لأسرهم حياة أفضل . وأن مقاولى الأنفار يتجولون فى كل مكان يدعون الناس للالتحاق بالعمل فى الكومبانية مقابل أجور مجزية ، كما صدرت أوامر إلى مشايخ البلدان لجمع الانفار ، ونشط مقاولو الأنفار فى المدن والقرى لجمع الناس الذين يريدون الالتحاق بالعمل، فى المساجد والأسواق ، وهم يحدثونهم عن مزايا العمل فى هذه الكومبانية .

عاد إدريس سريعا الى الفرما بعدما استطاع أن يجمع كل ما أمكنه من اخبار وأخبرا أباه واهل الفرما بكل ما سمعه، وسرعان ما اجتمع أهل الفرما حول السيد القبوطي ، بينما أخذ إدريس وإبراهيم زوج فاطمة وضاحي ومهران يجوبون الفرما وشواطئها ليخبروا الناس ويجمعوهم ، وجاء صيادو البحيرة الذين استوطنوا شواطىء الفرما ، حتى بعض كبار الصيادين أحسوا بالخطر وخافوا علي نفوذهم فحضر بعضهم مع رجالهم، إذا كانت أوامر الباشا لدى الجميع لا تعني سوى السخرة ليس للافراد فقط، بل وتسخير الممتلكات أيضا واستخدام المراكب فى نقل المعدات والانفار ، هذا فى بعض الاعمال التى لم تكن تستغرق وقتا طويلا، اما فى الحفر فقد يستمر ذلك سنوات لا يعلم مداها إلا الله وسوف تنقطع بهم سبل العيش ، ولذا جاء البعض منهم كما أرسل آخرون ببعض رجالهم لاستطلاع الامر ، إمتلأت ساحة الفرما بالناس، ومرة ثانية أخبرهم إدريس بتفاصيل ماسمعه فى دمياط من أخبار .

قال إبراهيم : لو كان أفندينا قد نوى مساعدتهم لما لجأوا الى الناس للعمل معهم وإغرائهم بالأجور المجزية وحسن المعاملة كما يشيعون .

ورد احد الصيادين قائلا : إذا كان أفندينا لا يرضى عما يقومون به، هل كان يجرؤ مدير المديرية أو مشايخ البلدان على مساعدتهم؟ وماذا يمنعه من إيقافهم إذا كان لا يرضى عنهم .

قال السيد القبوطي : نحن لا يهمنا ما بينهم من خلاف أو اتفاق ، كل ما يعنينا أن ندافع عن الفرما لمن يريدها أو يريد أهلها بسوء، حتى لو كان أفندينا نفسه.

وبينما كان الرجال يحاولون تدبر أمورهم ، كانت النساء يحطن بالساحة ليستمعن الى أحاديثهم ويستعذن من الشر الآتى .

وجاءت لحظة المواجهة سريعا .. فأهل الفرما الذين كانوا يتسقطون الأخبار من دمياط ، قد علموا أن هناك استعدادات تجرى فى ميناء دمياط لاستقبال سفن قادمة من الاسكندرية تحمل رجال الكومبانية، حيث سترسو فى ميناء دمياط،

وسيكون فى استقبالهم مدير المديرية وكبارها وسيصحبونهم إلى الفرما، كان الكل مشغولاً بهذا الاستقبال الذى يرضى أفندينا ويليق بمقام ضيوفه الفرنسيين، والأهالى بدورهم كانوا ينتظرون حتي لا يفوتهم هذا الحدث .

كان رجال الفرما يجتمعون كل يوم فى ساحة المناخ، وهم يتوقعون بين لحظة وأخرى قدوم رجال الكومبانية، وكان الصيادون وهم يجوبون البحيرة يتحسبون أية حركة غير عادية، حتى نقل اليهم البعض ان هناك مراكب قادمة الى الفرما محملة بالرجال، وهم الأنفار الذين سيعملون فى الحفر. حدث هرج فى الساحة، وتعالت صيحات الرجال تتوعد القادمين، حاول السيد القبوطى تهدئة الرجال، الذين سارع بعضهم بإحضار العصى والاتجاه نحو شاطىء البحيرة. قال لهم : هؤلاء الرجال القادمون لا يملكون من أمرهم شيئا، ولا يعرفون ما ينتظرهم ، كل ما فى الأمر انهم صدقوا ماردده علي مسامعهم أولو الأمر .

قال عثمان : نذهب لنعرف منهم الأخبار، ونتحدث إليهم كى يعرفوا الحقيقة ، ربما عدلوا عما هم مقدمون عليه .

قال السيد الفرماوى: هذا رأى حكيم ، فهم مصريون مثلنا ، ولا ينبغى أن نمس أحداً منهم بسوء .

قال إدريس : هذا صحيح ، لكن ينبغى أن يكون مقصدنا هؤلاء الذين أتوا بهم ، فهل هم الذين وضعوا أنفسهم فى خدمة الكومبانية، ولا يسعون إلا وراء منافعهم من هؤلاء الأغراب ، حتى لو أضروا غيرهم .

أسرع الرجال إلى مرسى المراكب، وجفت قلوب الرجال القادمين ، لدى رؤيتهم لرجال الفرما وهم يقبلون نحوهم متحفزين ، ويطلقون صيحات الغضب ، وقد امسك بعضهم بالعصى ، أخذوا يسألونهم عما أتى بهم ويطلبون منهم الرجوع من حيث أتوا ، تقدم مقاولو الأنفار عند اقتراب الرجال قائلين نحن قادمون بعلم المسئولين وأولى الأمر . لكن الرجال اعترضوا وكادوا يشتبكون معهم .

قال إدريس للرجال القادمين جئتم تعملون بالسخرة ، كما حدث من قبل مع غيركم . قال أحد مقاولى الأنفار : بل إننا اعطيناهم أجوراً بالفعل قبل أن نبدأ العمل .

ثم استشهد بالرجال، الذين أمنوا على كلامه .

قال السيد القبوطى : هذا فى البداية فقط حتى يتمكنوا منكم ، وبعدها لن يستطيع أحد الإفلات .

صمت الرجال وهم ينظرون إلى المقاول ليجيب ، فقال : نحن ننفذ الأوامر المطلوبة منا ، إذهبوا أنتم إلى المسئولين ، وقولوا لهم ما تريدون .

قال السيد الفرماوى : لن يطأ أحد منكم ارض الفرما، فقد أرسلوكم لتغرقوها فى البحر .

قال السيد القبوطى : نحن لا نريد شرا ، ولا نود أن نؤذى أحداً ،كل مافى الأمر أن تعودوا وتبلغوا من أرسلوكم أن أهل الفرما لن يسمحوا بدخولهم ليفعلوا بها ما يشاءون .

حار القادمون فى أمرهم ولم يكن فى حسبانهم أن يشتبكوا مع أحد فعادوا الى مراكبهم وظلوا فى المرسى ، ثم قفلوا عائدين وتوقفوا عند إحدى الجزر القريبة وانزلوا الرجال وتوجهوا بالمركب الى دمياط ، وعاد رجال الفرما بعد انصرافهم إلى ساحة المناخ يترقبون أحداثا جديدة .

وفى نهاية اليوم ، وبينما كان الرجال يتكهنون بالأحداث ويحسبون الإحتمالات، كانت هناك مراكب تقترب من شاطئ البحيرة ، نزل منها رجال البوليس والدرك، تجمعوا على الشاطىء ، ثم أسرعوا نحو ساحة المناخ قبل أن ينتبه أحد من رجال الفرما، أحاطوا بالساحة، أطلقوا طلقات نارية محذرين أن يتحرك أحد من مكانه ، بينما قرقعت السياط حولهم وطالت الذين حاولوا الهرب .

خرجت نساء الفرما فزعات على صوت طلقات البارود ، حذروهن من الإقتراب فلذن بأطراف الساحة يصرخن فاسكتتهن قرقعة السياط التى طالت بعضاً منهن.

تجمع حول السيد القبوطى والسيد الفرماوى رجال الفرما وبينهم السعيد وإدريس وإبراهيم زوج فاطمة ورجال البوليس يحيطون بهم، والرجال يتزاحمون فى دائرة ضيقة ، أمرهم رجال البوليس بالجلوس على الأرض، إستطاع ضاحى

ومهران أن يتسللا من الزحام ، بينما أفسح الرجال فيما بينهم ليستطيعوا حيث أمروا أن يجلسوا القرفصاء متباعدين والسياط تنهال عليهم من كل جانب، وسط صراخ النساء.

ظلوا على هذا الوضع طوال الليل ، وقرب الفجر قيدوهم فى حبال طويلة واقتادوهم باتجاه الأشتوم ، ثم عبروا منه. كل مجموعة مقيدة معا ومعهم بعض الخفر ورجال البوليس ، بينما تعالى صراخ النساء وهن يتبعنهم حتى الاشتوم حتي رغم التهديد بأخذهن معهم ، ولسعات السياط الحارقة التى نالت معظمهن ، وكل منهن تندب زوجها أو أبيها أو إبنها .

كان بعض رجال الدرك قد بقوا فى ساحة المناخ، وأخذوا يقومون بجولات داخل طرقات الفرما التى خيم عليها سكون تام لم يقطعه سوى عويل النساء داخل البيوت، كانت مجموعة كبيرة منهن قد تجمعت حول أمينة . ومع انبلاج الصباح سكنت حركة رجال الدرك، فتسلل ضاحى ومهران محتميين بالجدران حتى طرق ضاحى نافذة وهو يهمس لأمه : إفتحى أنا ضاحى .

أسرعت لتوارب الباب فدلفا منه سألتهما : كيف أتيتما ، فأخبرها أنه هرب هو ومهران وآخرون ، واستطاعوا التسلل فى غفلة من الدرك .

قالت للنساء : سأصطحب ضاحى ومهران ، وأذهب الى دمياط إلى الحاج عبد الرحمن لأخبره بما حدث : فله معارف كثيرون ، ربما يستطيع أن يعرف منهم أين ذهبوا بالرجال .

إستحسنت النساء الفكرة ، بينما أشفق البعض عليهم من الرحلة ، إذ لا يستطيع الصبيان أن يقطعا هذه المسافة كلها فى قارب صغير، قلن لها أن تنتظر ربما تكون هناك مركب ستبحر إلى هناك ، فقالت لهن : من الذى سيذهب ، وقد راح الرجال ، بينما صرخت توحيدة أن تأخذها معها هى والأطفال ، فقالت لها أمينة : الرحلة ستكون خطراً عليك وعلي الأطفال ، عرضت عليها سكينة أن تذهب معها ، قالت لها : لقد تعودت طلوع البحيرة مع أبيك ، لكن أمينة رفضت وقالت لأمها : الأفضل أن تبقى لتراعى البيت والاسرة .

كان الصبيان يتناوبان التجديف، ثم أمسك كل منهما بمجداف ، وقد أنهكهما طول المسافة ، أشفقت أمينة عليهما فكانت تتناوب التجديف معهما حتى يستريح أحدهما ثم وصلوا في نهاية اليوم . بقى مهران فى المركب واصطحبت ضاحى. سألا عن وكالة الحاج عبدالرحمن حتى وصلا إليها .

طغت دهشة الحاج عبدالرحمن وانزعاجه على الترحيب بهما وهو يفسح لهما مكانا ، حكت له أمينة ما حدث واستمع إليها هو وأبناؤه الذين تجمعوا حوله ، أخذ يخبط كفا بكف قائلا :

يضربونهم بالسياط، حتي الرجل الكبير السيد الفرماوى .

أصرت أمينة أن تعود إلى الفرما بعد أن وعد الحاج عبدالرحمن بأن يذهب إلى زوج شقيقته ، وهو عمدة المنزلة ليعرف منه الأخبار، ومقابلة المسئولين للإفراج عنهم .

دعاها للمبيت فى المنزل ، لكنها رفضت، وأمام إصرارها طلب من إبنه الأكبر أن يصطحبهم إلى المرسى ليستقلوا مركباً كبيراً من مراكب البضائع تذهب بهم للفرما ، وأن يربطا فيها قاربهم الصغير .

تردد ضاحى فى الذهاب مع أمه حتى يتابع أخبار أبيه وينقلها لهم ، لكن الحاج عبدالرحمن طلب منه العودة لاحتياجهم إليه ، ووعد أن يرسل مصطفى ليخبرهم بما حدث، وهو يطمئنها قائلا: خير إن شاء الله .

عادت وأخبرت النساء بما حدث، عرفت منهن أن الرجال الذين سيعملون بالحفر قد جاءوا وتوجهوا شرقا وأنهم يقيمون أبنية من الخشب فى نفس المكان الذى جاء منه الخواجات عندما ذهب إليهم رجال الفرما .

انصرم النهار دون أن ترد إليهم أى اخبار ، حتى أى بعض النساء لم يجدن احداً يسألنه ، سوى رجال الدرك الذين نهروهن .

صباح اليوم الثالث جاء مصطفى وما أن رأته توحيدة حتى ارتمت على كتفه وهى تنتحب قائلة : خذنى من هنا يا مصطفى ، لا أريد البقاء دقيقة واحدة في هذه البلدة الشؤم ، طالما قلت لإدريس أن نذهب لنعيش فى دمياط.

صدمت كلماتها أمينة في خضم الأحداث ،ولم تستطع بعد ذلك ان تزيل غبار ما حدث في ذلك اليوم الذى ترك مرارة لا تستطيع أن تمحوها فى علاقتها بكنتها، أحست أنها غريبة عنهم بهذا القدر، وأن ظل ذلك دفينا فى نفسها ، حتى مصطفى نفسه شعر بالحرج وأزاحها برفق قائلا : إنتظرى حتى أتكلم إلى حماتك أولا ، فتركته لتقوم على الفور بجمع ملابسها وحاجاتها هى وطفليها .

أخبرها مصطفى أن أباه قد توجه إلي خاله عمدة المنزلة وطلب منه السعى للإفراج عن رجال الفرما، ومعرفة أين هم الآن ، وقد جاء خاله مع أبيه الى دمياط ، وذهبوا الى حكمدار البوليس ، وعرف انهم احتجزوهم فى مكان قرب الجرابعة وأنه سيتم نقلهم الى السجن فى دمياط ، وأخبرهم حكمدار البوليس ان هناك تعليمات مشددة من أفندينا أبلغ بها مديرى المديريات بأن يضربوا كل من يعترض على الحفر ، ولن يفرج عنهم حتى يكفوا عن أفعالهم .

قالت أمينة : نود أن نعرف أين هم ، نريد أن نطمئن عليهم.. من يدرينا ما حدث لهم فى الحبس، إذا كانوا قد ضربوهم أمام أعيننا ولم يرحموا صبيا أو شيخا .

تعالت صيحات النساء اللاتى جئن يستطلعن الأخبار وهن يبكين ويولولن، ومصطفى يحول تهدئة أمينة قائلا : تعرفين منزلة عم الفرماوى وعم القبوطى لدى أبى ، هو نفسه لم يهدأ له بال منذ سمع الخبر ، والمسألة مسألة وقت ، فهم يريدون أن يتأكدوا أنهم لن يتعرضوا لرجال الحفر الذين تستخدمهم الكومبانية لأن أفندينا يشمل الكومبانية برعايته .

ركبت رأس أمينة الوسواس لمعرفتها بهذا الشرط ، فهى تعرف زوجها وأبيها حق المعرفة ، ولن يثنيهم شيء عن الوقوف لرجال الحفر، وفى نفس الوقت الذى كانت تفكر فيه بذلك، كانت توحيدة قد انتهت من ارتداء ملابس الخروج وهى تحث مصطفى على الذهاب مما أحرجه أمام أمينة والنساء الموجودات فاضطر أن ينهرها ثم قال لأمينة : أعذريها يا ست أمينة .

قالت أمينة : واعذر نساء الفرما كلهن .

- استأذنك في اصطحابها لأن والدتها قلقة عليها، ويبدو أن وجودها مثار قلق أكثر لكم ، قال ذلك محرجا بعد كلمات أخته التي لعنت اليوم الذى جاءت فيه الى الفرما .

خلال الأيام التالية لم ينقطع وصول عمال الحفر الذين كانوا يأتون كل يوم ، ليس عن طريق البحيرة فقط وإنما سيرا على الأقدام من جنوب البحيرة، أقاموا أبنية خشبية كى يبيتوا فيها ويضعوا المعدات التى أرسلتها الكومبانية ، كان بعض الصبية والشباب الصغار يتسللون عن قرب لمعرفة ما يجرى، ورغم أن رجال الدرك قد ابتعدوا عن شوارع الفرما سوى من بضعة أفراد فى ساحة المناخ إلا أنهم كانوا يمرون بدورياتهم ليلاً حول المناخ خوفا من تسلل شخص ما لإشعال الحرائق أو إحداث ضرر فى ساحة الحفر رغم غياب معظم رجال الفرما .

اتخذن النساء مجلسهن في ساحة المناخ مكان الرجال، كن يتجمعن يوميا لتسمع الاخبار ومعرفة ما يجرى حولهن ويواسين بعضهن البعض، حتى نقل اليهن بعض الصبية أخباراً عن الاحتفال ببدء أعمال الحفر، حيث يأتى المسئولون والنظار والخواجات أصحاب الكومبانية التى ستقوم بالحفر، قالت أمينة للنساء : اذا لم يتم الإفراج عن الرجال فسوف نذهب ونحوله الى مأتم .

أوصت الصبية بتسمع الأخبار بحذر كى لا يتعرضوا للأذى ، فكانوا يتحدثون الى العمال واحيانا يحملون اليهم الماء وبعض الأطعمة متظاهرين ببيعها حتى عرفوا إلى أن المركب الذى سينقل الخواجات قد وصل إلى دمياط ، وسيصل صباح الغد ليبدأ الاحتفال ، كما شهدوا إعداد الموقع وتنظيمه إستعداداً للحفل .

فى صبيحة اليوم التالى، شهدوا عدة مراكب تسير بمحاذاة الشاطىء ثم تبطىء لترسو على الشاطىء أمام ساحة الحفر وينزل منها بعض الخواجات يصحبهم بعض المديرين والنظار .

لم يعرف أهل الفرما كيف كانت تسير الأمور بالنسبة للحفر أو للحفل الذى أقيم وحضره المساهمون فى الكومبانية ، ولا الخطبة التى ألقاها المسيو دليسبس واشاد فيها بالشركة وما ينتظر المساهمون من أرباح أو الدعم الذى يقدمه أفندينا

سعيد باشا والى مصر ، أو حتى ما قاله عن حماس العمال المصريين الذين لا يتجاوز عددهم المائة وقد وقفوا بعيدا خلف صف من مشايخ البلدان ومقاولى الأنفار لايدرون ماقيل عنهم، أو عن الرخاء الذى سيعم الجميع.. عندما تناهت اليهم من بعيد أصوات صراخ ، ولا يدرى أحد من الذى فسره أن نساء الفرما يعبرن عن فرحتهن بطريقتهن بينما كان رجال البوليس والخفر يتعقبونهن بالكرابيج وهن يجرين فى كل اتجاه مستمرات فى الصراخ ، والدعاء والسباب حتى عدن إلى بيوتهن منهكات .

الفصل الثانى عشر

خلال الأيام التالية لم يكف ضاحى ومهران عن الذهاب إلى دمياط لتسقط الأخبار من الحاج عبدالرحمن وصهره ومعرفة ما تم، وقد صمم ضاحى فى إحدى المرات على أن يرى أباه بنفسه ليطمئن عليه بعد أن عرفوا أنه فى سجن دمياط . وعده الحاج عبدالرحمن ان يبذل محاولة عندما يأتى فى المرة التالية بعد أيام قليلة لرؤيته ، ونجح العمدة سليم شكيب صهر الحاج عبدالرحمن فى مقابلة حكمدار البوليس وتحديد موعد للزيارة ، بعد أن أاقنع العمدة الحمكدار بأنه سيحاول تهدئة الموقف .

ومنذ عادت توحيدة إلى دمياط وهى تندب حظها . وأمها دائمة الإلحاح على أخيها العمدة للإفراج عن إدريس زوج ابنتها ، ولم يشأ الحاج عبدالرحمن توسيع دائرة الخلاف مع زوجته التى تتحدث عن سوء حظ ابنتها التى تزوجت فى بلد الغربة ، وتقديرا لظروف إبنته من ناحية أخرى .

جاء اليوم المحدد للزيارة ، واصطحبوا ضاحى إلى المكان الذى احتجز فيه الرجال ، وهو مبنى قديم من طابق واحد محاط بالحرس. قدموا الخطاب الذى أتوا به من حكمدار البوليس فى دمياط، وأوضحوا للضابط أنهم يريدون تهدئة الموقف ، فأمر بإحضار السيد القبوطى . جاءوا به بعد قليل مكبل اليدين . إنحنى ضاحى عليهما يقبلهما ، وأبوه يربت على رأسه .

هالت الحاج عبدالرحمن الهيئة التي وجد عليها السيد القبوطى . إذ كان جسده مثخنا بالجروح وآثار السياط ، وقد تمزقت ثيابه. انفطر قلبه علي الرجل وهو يعانقه . لكنه جلس شامخا كعادته ، سأله الحاج عبدالرحمن عن الأحوال

فربت على يديه مبتسما كأنه هو الذى يواسيه قائلا : كما ترى ياحاج .

قال له العمدة : إن شاء الله شدة وتزول ، لكن ما حدث قد بلغ مسامع افندينا وهو لا يريد ان يتعرض أحد لضيوفه الفرنسيين لأنهم فى حمايته.

قال السيد القبوطي : هو يحمى الأغراب الفرنساويين ويهين أهل البلد .

رد العمدة قائلا : لأنكم تعرضتم لهم ، وهذا يحرج أفندينا .

– وهل يرضيك أن يستولى هؤلاء الاغراب على الفرما وأن يشردو أهلها . فهؤلاء لن تهمهم مصالح العباد .

قال العمدة : هؤلاء الفرنسيون لم يأتوا ليحتلوا الفرما ولم يحضروا معهم المدافع ولا البارود وإنما أتوا لحفر ترعة كى تسير فيها السفن ، ولإنشاء ميناء فى الفرما يكون أحسن من ميناء دمياط نفسها . والمسيو دليسبس ، صديق أفندينا ، وهو رجل متمدين استعان به افندينا وبر أيه السديد من أجل نقل المدنية لبر مصر كلها ، وهو قد تعهد أن يتعامل بالمعروف ويعطى العمال أجورهم .

قال السيد القبوطي : وطبيعى أن يظهروا فى البداية انهم أناس أوادم حتى يتمكنوا ، وبعدها لن يكون لأحد رأى فيما يجرى عليهم بما فيهم أهل الفرما .

قال العمدة : بصراحة ، لن تستطيع أنت وأهل الفرما الوقوف أمامهم ، فالعمل في الحفر قد بدأ فعلا. لن يستطيع أحد أن يوقفه ، والمسئولون وأولو الأمر لن يسمحوا أن يقف أحد أمام رجال الكومبانية او يعطل العمل والرجال الذين حولك لن يستطيعوا ان يصمدوا طويلا بعدما لاقوه من بهدلة ، وبعد توقف حالهم وقطع عيشهم تاركين الأطفال والنساء وحدهن بلا سند . والأمر سيطول. فكر بهدوء وربنا يعمل ما فيه الخير . وأنا من جانبى ، إكراما لك وللحاج عبدالرحمن، سوف أبذل كل جهدى .

قال له الحاج عبدالرحمن وهو يودعه : قلبى معك . أنا أعرف مايدور بعقلك وقلبك الملىء بالايمان ، وأعلم انك ترى ببصيرتك ما لايراه الآخرون .

كانت توحيدة مازالت تندب حظها الذى أوقع زوجها بالسجن. إذ كانت تتصور أن أباها وخالها سوف يعودان بإدريس معهما او بأخبار عن قرب الإفراج عنه .

إختلت أمها بشقيقها جانبا وطلبت منه السعى للافراج عن ادريس بأي شكل قالت له :

البنت ستضيع منى ، فقد زهدت الزاد ونشف عودها وربما تقع مريضة .

قال العمدة : تعرفين رأى الحاج عبدالرحمن. لن يغفر لى إن سعيت من أجل إدريس دون والده وجده وأهل الفرما ، ماذا سيكون وضعى أمامه .

قالت له كى تقنعه :"كي يرعى شئون أسرته وأهله حتى يفرج عنهم جميعا.

ولم تتركه حتى وعدها بذلك . بل إنه إعتقد أن إطلاق سراح إدريس سوف يؤدى إلى اطلاق سراحهم تباعا . .

في الفرما ،سارت الأمور بصورة أخرى . فعندما عاد ضاحي وأخبرهم بما حدث دون وعود محدودة بالافراج قريبا، طلبت أمينة من النساء أن يكففن عن الندب ، حتى لا يأتي الوقت الذى لا يجدن فيه ما يقتتن به هن وأسرهن ، وأن يقمن بعمل الرجال لحين عودتهم . ترددت بعضهن فى البداية ، ثم أقبلن على العمل متشجعات ببعضهن البعض ، وقامت هى على الفور بفتح الوكالة والمخازن ، وأمدت النساء باحتياجاتهن من الحبوب والبضائع التى كان يحصل عليها أزواجهن ، وأرسلت ضاحى ومهران إلى الحاج عبدالرحمن وغيره من التجار الذين كان يذهب اليهم السعيد وزوجها وأبيها من قبل . فتحت الدكاكين فى الفرما، وساعد الصبية والشبان النساء فى العمل ، بل إن بعض زوجات الصيادين أخذن القوارب وطلعن للصيد فى البحيرة ، كن يشجعن ويساعدن بعضهن البعض ويستشرن بعضهن فيما يعترضهن من مشاكل، وهن يعملن بهمة ليعوضن غياب الرجال . وبدأت الحياة تدب فى الفرما بعد أن توقفت طويلا .

وفى الأمسيات ،كن يتجمعن فى ساحة المناخ ليتشاورن فى أمورهن ويتابعن الأخبار ، كن يشاهدن المراكب في المالح وهى تروح وتجيء أمام أعينهن ، وقوافل العمال وهى تتوافد على ساحة الحفر ، كان بعض الصبية يقتربون من العمال يتحدثون اليهم ليستقصوا الأخبار ، ومنها نقص مياه الشرب والطعام . وعلموا ان لكل فرد منهم نصيبا يوزعه عليهم مقاولو الأنفار، فيتدافعون عليه، ولا يستطيع

الواحد منهم أن يحصل علي نصيبه كاملا. وأحيانا ينشب الشجار بسبب ذلك . كما أنهم يقومون الآن بحفر آبار للحصول علي المياه ، لأن المياه التى تنقل إليهم فى فناطيس كبيرة لا تكفى حاجتهم، وأن بعضهم ممن أمضى مدة العمل المحددة سوف يعودون الى قراهم ، وسيأتى غيرهم مع مطلع الشهر الجديد . وخلال ذلك ، لم يكف ضاحي ومهران عن التردد علي دمياط لمتابعة الأخبار ، ومساعدة أمينة ونساء الفرما اللاتى يحتجن إلى مساعدتهما ومساعدة غيرهم من الفتية . لم تكن هنا ، بخلاف التمنيات والوعود المتكررة عقب كل زيارة الى المسئولين يقوم بها الحاج عبدالرحمن وصهره العمدة ، أية بادرة جديدة توحى بالإفراج عن الرجال.

بعد شهر ، نجحت مساعى العمدة فى الافراج عن إدريس ، الذى عاد إلى بيت الحاج عبد الرحمن ، وكان فى حالة زرية وقد بدا عليه الاجهاد ، مما جعل قلب الحاج عبدالرحمن ينفطر علي حال الرجال خاصة السيد الفرماوى لكبر سنه ، قال لإدريس انه لن يهدأ له بال حتى يتم الافراج عنهم. اطمأن إدريس على توحيدة وأبنائه ، وقال إنه سيذهب الى الفرما فى الحال. بكت توحيدة وهى تتشبث به كي يبقى معهم أو يبيت فى دمياط ويذهب إلى الفرما فى الصباح ، لكنه أصر . وأمام تشبثها نهرها أبوها قائلا : لقد اصبحت أماً وإمرأة والمفروض أن تكونى مسئولة، وأن تقفى الى جوار زوجك وأهله فى محنتهم بدلا من الالتصاق بأمك كطفلة. ثم التفت إلى ادريس قائلا: لا تنعى همها هى والأطفال ، توكل على الله وعد إلى الفرما ، فهم في حاجة اليك .

كان الحاج عبدالرحمن يخشى أن يقال إنه قد سعى للإفراج عن إدريس لأنه زوج إبنته ، دون رجال الفرما ورجال أسرته . لم يستطع ان يتحدث إلى ادريس فى هذا الأمر ، ولم يخف عليه أن الإفراج عن ادريس هو كل مايهم زوجته وإبنته . وأن العمدة سليم شكيب، صهره الشركسى الأصل، له كلمة مسموعة لدى أولى الأمر . وفور ذهاب إدريس توجه إلى العمدة للإستفسار عن مصير باقى الرجال .

طمأنه العمدة قائلا : المهم أن يفرج عن أى واحد منهم ليكون بداية للإفراج

عن الباقين وقد بذلت قصارىَ جهدى . تعرف أننى قد سعيت عدة مرات لمقابلة المسئولين فى المديرية وحكمدار البوليس ، ورجوتهم بكل الطرق ، حتى أننى أوضحت لهم ما سيجره ذلك من متاعب لهم ، لكنهم يظنون أن الإفراج عنهم سوف يعيدهم الى سيرتهم، وان ذلك سوف يسبب مشاكل للكومبانية. والسيد القبوطى رأسه صلب وله تأثير علي رجال الفرما، وهذا سوف يضعف وضعهم أمام نظار المحروسة وافندينا الذين يقدمون كل العون للكومبانيه والمسيو دليسبس.

قال الحاج عبدالرحمن : أسمع يا عمدة ، السيد القبوطى قبل أن يكون صهرى فهو صديقى ، وهو رجل من خيرة الرجال، أنا أثق فيما يراه، فهو سديد الرأى لا يدفع بنفسه أو بأهله إلى التهلكة ، و قد فعل ما فعله ليدفع أمرا يلحق الضرر بهم. وهو يرى ما لا يراه الآخرون .

قال العمدة : أعرف مكانته عندك ، ويعلم الله مدى تقديرى لهذا الرجل منذ رأيته . لكن ماذا أفاده ذلك الآن غير الإهانة وقطع عيشهم وتشريد أهاليهم . لكن فى النهاية من هو حتى يستطيع هو وبضعة رجال معه أن يقفوا أمام رجال الدرك فما بالك بأفندينا نفسه. لقد جاءتنا تعليمات بحشد الرجال للذهاب للحفر . وهذه ليست أول مرة . فقد حفروا قبل ذلك ترعة الإبراهيمية ، وعملوا فى خط سكة حديد الاسكندرية ، على الأقل الكومبانية تصرف رواتب للعمال وكثير منهم فلاحون يرون النقود لأول مرة. عليه أن ينظر للأمام ويلتفت إلى تجارته وتوسيعها لأن الفرما سيؤمها أناس كثيرون وسيعم الخير علي الجميع . وقد أفهمت زوج إبنتك ذلك .

الفصل الثالث عشر

لم يصدق أهل الفرما عيونهم وهم يرون إدريس أمامهم . منذ هبط من المركب على شاطىء البحيرة فى الفرما، تجمع الناس حوله يهنئونه بسلامة الوصول ويسألونه عن الرجال ولماذا لم يفرج عنهم مثله . طمأنهم بقرب الإفراج عنهم. أثارت كلماته ردود فعل متباينه ، فبينما اعتبر البعض الإفراج عنه مؤشرا للإفراج عن بقية الرجال، شعر البعض الآخر ، خاصة أقارب وأسر الرجال المحبوسين، بخيبة أمل ، وبأن الوقت قد يطول قبل الإفراج عنهم ، وأخذوا يسألونه عنهم وعن أحوالهم وهو يطمئنهم أنهم بخير . كانوا فى حاجة إلى سماع أخبار مؤكدة ، وظلوا يلاحقونه حتى اقترب من الدار محاولين تلمس أى أمل من كلماته .

خرجت أمينة لملاقاة ابنها . وزاهية وعائشة فى أعقابها . استقبلته فى لهفة وهى تضمه إليها ودموعها تسيل، وهو يقبل رأسها ويدها. قالت له : كيف حال جدك وأبيك وكل الرجال ... متى سيعودون ؟

قال لها سوف أبذل كل جهدى حتى يعودوا قريبا .

جاءت سكينة فى خطوات متعثرة واندفعت نحوه وهى تسأله : كيف حال جدك يا إدريس ؟ إحتضنها وهو يربت عليها قائلا : بخير، والكل يقومون برعايته .

رغم ذلك ، ظلت تكرر السؤال والهواجس تطاردها .. إن السيد الفرماوى فى كرب وإدريس يدارى عنها ذلك ، وصورة ذلك الكابوس تجثم على صدرها ، مما جعلها تقوم من النوم فزعة وهى ترى جدران البيت تنهار فوقها وتطبق عليها، تحاول أن تلتقط انفاسها فيمتلىء صدرها بالغبار ويغشى عينيها .. تسمع اصواتا وحشية وتلمح وجوه نساء الدار تتمايل حولها من خلال الغبار ، تحاول أن تنادى

السيد فلا يخرج صوتها ، وتمسك النساء بأطرافه ويتكالبن عليه ، يلتهمنه أمام عينيها . قامت من النوم فزعة وهى تطلق صرخة أيقظت كل الموجودين فى البيت والبيوت القريبة فجاءوا مستطلعين ، وهى تستعيذ بالله وتردد : السيد بعافية.. لابد أن مكروها وقع له .

ظل هذا الكابوس يطاردها بين فترة أخرى ، ويخلف لديها احساسا بالوحشة والفزع . ويملأ رأسها بالوساوس فتخشى الا ترى السيد ثانية ، حتى إنها وأمينة كانتا تتبادلان دور الأم والإبنة . فكانت أمينة تخفف عنها وتطيب خاطرها رغم أعبائها . تتعجب من تلك المشاعر الفياضة من أمها تجاه أبيها ، كأنها صبية فى مقتبل العمر وليست إمرأة عركت الحياة وعركتها .

بعد مجىء إدريس حاول أن يبعث الطمأنينة فى نفوس النساء ، وهو يعدهن بقرب الافراج عن الرجال . لكن أمينة لم تجد فى كلامه دليلا مؤكدا وبدأت الوساوس تلعب برأسها ، حتى إنها قالت له بعد أن انتحت به جانبا : لقد أفرجوا عنك إكراما لعيون نسايبك ، لكن ماذا يهم نسايبك بعد ذلك ؟

قال إدريس : أنت تعرفين مقدار أبى وجدى لدى الحاج عبد الرحمن ، ورجوعى لا يهمه قدر رجوعهما . ولن يهدأ له بال حتى يتم الإفراج عنهما. هما سائر رجال الفرما .

قالت له : لكنه لا يهم بالمرة الهانم زوجتك وأمها وخالها . زوجتك أظهرت ما بداخلها وقت الشدة . رمتها فى وجوهنا .. وقالت بلدكم شؤم ، ورحلت كأنها لا تمت لنا بصلة ، ولم تأكل معنا عيشاً وملحاً ، وكأن أولادها ليسوا أولادنا .

ضيق أمينة هو الذى جعلها تتعرض لكنتها هكذا لأول مرة ، رغم أنها كانت تتغاضى عن سلوكها ، ولم تحاول أن تتعرض لها حتى لا تعكر علاقته بزوجته ، إكراما للعلاقة التى تربط بين الرجال .

ظل إدريس ساهما إحساسه بالذنب يتزايد ، ليس لمجرد الإفراج عنه دون بقية الرجال، بل أيضا لما يتعرض له الرجال فى الحبس من ضرب وإهانة مستمرين ، ومن قلة الزاد ، حتى إن جده سقط بينهم بالحمى ، رغم توسل الرجال فى طلب

المساعدة من الحرس حتى لا يموت وسطهم ، حتى أنهم كانوا يوفرون له جرعة الماء، ولا يتناولون سوى ما يرطب حلوقهم حتى يبللوا جبهته وصدره . لم يشأ إدريس ، أن يحكي كل ذلك ، وهو يحاول أن يطمئنهم.

أحست امينة انها قد اندفعت فى حديثها وهى ترى إبنها وقد خيمت الهموم علي وجهه وروحه وجلس ساهما كشيخ هرم ، أوجع قلبها . لم يكن هو إدريس الذى كانت ضحكته تجلجل في ساحة المناخ .

وجد إدريس العمل بالوكالة يمضى كما هو . وأمه تقوم باخراج حصة التجار المتعاملين معهم مثلما كان يفعل أبوه ، وتعطيها لزوجاتهم ، بل أنها دأبت على ذلك إذ كانت تعطى نساء أخريات من زوجات الصيادين حصة يقمن ببيعها في بعض الأماكن التى يترددن عليها حول البحيرة ، وأخبرته أن ضاحى ومهران يذهبان الى دمياط لإحضار أجولة الحبوب من التجار الذين يتعامل معهم أبوه ، ومنهم الحاج عبدالرحمن ، وأنها قد سددت الثمن .

فى صباح اليوم التالى شد إدريس الرحال إلى دمياط ، بعد أن ودع أمه ، طلب منها أن تدعو له بأن تسدد خطاه ، وهو يستعرض فى ذهنه كل من يمكنهم مساعدته من معارفه ومعارف أبيه وجده وأصهاره ، وهو يفكر فيما يتعرضون له فى الحبس .

بعد أن ودعت أبنها بالدعوات ، قامت أمينة بفتح الوكالة وبدأت يوم العمل ، تاركة أمها فى رعاية زاهية ، مطمئنة إلى قيام عائشة بإدارة شؤون البيت ورعاية الاولاد على خير وجه ، كن يجهزن الطعام بكميات كبيرة كل يوم حيث تعودن النساء أن يتناولن الطعام معا فى نهاية اليوم فى ساحة المناخ بعد الانتهاء من أعمالهن .

خرجت زاهية بعد انصراف أمها لتجلب الماء من البئر ، أدلت السطل لتملأ الموردة ثم ملأت الجرة ، وبينما كانت تهم بحملها فوجئت بشخصين غريبين أمامها ينظران اليها ، توجست لمرآهما بهيئتهما الغريبة . حملت الجرة كأنما تحتمى بها، تراجعت للخلف بضع خطوات . وإذ بهما يقتربان منها ويتكلمان

كلمات غير مفهومة ثم يحيطان بها ويمسك بها أحدهما ، أطلقت صرخة عالية . وحاول الآخر أن يكمم فمها ، أنشبت أظافرها في وجهه فركلها بقوة . أفلتت من الآخر ووقعت على الأرض وتعالي صراخها ، ففرا هاربين ..

سرعان ما جاء الناس على الصراخ وامتلأت بهم ساحة المناخ، وزاهية مستمرة في الصراخ وهي ملقاة على الأرض، وتشير إلى الاتجاه الذى ذهب منه الرجلان وسط كلمات متناثرة، فأسرع الشبان إلى الاتجاه الذي أشارت إليه. لمحوهما يسيران عن بعد فأسرعوا جريا في أعقابهما . حاول الرجلان الجرى ثانية عندما لمحا الشبان يقتربون منهم . لحق مهران بأحدهما وجذبه على حين غرة فأوقعه أرضا وركله ، لكن الرجل كان أطول وأقوى بنية من مهران، فنهض وسدد إليه لكمة قوية أطاحت به وأوقعه وانهال عليه بقبضتيه . لحق به الشبان وتكاثروا عليه وأوسعوه ضربا، بينما حاول بعض منهم اللحاق بالآخر، ولم يتمكنوا من اللحاق به وهو يتجه إلى هناجر الكومبانية ويدخل أحدها . تركوا الأول ملقىً على الأرض والدماء تنزف من فمه، ثم عادوا إلى الفرما.

غسلت أمينة جراح مهران وضمدتها، ثم قالت لضاحي: إجمع الشبان كلهم كبارا وصغارا، وغادروا الفرما فورا.

إجتج ضاحي قائلا: كيف نذهب، وهم بالتأكيد سيعودون ليهاجموا أهل الفرما.

صاحت قائلة: لا وقت للكلام. غادروا الفرما فوراً. خذوا زاهية معكم، أوصلوها حتى بيت فاطمة.

قامت على عجالة ، أحضرت كمية من الزاد ربطتها في صرة، ومثلها فعلت النساء، أخرجن ما لديهن من طعام للشبان ودفعوهم للذهاب، فاتجهوا جنوبي الفرما بمحاذاة شاطئ البحيرة . وأوصلوا زاهية إلى بيت فاطمة، ثم اتجهوا إلى الشاطئ. استقلوا بعض القوارب وتطوع الصيادون المتواجدون على الشاطئ بتوصيلهم إلى المكان الذي يريدون. لم يعرفوا أين يتجهون. واقترح البعض الذهاب إلى إحدى الجزر في البحيرة، لكنهم استبعدوا الفكرة لأن من السهل تتبعهم في البحيرة، وأخيراً قرروا الاختفاء وسط أحراج البوص والهيش جنوبي

البحيرة.

وصلوا بعد مشقة وهم يتناوبون التجديف ويسابقون الوقت. كان عددهم نحو العشرين شابا وفتى عندما وصلوا تركوا القوارب كي يبحثوا عن مكان آمن مناسب ، وعاد الصيادون . الذين أوصلوهم وبقيت القوارب الأخرى المملوكة لبعضهم. كانت المياه ضحلة وموحلة غاصت فيها أقدامهم وهم يسيرون بحذر ويتشبثون بعيدان البوص فتميل بهم حتى بدأت الأرض تتماسك تحت أقدامهم. إكتشفوا تلك الجزيرة وسط البوص، سحبوا القوارب قريباً منها وأهالوا عليها البوص والهيش. كانت الأرض رطبة، فأمالوا العيدان وسووها بالأرض لتحميهم من الرطوبة ثم استقروا فوقها محتمين بالبوص.

فى ذلك الوقت ، كانت النساء يتدبرن أمرهن، وهن يتوقعن مجئ رجال الدرك بين لحظة وأخرى. كن يخشين الاعتداء عليهن، فهن لا يعرفن هؤلاء الغرباء ولا كيف يفكرون. أعدت بعضهن العصى والسكاكين مثلما فعل الرجال من قبل وأخفينها فى طيات ثيابهن وهن يتصورن أن هذين الغريبين ربما يحضران زملاءهما للاعتداء عليهن.

قالت لهن أمينة: ينبغى ألا تتجمعن هكذا فى مكان واحد.

فاقترحن أن يتجمعن فى البيوت المحيطة بالساحة، كل مجموعة منهن فى بيت على أن تظل الأبواب مواربة، وهن يطللن من خلالها ليرقبن الساحة ويستطلعن الأمر.

جاء مندوب الكومبانية ومعه الرجلان وقوة من الشرطة ومترجم. كان الرجل الذى ضربه الشبان يشير إلى الموردة حيث رأى زاهية، ثم أشار إلى الوكالة، والمترجم يقول: إنهما جاءا ليبتاعا طعاما هو وزميله. فصرخت فتاة كانت تقف عند الموردة لمرآهما فتجمع شبان من هذه البيوت واعتدوا عليهما.

طرقوا الأبواب، فخرجت النساء بحذر وسألهن الدركى: أين هم الشبان الذين اعتدوا على هذين الرجلين:

قالت أمينة: الشبان والرجال كلهم فى الحبس.

– لكن هناك شباناً اعتدوا على هذين الرجلين.

تكلم الرجل المضروب فقال: كانت هناك بنت تقف عند الموردة ، وهى التى استدعت الشبان الذين اعتدوا علينا.

قالت أمينة: أى بنت تلك التى تتحدث عنها؟

أزاحها رئيس الدرك، وأشار للرجال قائلا: فتشوا الفرما شبراً شبر حتى تعثروا عليهم.

إقتحموا البيوت والمتاجر وبعثروا محتوياتها من متاع وأثاث وخزين، وتعالى صراخ النساء وتحولت الفرما إلى مناحة.

لكن لم تكن هناك أوامر بالقبض على النساء.

الفصل الرابع عشر

لم يهدأ لإدريس بال وهو ينتقل ما بين الفرما ودمياط والمنزلة وشربين وشطا ودميرة لمقابلة المسئولين وأولى الأمر ومشايخ البلدان كما أوصاه خال زوجته ، مناشدا إياهم أن يقولوا كلمة طيبة فى حق رجال الفرما المحبوسين، مؤكدا أنه إذا تم الإفراج عنهم فلن يصدر منهم ما يسئ إلي الكومبانية ورجالها. ولم يكن الأمر سهلا، فقد أحجم الكثيرون تخوفا من هؤلاء الرجال البائسين الذين تحدوا أوامر أفندينا سعيد باشا نفسه، فكيف لهم أن يقفوا معهم وهم أنفسهم لا يجرأون على التفوه بكلمة فى حق أولى الأمر ناهيك عن أفندينا، فهم مشغولون حسب الأوامر، بشرح مزايا العمل بالكومبانية لأهالى القرى، ومساعدة مقاولى الأنفار الذين يجوبون البلاد يجمعون الأنفار للالتحاق بالعمل فيها، بل أن البعض قد تحاشى لقاءه رغم توصية خال زوجته.

ها هو العمل فى الحفر يمضى حثيثا. لو خرج الرجال سيفاجأون بذلك، ولن يستطيعوا الاعتراض أو الوقوف أمام ما يحدث. فعندما خرجوا لملاقاة الرجال الأغراب فى صحراء الفرما، وجدوهم بضعة رجال يمتطون الجمال يصحبهم بعض المصريين ومعهم الأدلاء البدو، ورغم اللهجة الآمرة التى ردوا بها على رجال الفرما، كان الذعر يبدو عليهم، وسرعان ما نكصوا عائدين .

أما الآن ، فقد جاءوا بأعداد كبيرة، ومعهم عمال أجانب، وجلبوا المعدات وأقاموا تلك الهناجر، والعمل يمضى. والدعاية الواسعة التى قامت بها الكومبانيه، ونشاط مقاولى الأنفار ومشايخ البلدان . لن يستطيع، مهما قال لأبيه، أن ينقل إليه ما سمعه مما يردده الناس عن مزايا العمل فى الكومبانية، وعن الخير الذى سيعم

عليهم، فأبوه لا يرى فى ذلك إلا شراً حل بالفرما، بل وبر مصر كله . كان إدريس يفكر فى كل ذلك، ويقول لنفسه إنه لا جدوى من الحديث.. لكن المهم أن يفرجوا عنهم، وسوف يرون كل شئ بأنفسهم، ولن يجرؤ أحد على الاعتراض أو الوقوف أمام ما يحدث.

عندما عاد إلى العمدة خال زوجته وأخبره بخيبة مسعاه لدى مشايخ البلدان، أخبره العمدة أن هناك أوامر صارمة من المحروسة بالتيقظ والانتباه لأى محاولة لمناهضة الكومبانيه، وباستخدام الشدة مع من تسول له نفسه أن يأتى بأى فعل من شأنه الإضرار بها، لأن المسيو دليسبس صديق أفندينا سعيد باشا ورئيس الكومبانية لا يريد أن يقال إن المصريين يعارضون الكومبانية لإن ذلك يؤثر على العمل وعلى حماس العمال، كما أنه لا يريد أن يصل ذلك إلى أسماع شركائه فى الكومبانية. هذا الكلام قاله مندوب الكومبانية فى جمع ضم مشايخ القرى والمقاولين فى ساحة المديرية فى دمياط وبحضور مدير المديرية نفسه. وقد وعد الأخير بأن يظهر المصريون بمظهر متحضر . وأضاف العمدة قائلا: انتهزت الفرصة ورجوته أن يفرج عن رجال الفرما، لأنهم لم يكونوا يعرفون مميزات الكومبانية، وقد فهموا بطريق الخطأ أن حفر الترعة سيغرق منازلهم، ويغرق أرض الفرما كلها. والآن عندما يخرجون سيتأكدون بأنفسهم أن شيئاً من ذلك لن يحدث، وأن القائمين على الكومبانية أناس متمدينون، ولن يرضيهم أن ينال أهل الفرما سوء، وسيشجعهم ذلك على الإلتحاق بالعمل فيها، وسيكون خير دعاية للكومبانية. ويكفى ما لاقوه من إهانة فى الحبس.

وعندما تكلم العمدة هكذا، تشجع واحد من مشايخ البلدان تربطه به صلة صداقة وأيد رأيه، ولم يكن الكومبانية لدى مندوب علم بما حدث، فسأل عن هؤلاء الناس، أوضح العمدة أن المقبوض عليهم ليسوا من الرعاع بل من خيرة الناس، منهم التجار وأصحاب المراكب . فقال مندوب الكومبانية: يجب على هؤلاء أن يعملوا فى خدمة الكومبانية كى يثبتوا حسن نواياهم بإحضار مياه الشرب والمؤن بعد أن يقدموا اعتذارات، وهنا قال مدير المديرية: سوف نرفع الأمر إلى

المحروسة، وإذا أفرج عنهم سيكون على مسئوليتكم . ورضى الجميع بذلك.

طلب منه إدريس ألا يذكر لأبيه موضوع الاعتذار، قال عن تعاونهم مع الكومبانية فى العمل إنه أمر سابق لأوانه وبعد خروج الرجال لن يستطع أحد أن يجبرهم على العمل بعد أن تعكرت النفوس. والوقت كفيل بذلك.

قال العمدة: أنت تعمل فى التجارة، ولك معارف كثيرون من التجار وأصحاب المراكب. حاول فى أسرع وقت أن تستعين بهم لتقديم المياه والحبوب، كى تقنعهم أنت بحسن نوايا أهل الفرما.

قال إدريس: سأفكر فى الأمر.

قال العمدة: لا تضع وقتا. حاول ترضية مندوب الكومبانية، لأن هؤلاء الفرنساويون رأسهم صلبة، فخذه بالملاينة.

لم يكن أمام إدريس سوى الوفاء بوعده وبيان حسن النوايا، نيابة عن أهل الفرما كلهم. وأوقعه ذلك فى الحيرة. إذ لم يكن يتخيل أن يعلم أبوه بإقدامه على التعامل مع الكومبانية، وفى نفس الوقت لم يكن أمامه سبيل للإفراج عن رجال الفرما سوى ذلك ، فقد يطول بهم الحبس دون أن يعلم أحد عنهم شيئاً.

شرع على الفور فى إعداد كمية من الحبوب واستعان ببعض أصحاب المراكب من معارفه فى دمياط لنقل كميات من مياه الشرب إلى مقر الكومبانية، قبل مقابلة المسيو جيرار مندوب الكومبانيه فى الفرما بصحبة العمدة الذى انتهز فرصة وجوده بمديرية دمياط، وأكد له أن أهالى الفرما لا يحملون ضغينة للكومبانية، وتأكيدا لحسن نواياهم فها هو إدريس، الذى كان فى الحبس مع بقية رجال الفرما، قد سارع بعد الافراج عنه بالتعاون مع الكومبانيه. وهو واحد من أكبر تجار الفرما، ويمتلك هو وأسرته وكالة كبيرة لتجارة الحبوب، وهو يقدم إعتذاره عما بدر منه هو وأهالى الفرما نتيجة سوء فهم. وبعد هذه المقدمة، التمس العمدة ثانية الإفراج عن الرجال المحبوسين كى يحذوا حذو إدريس.

أخذ المسيو جيرار يعدد مطالبه ثانية، وهى إحضار المؤن ومياه الشرب وجلب العمال للعمل فى الحفر ، وإدريس يعده بذلك . وفى النهاية، وعد المسيو جيرار بأن

يتحدث مع المسئولين بشأن الرجال المحبوسين.

وبعد أيام طويلة من الانتظار المشوب بالتوجس أمضاها إدريس ما بين الفرما ودمياط، لم يكف خلاله عن التردد على مقر الكومبانيه، تمت الموافقة على الإفراج عن الرجال، قبلها استدعاه مدير المديرية هو والعمدة ليتعهدا أمامه بألا يصدر عنهم ما يسئ إلى الكومبانيه وإلا فسيعودون للحبس ثانية..

كان مشهد الرجال الخارجين من الحبس مثيراً للعجب، فلا تكاد تتبين ملامحهم من أثر الجروح والكدمات على أجسادهم، ووجوههم، وقد نحلت أجسادهم وتمزقت ثيابهم. وبدوا جميعاً متشابهين.

وسط فرح الرجال بخبر الإفراج لم تخف عن السيد القبوطى هيئة إدريس، الذى كان فى انتظارهم وبدا مجهدا ومثقلا وهو يتحاشى نظرات أبيه، وتقبل الخبر بهدوء وهو يربت على السيد الفرماوى الذي تساند عليه ثم التفت قائلا: إما أنهم سيرحلون عن الفرما أو سيأخذوننا للسخرة.

ألجمت كلماته إدريس . وقال العمدة: أنت تعرف مكانتك لدينا، ولا نريد أن نلقى بك أو بأهل الفرما إلى التهلكة، وهم أكدوا أنهم لا يريدون أذى بأهل الفرما وسترى بنفسك. لن يتعرض لكم أحد.

أمسك إدريس بيد جده الذى لم يقوى على السير، إذ كان عليهم أن يقطعوا المسافة إلى دمياط ومنها إلى المنزلة كى يستقلوا القوارب إلى الفرما. واستطاع أن يجد حوذياً لينقلهم بعربته. ولحق بهم فى عربة أخرى هو والباقون.

فوجئ الرجال وهم يقتربون من الفرما بسكون يشملها، وقد أحاط رجال الهجانة بها عن بعد، ولم يروا أحداً من الأهالى.

أوقفهم رجال الهجانة وهم يلوحون بالكرابيج. سألوهم بكلمات متكسرة من يكونون ، فقالوا إنهم رجال الفرما الذين أفرج عنهم.

سألهم رئيسهم: أنتم من تعدوا على الفرنساوية ؟

أوضح إدريس قائلا: هؤلاء كانوا فى الحبس قبل حادثة الاعتداء، وقد أفرج عنهم مدير المديرية بنفسه.

أحاط الهجانة بهم وحاولوا منعهم من الاقتراب، لكن الرجال اندفعوا نحو منازلهم.

سمعت النساء الجلبة ففتحن أبواب البيوت مستطلعات وفوجئن بقدوم الرجال فأسرعن نحوهم متهللات وهن يطلقن الزغاريد، وخرج الجميع من بيوتهم وفتحت كل البيوت أبوابها، وما لبثت أن فاحت رائحة الطعام فى البيوت، لكن بعض البيوت فى الفرما قد شح منها الطعام نتيجة ما سلبه رجال الهجانة فلجأن إلى أمينة التى أعطتهن ما يلزمهن.

حكين للرجال عما حدث في غيابهم وعن هروب الشبان والصبية، وما تعرضت له البيوت أثناء التفتيش من نهب وتخريب، وحصار رجال الهجانة والبوليس لهن.

إصطحب السعيد عوض وذهب ليتفقدا الوكالة، واخذ ينظر بحسرة إلى الأماكن الخاوية ويرتب القليل الذى تبقى.

قال له إدريس: المهم أنكم عدتم بالسلامة وسوف نعوض ما فاتنا وتمتلئ المخازن ثانية، ولا تنع هما.

مكث الرجال فى بيوتهم للراحة مع أهاليهم وهم يستمعون منهم إلى ما حدث فى غيابهم. وفى المساء بدأوا يتجمعون ثانية فى ساحة المناخ. حاول رجال الهجانة منعهم فتصدى إدريس لهم قائلا إن مهمتهم هى مراقبة الفرما من خارجها وليس من داخلها، وقال لهم: لقد تعديتم على حرمة الدور ونهبتم وسرقتم فى غياب الرجال وسوف أبلغ ذلك إلى أولى الأمر فى المديرية. وهنا ارتعدوا وعادوا إلى مواقعهم خارج البيوت..

كان الأمر الذى يشغلهم بعد عودتهم هو عودة الشبان الهاربين، والجديد هو أن النساء قد اتخذن مجلسهن لأول مرة في ساحة الفرما مع الرجال وشاركن في الحديث عن الشبان الهاربين. قالت لهم أمينة: لقد أبلغتهم بوصولكم، وعرف الرجال أنهم يأتون بالتناوب متسللين بمساعدة الصيادين الذين يعرفون مكانهم، ويحملون إليهم الطعام الذى ترسله النساء. كانت النساء تطلق عليهم «العصافير»، ويميزن كل منهم بأحد أوصاف الطيور.

قال إدريس لابد أن يكون هناك حل قريبا مع رجال الكومبانيه. أفلتت منه الكلمة الأخيرة فواجه نظرة حادة من أبيه ، الذى قال: أصبحنا أيضاً نطلب منهم السماح بعد الاعتداء علينا وعلى حرمه بيوتنا.

إرتبك إدريس، فقال متداركا: أقصد أن يتدخلوا فى المديرية لوقف رجال الكومبانيه عند حدهم فى الفرما، فهم مصريون على أى حال ولن يرضيهم ما حدث، كما يجب أن يكون لديهم علم بما فعله رجال الهجانة فى غياب الرجال.

قال السيد القبوطي: مثل الذين أخذونا للحبس.

رغم الهموم التى أثقلت إدريس وتوجسه من أبيه، خاصة التلميحات التى ألمح بها إليه فقد شعر إدريس بالراحة لنجاحه في مهمته وعودة الرجال للفرما ، آملاً ألا يسببوا متاعب أخرى، وألا يقدموا على عمل ضد الكومبانيه لأن الأمر لن يمر بسلام بعد ذلك، لإن أموراً كثيرة جدت ولن يعود الوضع كما كان عليه.

سافر إلى دمياط هذه المرة وهو مطمئن إلى أن خسارة الوكالة يمكن تعويضها فى فترة وجيزة أما معارضة رجال الفرما للكومبانيه فالوقت كفيل بها. إصطحب عوض معه ، واتفق على شراء كميات من الحبوب وارسالها معه إلي الفرما. وبعدما انتهى من ذلك، أخذ يفكر فى إحضار كميات من المؤن للكومبانيه كى يستطيع مقابلة المسيو جيرار.

أثنى المسيو جيرار على وفاء إدريس بوعده وسأله عن الرجال الذين كانوا فى الحبس، وعما إذا كانوا قد غيروا رأيهم فى الكومبانية.

قال إدريس متحسسا كلماته: مازالوا يعانون مما حدث لهم، ولا يوجد ما يدعو للقلق من ناحيتهم، وستتغير الأمور مع الوقت، لكن وجود رجال الهجانة ومطاردتهم للشبان يجعلهم يتوجسون، فهم يخشون أن يلحق بهم ما لحق بالرجال فى الحبس.

نظر المسيو جيرار إلى المترجم متسائلا، ودار حديث بينهما ثم التفت إلى إدريس قائلا: هل تعرف هؤلاء الذين تعدوا على الرجل الفرنسى؟

– لم يعتدوا . لم أكن موجوداً وقتها لكننى سمعت هذا الكلام. وقيل إنه

تعرض لإحدى الفتيات، وكانوا يدافعون عنها.

- بل اعتدوا عليه، وهذا أمر ليس بالهين لأنه وصل إلى قنصل دولة فرنسا، وهو يحمى مواطنيه.

- لكن ذلك يوقع فى نفوس الرجال الرهبة من التعامل مع الكومبانيه، فهم يشعرون أنهم غير آمنين على نسائهم وبيوتهم.

- هذا الأمر ليس بأيدينا، ودعك منه الآن. حتى لو اقتنعت بكلامك، فلن أستطيع أن أقنع القنصل، فهذه مسألة كرامة مواطن فرنسى يتمتع بالحماية.

قال إدريس: أرجو ألا يطول الوقت، كنا نلتمس أن تطلبوا من حكمدار البوليس سحب رجال الهجانة من الفرما لأنهم يتدخلون فى كل الأمور ويعتدون على الرائح والغادى، فضلا عن النهب والسرقة، وأهل الفرما يعلمون أن ذلك يحدث من أجل الكومبانيه، ويثير الأقاويل بينهم، ويجعلهم يحجمون عن التعامل معها.

مكث إدريس بعض الوقت فى دمياط مع زوجته وطفليه، ورفضت زوجته فى البداية أن تعود معه إلى الفرما واقترحت عليه أن يقيما فى دمياط، حتى تدخل أبوها ناهرا إياها، فعادت معه بعد أن طلبت منه أن تدير بيتها كما تريد وألا يكون لها شأن بأى مشاكل.

كانت على عكس عائشة زوجه السعيد التى توثقت علاقتها بحماتها خلال غياب الرجال عن الفرما، فى وقوفها بجانبها ورعاية شئون البيت ورعاية سكينة فى غيابها ومساعدتها فى الوكالة. وبعد الحادث الذى تعرضت له زاهيه، كانت تقوم بكل الأعمال خارج البيت تاركة الصغار فى رعايتها، كما كانت تستقبل نساء الفرما وتلبى احتياجاتهن حسبما أوصتها أمينة، وكذلك طهو كميات من الطعام يوميا فى ساحة المناخ ثم فى البيت بعد مجئ رجال الهجانة.

كذلك كان الحال بالنسبة لفاطمة التى التصقت بأسرة زوجها أثناء غيابه هو وأبيه فى الحبس، كما كانت فى نفس الوقت تتردد على المناخ لمتابعة أخبار الرجال المحبوسين والاطمئنان على أسرتها.

عاد إدريس إلى الفرما وقد حمَّل المراكب بالأجولة. وتم نقلها إلى الوكالة فأقبل

تجار الفرما والأهالى متهلفين على عودة التجارة وعلى سد حاجات البيوت. ومضت عدة أيام حتى خفت قبضة رجال الهجانة وانسحبوا من شوارع الفرما إلي المكان المحيط بمقر الكومبانيه، وبعد رحيلهم عادت الحياة فى الفرما إلى طبيعتها، وعاد الرجال إلي مجلسهم فى ساحة المناخ وهم يحكون ما حدث لهم خلال الحبس كما عاد الشبان الهاربون متسللين واحدا فواحدا، وأخذوا يحكون ما جرى لهم فى البحيرة وسط غابات البوص، والليالى التى أمضوها فى البرد القارص وهم يخشون انكشاف أمرهم وذهاب بعضهم متسللين يستطلعون الأخبار، وتعاهدهم ألا يجعلوا أحدا من هؤلاء الغرباء يقترب من الفرما. وقد أحاط السيد القبوطى مهران بالإعزاز.

أثار موقف السيد القبوطى إدريس، فالسجن لم يلن عريكته، ومازال يتحدث إلى رجال الفرما عن هؤلاء الفرنسيين الذين جاءوا للاستيلاء على الفرما وتسخيرهم، لكن بعضهم قد استوعبوا الدرس بعد أن تركوا أسرهم بلا مورد رزق، باتوا يخشون من تعرض نسائهم لأى مكروه فى غيبتهم، فقد استطاعت النساء القيام بالأعمال فى غيابهم، لكن من يدرى ماذا سيحدث فى المرة القادمة وهم يتذكرون ما تعرضوا له من ضرب وإهانة وتجويع، وقوع السيد الفرماوى مريضا بالحمى حتى كاد يفقد حياته وسطهم وهم عاجزون عن انقاذ حياته، فعادوا إلى أعمالهم ليعوضوا ما فاتهم.

الفصل الخامس عشر

شعر الرجال بعد عودتهم للفرما بالتغيرات التى طرأت عليها. بعد أن كانت الفرما قرية هادئة يعرف أهلها بعضهم البعض. حتى الصيادين الذين كانوا يقيمون فيها على امتداد شاطئ البحيرة كانوا يعرفون بعضهم البعض خلال طلعات الصيد أو على الشاطئ، كما يعرفون الوافدين الجدد عليها سواء للتجارة أو الصيد، أو الذين يحملون متاعهم ويلتمسون قدراً من الراحة فور وصولهم، هؤلاء أتوا ليقيموا فى الفرما، فيمدون لهم يد المساعدة حتى تستقيم لهم الأمور.

أما الآن، فقد جاء المئات من عمال الحفر فى قوافل لا تنقطع، يقودهم مقاولو الأنفار، إمتلأت بهم الفرما، وأحاطوا بالمناخ من كل جانب، وانتشروا فى المسافة بين المناخ وساحة الحفر. وقد أقامت الكومبانيه فى ساحة الحفر أبنية خشبية ذات أسقف هرمية، كانوا يطلقون عليها الهناجر كما يردد العمال، فضلا عن الخيام التى انتشرت حول ساحات الحفر التى كان العمال يبيتون فيها.

عندما غادر السيد الفرماوى القرية مقيدا مع الرجال كان يتلفت خلفه ليملى عينيه منها قبل أن تغيب عنه، ورغم ضربات السياط التى انهالت عليهم طوال الطريق، والصوت الآمر أن ينظروا أمامهم ورغم الظلمة التى تخيم عليها، كان بإمكانه وهو يلقى نظرة أخيرة عليها أن يحدد كل شئ فيها كما هو. فالفرما التى يغادرها الآن لن يعود إليها مرة أخرى. كان يردد ذلك خلال فترة الحبس، وكان الرجال يخففون عنه قائلين: إن شاء الله ستراها ثانية عن قريب وتنعم فيها كما كنت. وحده السيد القبوطى الذى كان يفهم مغزى كلماته. قال له وهو يربت عليه: حتى لو غيروها، فهى الفرما.. وستظل لنا.

كانوا مكدسين داخل الزنزانة التى حشروهم فيها حشرا. بالكاد تتسع لجلوسهم القرفصاء، وقد علت الندوب وجوههم وأجسادهم، لاتكاد تلتئم مع الضرب المستمر، كان يستعين بصورة الفرما على الآلام المبرحة غير منتبه إلى السعيد وإدريس وإبراهيم وعوض وغيرهم من الشبان الذين يحيطون به ليتلقوا الضربات عنه، بينما يشحذ كل حواسه كي لا تغيب صورة الفرما، كأنما لو غابت فلن يستعيدها ثانية. يترنح متمايلا ويتخبط فى الأجساد المحيطة به ويقع وسطها. تتحلق حوله الرؤوس فى دائرة ضيقة، ثم تتسع ويجذب نفساً عميقا ويسمع همهمات مبهمة. يطل وجه بن إدريس وسط الدائرة، يمد إليه يده فيقبض عليها، يجذبه فينطلق طائراً، يغيب كل شئ عن عينيه كما لو كان كابوسا مفزعاً، يحلق معه عاليا ويهبطان على سطح الماء يطآن الماء دون أن تبتل أقدامهما.

– قل لى لماذا غبت عنى كل هذا الوقت؟ أين ذهبت؟

أجاب متعجبا: لم أغادر شواطئ الفرما. أنسيت يا سيد يا فرماوى أننى كانت أجلس معك طوال الوقت. لماذا تنكرنى؟

حار ولم يعرف بم يجيب، ثم قال له: كيف أراك عندما أريد؟

– ستجدنى مثلما تعودنا.

كان يسير متمايلا مع حركة الموج، بينما بن إدريس يسبقه وهو يسير بخطى ثابتة، وكان يجاهد كي يلحق به ويتساند عليه، وشخص ما يرقبهما من الشاطئ ويشير إليهما كان السيد الفرماوى يحاول أن يتبين ملامحه بدقة، ويشعر أنه ليس غريباً عليه، وفجأة علت المياه وارتفعت كجبل ثم هبطت بهما إلى القاع، ووجد حشدا من الناس يحيط بهما، لمح بينهم وجه بطرس صالح، وتذكر على الفور أنه الشخص الذى كان يشير إليهما من الشاطئ، إقترب منه لكنه ولي عنه غاضباً. كان يحاول الخروج من الزحام حين اعترضه دركى وهو يشير إلى الزحام قائلا: أنت لم تحيي أميرة التنيس. نظر نحوها ولم تكن هى. نجح ف الإفلات منه، ورأى بن إدريس ينظر إليه بإشفاق، قال له: لا تجزع، وانتظر ما ستأتى به الأيام، فالغيب علمه عند ربى.

أخذ السيد الفرماوى يردد: زاهية هى أميرة التنيس، هى.. أريد أن أراها بعينى. لم يقل لى ضاحى ومهران أنهما سيأخذانها معهما، لقد رأيتهما بعينى هاتان وهما يتسللان.

قال له السيد القبوطى: سترى زاهية وستراهم جميعاً، وستعود جميعاً إلى الفرما عن قريب.

كان يدفع قطرات من الماء بين شفتيه، بينما تحلقت الرؤوس حوله، لمح بطرس بينهم فقال له: لماذا أنت غاضب منى؟ أنا لم أفعل شيئاً يغضبك.

إقترب بطرس منه وقبل رأسه، وأسندها على صدره وقال: أغضب منك أنت؟ حتى لو غضبت من كل الناس.

كان الرجال يوفرون جرعة من الماء بمشقة كى يبللوا شفتيه وجبهته، وهم حائرون لا يعرفون ما يفعلونه معه وقد التهب جسده وهو ينتفض. أخذوا يطرقون الباب الضخم الذى أحكم إغلاقه عليهم، ويطرقون الجدران لعل أحدهم يلين قلبه، وهذا ما كان يحدث أحيانا.

عندما قالوا له فيما بعد أن إدريس أطلق سراحه سألهم: كيف؟

أخبروه بما جرى، وقال البعض مستبشرا: ربما آن الأوان للإفراج عنا جميعاً.

لم يعلق بشئ وظل صامتا، لكنه بعدها كان يعاود السؤال عنه، ويردد: لقد سحروا له وأخذوه.. أخذوا زينة شباب الفرما.

ها هو منذ عودته إلى الفرما يرى إدريس مهموما مبتعدا عن الناس، يتحاشى لقاءهم، يمضى معظم الوقت فى دمياط . كانوا يجلسون كعادتهم فى ساحة المناخ، ويهل العمال فى نهاية يوم العمل للبحث عن مياه للشرب وشراء الطعام. رفض أهل الفرما فى البداية أن يبيعوهم شيئاً أو أن يساعدوهم منذ أن لاقوهم عند البحيرة، وقام مقاولو الأنفار المصاحبون لهم بإبلاغ السلطة التى ألقت القبض عليهم. لكن منظر هؤلاء العمال الذين يأتون بعد نهاية يوم العمل وقد بدا عليهم الإعياء، يتوسلون من أجل جرعة مياه جعل قلوبهم ترق لحالهم، رغم تحفظ البعض قائلين: أن ذلك يشجع الناس على التعامل مع الكومبانيه، وكان يجب أن يتوجهوا

إلى أولى الأمر فى الكومبانيه الذين وعدوهم بتوفير الطعام ومياه الشرب. وكان الرد أن هؤلاء فلاحين مساكين تغربوا عن قراهم وتركوا أراضيهم، وإذا لم يحصلوا على الطعام والشراب، فإن حياتهم معرضة للهلاك وهم مصريون مثلنا، والكومبانيه هى التى خدعتهم.

لم يكن هؤلاء الفلاحين يجدون السلوى فى الفرما خلال ساعات العمل الشاق ، التى تستغرق معظم اليوم، إلا عندما يجلسون معا، يبثون بعضهم البعض همومهم ومواجعهم، ثم يبثونها منغمة فى كلمات تستحضر معها وجوه الأهل والأحبة الذين فارقوهم، ثم يأخذ الوجد بهم فيتبارون فى الغناء. جذبت أصواتهم فضول بعض الصبية والشبان فاقتربوا منهم وأحاطوا بهم. وكان بينهم ضاحى ومهران. أخذوا يستمعون إلى الغناء فأفسح لهم البعض مكانا ودعوهم للجلوس بينهم. كان الغناء خليطا من لهجات مختلفة، وكلمات جديدة تطرق مسامع شباب الفرما لأول مرة، لكنها تحمل قدرا من اللوعة والشجن جعلتهم يرددونها معهم.

حكى ضاحى لجده ما رآه هو ومهران، فأنصت إليهم السيد الفرماوى وهو يتأمل المعنى، مما شجعهما على التردد على العمال، وقد أخذا يتعرفان على بعضهم. كان بعضهم يصطحبونهما هما والشبان إلى ساحة المناخ، مما أثار حفيظة بعض الأهالى، وأخبروا السيد القبوطى بذلك. حكى ضاحى لأبيه عن ذهابهم إلى خيام العمال للإستماع إلى الغناء، وأنهم تعرفوا عليهم، وهم أنفسهم يشكون من سوء معاملة الكومبانيه لهم، ثم قال لأبيه: ليتك تستمع بنفسك إلى ما يقولون.

أثار ذلك اهتمام السيد القبوطى، فبدأ يتحدث إلى هؤلاء العمال الذين يترددون عليهم فى المناخ، وعرف منهم الكثير مما يدور فى ساحة الحفر. فكانوا يحدثونه عن العمل الشاق الذى يقومون به، ويستغرق طوال النهار وأحيانا جزءاً من الليل تحت إشراف الملاحظين ومقاولى الأنفار الذين يتعقبونهم طوال الوقت، ولا يدعون لهم الفرصة لالتقاط أنفاسهم، وهم يجمعون القروش القليلة التى سيعودن بها إلي قراهم، لكن قلة الطعام تجعلهم ينفقون بعضها عليه ، ورغم هؤلاء المقاولين الذين

يقتصون جزءاً من أجورهم التى أتفقوا معهم عليها، فضلا عن خصم مبالغ أخرى بدعوى أنهم لم يقوموا بالعمل كما ينبغى، ورجال الكومبانيه يتغاضون عن ذلك لأن هؤلاء المقاولين أفهموا رجال الكومبانيه أنه لولاهم لما جاء العمال للعمل فى الحفر، وأنهم يفعلون ذلك لتكاسل العمال عن العمل. كان العمال يحسبون القروش التى يجمعونها، كما يحسبون المدة المتبقية لهم ليعودوا إلى قراهم وأهاليهم، ويفكر بعضهم بالقراريط القليلة التى يمتلكونها وتركوها فى رعاية النساء، وآخرون كانوا يحلمون عندما التحقوا بالعمل فى الحفر، أن يوفروا مبلغاً يشترون به بضعة قراريط كما صور لهم هؤلاء المقاولون عندما أغروهم بالالتحاق بالعمل وقد تركوا العمل فى الأرض لنسائهم، وهم يحسبون مواعيد الرى وتنقية الأرض من الحشرات، ومتابعة الزرع حتى ينمو.

شجع حديث السيد القبوطى مع عمال الحفر الأهالى على التعامل معهم، فكثر تردد هؤلاء على ساحة المناخ بعد حلول الظلام. كان أول ما يبحثون عنه جرعة ماء، لقلة المياه التى يحصلون عليها من الكومبانيه، حيث تصرف لكل اثنين منهم قلة ماء تملأ عندما تأتى فناطيس المياه إلي موقع الحفر فيتزاحمون عليها، أو على ما تبقى منها رجال الكومبانيه والعمال الأجانب . فى نفس الوقت كان الأهالى يتحاشون العمال الأجانب الذين كانوا يتمشون بالقرب من المناخ بعيدا عن الأهالى وأحيانا كان البعض منهم يدخلون المناخ فيبتعد الأهالى عنهم، كما كان أصحاب الدكاكين يرفضون أن يبيعونهم شيئاً ويعبرون عن ذلك بإشارات الأيادى. فى إحدى المرات جاء بعضهم ووقفوا أمام أحد الدكاكين يشيرون إلى بعض الأطعمة لكنه صاحبه رفع يديه مشيرا أنه لا يبيع لهم، فلم ينصرفوا ووقفوا أمامه وتناولوا بعض الحلوى وعندما حاول منعهم إعتدوا عليه بالضرب وانصرفوا مسرعين. كان إدريس موجودا وقتها وأسرع إلى صاحب الدكان الذى أحاط به الناس . وخشى من تصاعد الأمر فأخذ يهدئهم، ووعد صاحب الدكان بأن يعيد له حقه.

عندما توجه إدريس إلى مندوب الكومبانيه حكى له ما حدث، فقال له: ولماذا يرفض هؤلاء الناس أن يبيعوهم ما يريدون.

قال إدريس: أنت تعرف أنهم يخشونهم بعدها تعرضوا لهم من قبل، ويمكن إحضار ما يريدونه هنا دون أن يذهبوا للمناخ أو يثيروا مشاكل مع الأهالى.

قال له: أنت لم تف بما وعدت به يا إدريس، فقد وعدت أن تنقل كميات أكبر ووعدت بالاتفاق مع بعض الصيادين لإحضار ماء الشرب فى مراكبهم وبعد خروج الرجال تباطأت ولم تف بوعدك حتى الآن. أنا أحذرك من محاولة خداعنا.

قال إدريس: أنا أبذل كل جهدى لأفى بوعدى، كل ما فى الأمر أن أصحاب المراكب فى الفرما مراكبهم صغيرة وأنا أحاول البحث عن أحد أصحاب المراكب الكبيرة الذي يمكنه أن ينقل الكميات المطلوبة وسوف يتم ذلك قريبا.

بالطبع، لم يجسر إدريس أن يطالبه بأن يدفع رجاله ثمن ما نهبوه، وعندما عاد إلى الفرما دفع لصاحب الدكان نقودا من جيبه وأفهمه أنه حصل له على حقه من الكومبانيه، وأن مندوب الكومبانيه لم يرضه ما حدث من تعدى رجاله عليه، ووعد ألا يحدث ذلك ثانية.

كان مشغولا بتدبير أموره لتنفيذ الاتفاق بنقل الأطعمة والمؤن اللازمة سرا دون أن يعرف أحد من الفرما ، إذا استعان بأحد أصحاب المراكب الكبيرة فى دمياط بذلك، وهى مركب ذات غاطس تعمل بالصيد فى البحر، على أن يتم ذلك بتكتم . وتردد الرجل الذى رأى فى الأمر مغامرة ، لكن المبلغ الذى دفعه إدريس حسم تردده، وتم نقل الحمولة حتى مقر الكومبانيه أمام ساحة الحفر. كان العمل الذي ينتظره أكثر من الاستعانة بتلك المركب فأخذ يفكر فى الأمر.

كان أخوه السعيد منصرفا كلية إلى الوكالة، مهموما بتعويض ما تعرضت له من تبديد فى فترة الحبس. وتمنى لو يوافق السعيد على التعاون معه بتخزين البضائع فى الوكالة ثم نقلها إلى مخازن الكومبانيه فبدأ يناوشه قائلا: لقد بدأ أبى يتحدث إلى عمال الحفر، ويتقصى منهم عما يحدث فى ساحة الحفر. ربما أدرك أخيراً أن لا فائدة من الوقوف أمام الكومبانيه.

إستمع السعيد بقلق إلى كلمات أخيه وهو يتحدث بتلك الطريقة ، بما يعنى أن حديث أبيه إلى عمال الحفر قد غير موقفه من الكومبانيه، مع أنه يردد دوما على

مسامع أهل الفرما النوايا الحقيقية التى تضمرها، ويتخذ ما وصله من معلومات عن أحوال عمال الحفر كدليل على أنهم لا ينوون خيراً، وأن ذلك يكشف عن الحقيقة التى حاولوا تحسينها بالوعود التى قطعوها للعمال ولم يفوا بها، وذكرّ السعيد أخاه بذلك.

قال إدريس: هل تعتقد أنهم بعد ما بدأوا الحفر يمكن أن يرحلوا، وأن يعود كل شئ إلى ما كان عليه.

إستمع إليه السعيد وهو يدرك أنه يضمر أمرا ما فلم يشأ أن يعارضه حتى يفصح عنه. فقال له: ماذا تعنى بذلك؟

- أعنى أن وجود الكومبانيه أصبح أمرا مسلما به وهؤلاء الفرنساوية سيستمرون، والكلام عن رحيلهم لا طائل من ورائه. فعمال الحفر يتزايد عددهم كل يوم، وهناك أناس كثيرون من مقاولى الأنفار والتجار بدأوا يتجهون للعمل معهم، والعمل يمضى قدما.

بوغت السعيد وسأل أخوه مباشرة: ماذا تعنى بذلك؟

قال إدريس: أعنى أن الكل أدرك أن وجود الكومبانيه أصبح أمرا مسلما به، وأن الوقوف أمامها لا طائل من ورائه. ووجدوها فرصة للعمل، خاصة أنها تدفع أجورا لمن يتعاونون معها، ومنهم بعض أهالى الفرما، فهم يستمعون إلى أبى ويزنون الأمور مقارنة بما يحدث فعلا.

قال السعيد: لكن أهل الفرما يوافقون أبى فيما يقوله بدليل أنهم يرفضون التعامل مع الفرنساوية الذين يقتربون من المناخ.

قال إدريس: أبى يقول فى حديثه إن المسيو ديليسبس يشبه بونابرت ومن سبقوه من المحتلين، مع أنه لم يأت بمدافع ولا بارود، بل جاء لحفر الترعة وعمل ميناء فى الفرما يستفيد منه ويفيد الآخرين. وقد بدأ الناس يدركون ذلك فى دمياط وغيرها من البلاد، وهم يسارعون بالعمل مع الكومبانيه، بينما نظل نحن فى مكاننا ونرى الناس يجنون من وراء الكومبانيه الخير الكثير، وعندما نتدارك الأمر لن يكون لنا مكان بينهم.

رغم معارضة السعيد لأخيه، كان يجد فى كلامه ما يستحق التفكير. كانت حجته قوية ورؤيته بعيدة. هكذا كان يفكر السعيد ، فإدريس يسافر إلى بلاد كثيرة وله معارف فى كل مكان، أما هو فلا يغادر الفرما إلا نادرا ولا يجد من أصحاب الشأن من يتحدث إليهم مثله.

شجع صمت السعيد إدريس على المضي فى الحديث، فقال له: يعنى لو قمنا مثل غيرنا بإمداد الكومبانيه بالخزين والمؤن يمكن أن نكسب الكثير وتتسع تجارتنا بدلا من أن نفاجأ بغيرنا ممن هم أقل منا وقد أصبحوا هم الكبار.

لم يستطع السعيد أن يصدق ما يسمعه ، وهو يتخيل موقف أبيه عندما يسمع بذلك، وانتابه الخوف. وفى نفس الوقت لم يستطيع أن يقارع حجة أخيه، فقال: إقنع أبى أولا، وما يشير به سأعمل به.

قال إدريس: أعرف أن أبى سيرفض ذلك، ولن يقتنع إلا عندما يتغير كل شئ، وخلال ذلك سيكون غيرنا قد سبقونا، واستأثروا بكل شئ. فكر فى الأمر.

الفصل السادس عشر

لم تعد الأمور بالنسبة لزاهية كما كانت، فقد طرأت تغيرات كثيرة على حياتها بعد محاولة الاعتداء التى تعرضت لها من هؤلاء الأغراب إذ أوصلها الشبان أثناء هروبهم إلى بيت أختها فاطمة وتركوها مسرعين. وفوجئت فاطمة بزاهية تحكى من خلال دموعها ما حدث، فأخذت تهدئها. وتجمع حولها أهل زوجها وهم يطيبون خاطر زاهية ويهونون عليها الأمر. لكن القلق انتابها وهى تمضى أيامها بعيداً عن المناخ. وكانت ترددرغبتها فى رؤية أمي وجدتى، حتى اصطحبتها فاطمة وحماتها وتوجهتا بها إلى المناخ، فارتمت فى أحضان أمها وعائشة وأطفالها، وهى لا تكف عن البكاء.

كانت جدتها تحاول أن تخفف عنها ما حدث وتحاول إفهامها أنها لم تعد طفلة، بل صبية جميلة يطمع فيها الغرباء الذين لا يعرفون قدرها، وتطوعت عائشة زوجة أخيها السعيد القيام بالأعمال التى كانت تستدعى خروجها من الدار، تاركة طفليها فى رعايتها، فأخذت تساعد جدتها فى القيام بأعمال المنزل وترتيب البيت وتنظيفه، كما تعلمت منها الطهى . ورغم محاولة كل من حولها التخفيف عنها وإحاطتها بالرعاية، أخذ يتسرب إليها لأول مرة شعور بالخوف ويحيطها بالحواجز، وهى التى كانت تنتقل فى الفرما من مكان لآخر، وتذهب إلى شاطئ البحيرة وتحادث الكبير والصغير دون أن تكف عن ألعاب الطفولة مع ضاحى ومهران، لا تشعر بفارق بينها وبينهم، وجدها يرمقها بحنان ويدللها.. لكم اشتاقت إلى جدها.. أن تجلس بجواره وتلتصق به، وهو يحيطها بذراعه، وهى تستمع إلى حكاياته التى لا تنتهى وتشاكسه، كأنها أميرة التنيس فى سجنها، تلاحقها صورة

مبهمة تخشى أن تتحدد ملامحها فيتسرب إليها الشعور بالرهبة، وهى تحاول أن تتحاشاها حتى لا تكتمل.

وجدت سلواها فى اللعب مع طاهر وزبيدة طفلى عائشة ، ومع مسعد وعبدالفتاح طفلى فاطمة الذين كانوا يصطحبون أمهم عند زيارتها لهم، كانت فاطمة تأتى إليهم كثيرا لتسقط أخبار الرجال المحبوسين، ومعرفة أى شئ عنهم لأن إبراهيم زوجها وأباه كانا معهما .

كانت زاهية تصنع اللعب للأطفال، وتعلمهم كيف يلعبون بها، وتلاغيهم وتعلمهم الكلام، فتعلق بها الأطفال. ورغم محاولة جدتها سكينة التسرية عنها وهى تحكى لها عن بيت الأسرة الذى تزوجت فيه، وكيف أخذها السيد الفرماوى منه وطاف بها البحيرة، وزيارتها معه لتل بن سلام، والمدن والقرى التى ترددا عليها، كانت الجدة نفسها لا تخفى قلقها وتنتابها نوبات من البكاء على الرجال وعلى الجد الذى ذهبت صحته. تخشى ألا يتحمل الضرب والتعذيب . فكانت تحاول أن تطمئنها، وكانت أمها أمينة تحاول تهدئتها قائلة: أكيد أن الرجال يراعونه جيداً. كانت جدتها تستيقظ فزعه وهى تحكى عن تلك الكوابيس التى تراها أثناء النوم، حتى أنها كانت تخشى أن تغفل عيناها فتراها، كانت ترى نساء الدار القديمة وهن يتكالبن على السيد ويلتهمنه، حتي ذلك اليوم الذى أطلقت فيه صرخاتها وتجمع الجيران حولها، وهى تردد: السيد بعافية.. أريد أن أراه.. أراه بنفسى وأطمئن عليه... رأيته يقع بطوله مثل جذع النخلة.

أخذوا يحاولون تهدئتها وهى تردد: خذونى إليه.. أراه.. ولو فى آخر الدنيا، يا ليتنى كنت معه.

تكاثروا عليها يهدئونها فسكتت كالطير الذبيح . بكت زاهية معها وهى تحتضنها وانفطر قلبها على الجد الغائب، بتأثير كلمات جدتها، فهى لم تكن تتصور ألا تراه ثانيه. عندما جاء الرجال بعد ذلك وحكوا ما حدث من وقوع الجد مريضا بالحمى، تعجبت زاهيه لحدوث ذلك لحظة رؤية جدتها له وهو يسقط كجذع نخلة.

أما أمها أمينة، فخلال فترة غياب الرجال كانت تبدو جسورة قوية الشكيمة تختلف عن أمها فى التعبير عن حزنها وغضبها، فكانت تبعث الطمأنينة فيمن حولها وتدفع الحياة فى كل اتجاه، تجمع نساء المناخ حولها وتشير عليهن بما يفعلن وتساعدهن.

كانت النساء تستمد منها رباطة الجأش، رغم نوبات الوهن التى تعترى الواحدة منهن بين حين وآخر فتنخرط فى البكاء، أو تجأر بالشكوى والنواح، فتظل بجانب الواحدة منهن حتى تهدئ روعها.

كانت عائشة زوجة السعيد تحاول أن تقتدى بحماتها فى صلابتها وتحملها المسئولية، ومثلها تساعد نساء الفرما اللاتى كن يلجأن إلى البيت فى غياب أمينة، وصارت قريبة من حماتها كما لو كانت ابنتها، حتى أن أم عائشة نفسها كانت تضحك قائلة: كأن أمينة هى التى أنجبتك ولست أنا.

بعد عودة الرجال ، شعرت زاهية كأنما قد أطلق سراحها معهم بعد سجن طويل مخيف. تتحسس ملامح أبيها الصلبة ويتسلل إليها الإحساس بالأمان وهى تقبل رأسه ويديه وتتمرغ فى أحضانه وتبكى، تتسلل رعشتها إليه فيحتضنها ويربت عليها.

أما جدها ، فقد هالتها الحالة التى كان عليها. قابلته جدتها جزعة بعد ما تأكد ما كان يعانيه ووقوعه مريضاً، وهى تردد: الدنيا بدونه مظلمة.. لا تساوى شيئاً.

كانت تقوم معها على رعايته حتى استرد عافيته وإن ظل يعانى من الوهن، عاد للجلوس على المصطبة الغربية المواجهة للبحيرة. كانت تهدهده مثلما كانت تفعل مع الأطفال وقد عادت إليها ضحكتها، فيجذبها إلى جواره وتنكمش فيه وهو يقول لها: أوحشتنى يا أميرة التنيس. يحيطها بذراعه ويرسل نظراته عبر البحيرة ويتمتم: كانوا يريدون اختطافك يا أميرة.

عادت الأمسيات إلى ساحة المناخ، لم يتوقف سيل الحكايات التى يحكيها الرجال عن الحبس وهم يحاولون متابعة ما جد من أمور وشاركت النساء فى الأمسيات، وأصبحن يدلين برأيهن فيما يدور حولهن، ثم جاء الشبان الهاربون بعد

ذلك بمزيد من الحكايات عن الأيام التى أمضوها وسط أحراج البوص فى البحيرة وخشيتهم انكشاف أمرهم، كان البعض منهم يأتى لاستطلاع الأخبار أو للقاء صيادى الفرما الذين كانوا يحضرون لهم الطعام الذى تعده النساء.

عاد ضاحي ومهران إلى جلسة الجد، ورغم فرحة زاهيه بعودتهما ظلت هناك حواجز قائمة دون انطلاقها معهم فى البحيرة مثلما كانت تفعل وهى صغيرة، وهي تشاركهم اللعب على الشاطئ وتسبح معهم، وحكايات الجد التى كانوا يستمعون إليها حتى حفظوها كلها، فكانوا يشاركونه وهو يحكيها ثانية وكان ضاحى يضيف إليها أحداثا من خياله، فتبدو الحكاية مضحكة . ورغم التفافهم ثانية حول الجد كان هناك شئ ما يجعلها متهيبة، ومفتقدة تلقائية الطفولة، فهى كما قالوا لها لم تعد طفلة صغيرة، ودخلت عالم النساء بتهيب وهى ترفض أن تندمج فيه، لكن الرهبة التى بداخلها كانت تجعلها تحاول أن تستوعب وجودها وكيانها، تحاول ألا تفقد مكانتها كأميرة.

ظلت صورة الفارس الذي أنقذ الأميرة تراودها وتداعب مخيلتها بمشاعر مضطربة عندما أسفر لها عن وجه مهران ، وهى تحاول أن تستوعب تلك المشاعر لدى رؤيته. لم تكن تتبادل معه سوى كلمات قليلة فى وجودهما مع الجد، وظل هناك حاجز قائم بينهما، ازداد مع تلك النظرات الغريبة التى كان مهران يرمقها بها. وعندما عادت مسامراتهم مع الجد وعادت حكاياته أكثر تدفقا وهو يضيف إليها أحداثاً وتفاصيل جديدة غير تلك التى اعتادوا سماعها كل مرة، كانت تعاودها لحظات النزق الطفولي وهى تشاكس الجد وتنطلق ضحكاتها معهم، وتشعر بالزهو وهو يناديها أميرة التنيس.

أما مهران، فقد أدرك بشكل واضح ما يحمله من مشاعر تجاه زاهية، التى كان مرآها يبعث البهجة فى نفسه. كان الحادث الذي تعرضت له نقطة فاصلة تجاه هذه الصبية الجميلة التى قضى جانبا من طفولته وصباه معها هى وضاحى يلعبون معا ويجمعهم الجد حوله، كل ذكرياته ارتبطت بهم، وهو يشعر بالدفء فى وجوده مع هذه الأسرة التى أصبحت أسرته، منذ مجيئه إلى الفرما أصبح أخا

لضاحى وزاهيه، عوضه هذا الشعور عن اليتم والغربة. لم يستشعر ذلك حتى خلال وجوده مع أخيه عوض، عندما عمل معه فى الوكالة، فقد كان عوض يجور عليه فى العمل خشية من السعيد الذى كان غير راض عن وجوده ، رغم أنه كان يحاول أن يطيب خاطره فيما بعد . إذ كان يوكل إليه الأعمال الشاقة قائلا: لتثبت أنك رجل قادر على العمل حتى لا يجد السعيد حجة لإبعادك. لكن ضاحى كان عكس السعيد، إذ كان يعامله كصديق ويلعب معه فى أوقات فراغه وخلال الأوقات التى يقضيانها معا بعد الكتاب.

كان ضاحى يطلب من عوض أن يسمح لمهران بالذهاب معه إلى البحيرة. كان عوض يرفض، فكان يلجأ إلى أخيه السعيد ويلح عليه أن يصطحب مهران معه وبعد طول إلحاح يوافق السعيد، فكان مهران يشعر بفارق بين وجوده فى الوكالة حيث العمل الشاق طول اليوم، وبين الإنطلاق مع ضاحى وزاهية بصحبة الجد فى البحيرة، وهم يساعدونه فى الصيد وخلال ذلك يلهون على الشاطئ حتى قال مهران لضاحى فى إحدى المرات: ليتنى أعمل معك بالصيد فى البحيرة وأساعد جدى، بدلا من عمل الوكالة، هناك لا أجد أحداً أتكلم معه، وكأنى فى الحبس.

نقل ضاحى أمنية مهران إلى جده، فقال الجد: دعه يعمل معنا، ولم لا. وأخذه الجد معهم، فبذل كل جهده لإرضائه. كان الجد يطلب منه ألا يجهد نفسه على هذا النحو، وكان لا يفرق فى المعاملة بينه وبين ضاحى، فأحب مهران عالم البحيرة فى الفرما الذى يختلف عن قريته شطا وتعلم من الجد فنون الصيد وأظهر براعة فيه.

كان يرى فى زاهيه أميرة حقيقية تختلف عن سائر البنات فى الفرما وفى قريته شطا، يراها منطلقة ضاحكة تشاركهم اللعب وتنعم بتدليل جدها، وعندما كان الجد يصف أميرة التنيس، كانت تتجسد أوصافها فى زاهيه.

كان يتردد على قريته لزيارة أمه، فكان السيد الفرماوى يعطيه نقوداً ليعطيها لها، وينتقى كومة من أفضل الأسماك ليحملها معه.

فكان مهران يذهب ويمضى بعض الوقت مع أمه وأخوته، ويشعر بأنه مشدود إلى أسرته الأخرى فى الفرما فيعود سريعا.

يوم أن سمع صراخها أسرع جارياً، ولمح ذلك الغريب يسرع ليلحق بصاحبه، وزاهيه ملقاة على الأرض، لم يدر إلا وهو يندفع وراءه وقد طاش صوابه وجذبه من ساقه فأسقطه أرضا، وعندما نهض الرجل سدد إليه لكمة قوية أوقعته، فقد كان الرجل أكبر وأقوى منه، لكن سرعان ما لحق به الشبان وأوسعوه ضربا.

خلال فترة هروبه مع باقي الشبان لم يكف عن التفكير في زاهيه.. الأميرة، لم تعد تلك الطفلة الصغيرة، بل أصبحت زهرة مشرقة ومطمعا لكل من يراها، وهو لا يتصور أن يمسها أحد، هؤلاء الشبان الذين هرب معهم يتحدثون عن زاهيه كلما أعادوا سرد ما جرى، يكاد أن يصيح فيهم: زاهيه تخصنى أنا، لكنهم كلهم تعرضوا للمطاردة والهروب من أجلها. ربما يكون منهم من هو أفضل منه، أو من وراءه أسرة تسانده أو من يملك المال الكافى لكى يتقدم بطلب يدها، وماذا يملك هو غير اليتم والغربة. كان يفكر فى ذلك وهو يحاول أن يدبر أمره. هل يجسر أن يقترب منها أو يفكر يوما ما فى أن يتقدم لها، رغم ما تحيطه به أسرتها من رعاية، أبوها وأمها وجدها وجدتها وضاحى، أما باقى الأخوة، فماذا سيكون رأيهم؟ والسعيد ينظر إليه كعامل لديه زائد عن الحاجة.

عندما قرر الشبان أن يرسلوا واحدا منهم ليستطلع الأخبار، فى البداية أصر مهران أن يذهب هو. كان يود أن يلقى ولو نظره من بعيد عليها غير مبال بما قد يتعرض له لكن الشبان أثنوه عن عزمه، قالوا له: أنت بالذات لن تذهب، وتطوع كل منهم بالذهاب، حتى حسم ضاحى الأمر وذهب هو. تسلل إلى شاطئ الفرما ليلاً بالقرب من بيت أخته فاطمة وطرق الباب.

كانت زاهيه مقيمة لديها، طمأنته فاطمة على أهل الفرما واطمأن هو على زاهيه، وأعدت طعاما على عجالة ليحمله للشبان، طمأنت أهاليهم الذين عرفوا مكانهم، ورتبوا بعد ذلك توصيل الطعام لهم مع بعض الصيادين. وعندما عاد ضاحى أخذ مهران يسأله عن زاهية وأحوالها حتى اطمأن عليها. كان يود أن يطير إليها ويراها ولو للحظة.

أخذ مهران يفكر فى أمره وهو يشعر بأنه لم يعد ذلك الصبى الصغير الذى

يعمل فى كنف السيد الفرماوى ويستكين لرعايته له، فالعمر تقدم به وهو لا يشعر، وعمله لا يدر عليه المال الكافى للتفكير فى الزواج، وهو يعمل مثله مثل ضاحي مع الجد، لكن ضاحى أسرته تساعده ويمكنه أن يعمل فى التجارة مع إدريس والسعيد أو يسافر إلى المحروسة ليتعلم في الأزهر مثل الشيخ محمد. لكن ماذا يستطيع أن يفعل وهو يقيم فى تلك الحجرة الصغيرة التى قام ببنائها بمساعدة ضاحى ملاصقة لبيت الجد. فكر مهران بعد أن يعود إلى الفرما فى أن يبدأ عملا يستطيع أن يدخر منه النقود، ويمتلك قاربا، ثم يكبر القارب ويستعين بآخرين للعمل معه مثل إبراهيم زوج فاطمة . ولم يكن يملك فى تلك اللحظة غير الأحلام.

بعد عودتهم إلى الفرما ، جاء الشيخ محمد من المحروسة ليقضى اجازته، وقد فوجى بالأحداث التى جرت فى غيابه وتطورت سريعاً حتى حبس الرجال وتعذيبهم. لأول مرة يحس بالغربة حائلا بينه وبين أهله حتى أن أشواقهم إليه لم تدع له الفرصة لمواساتهم في ما حدث. فقد جاء بعد أن خفت حدة الصدمة، حتى أهل الفرما الذين تجمعوا حوله كانوا يسألونه عن أحواله وعن المحروسة وما يحدث هناك. كان يؤم الناس للصلاة فى المسجد بعد أن تخلى الشيخ حمزة له عن إمامه المصلين خلال فترة وجوده فى الفرما، كما بدا الشيخ صديق العريف فخورا بتلميذه الذى تعلم على يديه القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وبعد صلاة المغرب كانوا يمكثون معه فى المسجد وهم يستمعون إلى أحاديثه حتى صلاة العشاء، ثم ينتقلون إلى ساحة المناخ ليكملوا الحديث . كانوا يسألونه: هل يعرف أولو الأمر فى المحروسة وشيوخ الأزهر ما جرى ويجرى فى الفرما، وحبس الرجال، وهل يرضيهم ذلك؟ حار الشيخ محمد فى الجواب، فهو يعلم أن الناس فى المحروسة لا يعنيهم ما يلاقيه أهل الفرما لأنهم لا يعرفون شيئا عنهم. أما شيوخ الأزهر، فهم يحدثون الناس عن الخير الذى سيعم بر مصر بحفر الترعة وعن المكانة التى ستحظى بها بين الدول المتمدينة، بما يرفع من شأنها.

حار الشيخ محمد فى الرد ، فهو يعرف أن هذا الكلام يغضب أهل الفرما، ويغضب أباه على وجه الخصوص، واكتفى بالقول إنهم لا يدرون شيئاً عما يجرى

هنا، وإذا عرفوا فهذا لا يرضى أحداً.

جاء موسم الحج وتوافد الحجاج على الفرما التى شهدت تغيرات خلال العام، وبذل أهل الفرما جهدهم كي تظل الأمور على ما هى عليه ويظل موسم الحج موردا للرزق سواء لهم أو للساعين إليه من أماكن أخرى.

عندما حان موعد عودة الشيخ محمد إلى المحروسة، أبدى ضاحى رغبته فى أن يذهب معه ليلتحق بالأزهر، حاولوا إثناءه عن الذهاب، وبذلت زاهيه جهدا كى لا يذهب دون فائدة، وهى تستشعر الفقد التى ستعانيه، فهما لم يفترقا منذ الطفولة. كانت تشعر أن جزءا منها ينسلخ عنها. حاولت التوسل من خلال دموعها دون جدوى، وهو يقول لها إنه لن يغيب طويلا عنهم مثل الشيخ محمد، وسيحضر لها هدايا من المحروسة، ثم قال: ألا تودين رؤية أخيك شيخاً له مكانته، قالت له بين دموعها وهو يودعها: كنت فاكراك أخي بجد .قبل رأسها وأخذ يسترضيها حتى قال لها الجد: كلها أسابيع قليلة وينط فوق رؤوسنا، والله ستوحشنا بجد يا عفريت.

أما مهران ، فقد حاول إثناءه عن الذهاب وهو يعلم أنه لن يطاوعه، فقد ركب رأسه . شعر أنه فقد سندا مهما له فى الفرما. فقد كان يشعر أنه شقيقه الحقيقى الذى عاش معه، هو الوحيد من بين إخوة زاهيه الذى كان يمكن أن يصرح له بمشاعره ويتلقى منه المساندة، فقد كان يشعر أنه غريب عن باقى إخوتها.

أخذ يمنى نفسه ألا تطول غيبته، إقترح عليه ضاحي أن يصحبه إلى المحروسة ويلتحق معه بالأزهر ليظلا معا دائماً كما كانا. راودته الأحلام أن يصبح شيخاً مثل أخيها الشيخ محمد ويكون جديرا بها، لكنه خاف أن يبتعد عنها فيعود ليجدها قد تزوجت بآخر فزاهيه أصبحت شابة، ولا يتصور أن تكون لغيره، فهذا أمر يطيش له صوابه..

رحل ضاحى في صخب ملأ الفرما. فلم يكن أهله فقط الذين ذهبوا لتوديعه بل ذهب أيضاً كل شباب الفرما الذين ربى وسطهم هربوا معه. وأصروا أن يذهبوا معه إلى دمياط حتى يستقل المركب الذى سيذهب به إلى المحروسة.

كان الجد هو الملاذ الوحيد لمهران بعد رحيل ضاحى، وقد أدرك الجد ما يعانيه فقال له: أنت مثل ضاحى تماما وستظل معى كما كنا دائماً. قلبي يحدثنى أن ضاحى سيعود سريعاً.

نظر إليه مهران مستفهما، فقال الجد: ضاحى غير الشيخ محمد، الشيخ محمد منذ صغره منكب على العلم. ليس له أصدقاء كثيرون عاش بينهم مثل ضاحى، أنظر إلى هؤلاء الشبان الذين ذهبوا وراءه إلى دمياط، كل منهم قطعة منه عاش بينهم ولعب معهم وكبر وسطهم، كل جزء من الفرما يجرى فى دمائه، لكن الشيخ محمد اقتصرت علاقاته على رفاقه فى الكتاب ولم تربطه بهم صداقة قوية. كان يشعر أنه أكبر منهم وله مكانة خاصة غيرهم، فلم يعش معهم.

كان مهران يصطحب الجد للصيد فى البحيرة وقد صمم أن يبذل جهداً كبيراً فى العمل حتى يستطيع أن يدخر نقودا، لكن الجد العجوز كان يعمل بهوادة وفق ما تسمح به قواه ولا يبتعد كثيراً عن الشاطئ، ويمضى معظم وقته فى الحكى، كان الصيادون ينضمون إليه فى أوقات الراحة دائماً على الشاطئ ويتسامرون معه، وعندما كان مهران يتركه بعيداً أو يختفى عن عينيه يناديه ليكون بجواره: ماذا بك يامهران لاتتركنى وتبتعد ويأخذه فى الحديث: هل رأيت عمك حسان اليوم.. استدعوه للمنزل . هل وضعت امرأته؟ أو يطلب منه أن يذهب ليدعو العم بطرس أو العم همام لتناول الشاى معهما..

بدأ مهران يضيق بالحكايات التى كان يستغرق فى الاستماع إليها قبل ذلك، فكان يجيب على الجد باقتضاب، فيصيح به: مالك يا مهران.. منذ ذهب ضاحى إلى المحروسة وكأن قيامتك قامت.. إياك أن يذهب تفكيرك للحاق به وتتركنى وحدى.

وربت عليه قائلاً: أم تفكر فى أن تتركنى وحدي؟

قال مهران: كيف يا أبا فرماوى. حتى لو أردت لا أستطيع مغادرة الفرما. لا أملك المال أو العزوة.

– ماذا تقول، ألسنا أهلك؟ عشت وسطنا أكثر مما عشت مع أهلك.

– لم أقل شيئاً، لكنى لم أعد صغيراً والعمر يجرى. وأنا بالكاد أعمل بلقمتى وهدمتى. لا أستطيع أن أفكر فى المستقبل.. أن أتزوج مثلا، وتكون لى أسرة فى الفرما.

– ماذا تقول يا ولد.. أشر إلى بنت فى الفرما، وسوف تتشرف بك. أتظن أننى سأتركك هكذا؟... ماذا يعنى قولى لك إننا أهلك؟.. أنت ابنى، مثل ضاحى تماماً ومعزتك من معزته، وكل ما تريده سيكون لك.

– ربنا يخليك لنا يا أبا فرماوى، لكنى أود أن أعتمد على نفسى، أدخر من كدى لأكون جديرا بالإنسانة التى سأتزوجها.

– من هى؟ قل لى ولا تحمل هما.. إذا كان على الشغل فافعل ما تراه، وعندك القارب. قل لى فقط هل وضعت عينيك على واحدة بعينها.

صمت مهران ولم يستطع أن يرفع رأسه، إذ خيل إليه فى تلك اللحظة أن أى نظرة منه للجد أو أى حركة تصدر عنه ستشى به. أخذ قلبه يدق بعنف كاد يهزه.

صمت الجد وهو ينظر عبر البحيرة، ثم تمتم قائلا: سبحان الله.

إنتبه مهران ونظر إليه، فأشار إليه الجد أن ينتقل بجواره ففعل كما أمره، أمسك الجد بيده وظل ساكنا للحظة، ثم قال له: لاتظن أننى رجل كبير غافل عما يدور فى رأسك. أعرف أنك مشدود إليها ولاحظت ذلك منذ جئت بعد الهروب.

حملق مهران فى الجد بفزع وقلبه يكاد يتوقف.

– عبيط.. مالك خائف هكذا .. اطمئن مادمت بجوارك. لن أجد لها أفضل منك، دع الأمر لى ولا تحمل هما.

قبل أن يكمل الجد كلماته، إندفعت الدماء فى شرايين مهران وقفز واقفا وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه.

– صحيح يابا الفرماوى؟.. أتتكلم جادا؟

أخذ يقفز فى الهواء ويدور حول نفسه والسيد الفرماوى يرقبه وقد انفجر ضاحكا.

إنحنى مهران عليه يقبل رأسه ثم يعاود القفز غير مصدق وهو يردد: صحيح.. بجد.. أنا ملك يدك.. أفعل بى ما تشاء، كل ما ستقوله لى سأفعله.

- اجلس يا مخبول.

كان مهران يحلق بين السحاب وينطلق خفيفا، بعد حديثه مع الجد انكب على العمل بهمة وحماس، حتى أنه كان يبذل أضعاف ما كان يقوم به هو وضاحي، لكنه ظل مشدوداً بخيوط قوية إلى إيقاع الجد العجوز الذى اعتاد أن يراه أمام عينيه طوال الوقت، فما أن يستدعيه، حتى يترك ما يقوم به ويعود مسرعا، ويسأله الجد: أين ذهبت ؟ ماذا كنت تفعل؟ تعالى سوى لنا كوبين من الشاى، أو تعالى نتغدى.

كان الجد يرخى الخيوط التى تربط مهران لينطلق، وما أن يبتعد قليلا حتى يجذبها فتتبعثر وتتشتت أحلام مهران التى يراها واضحة أمامه ويسعى لتحقيقها، وفى نفس الوقت ينازعه شعور بالانجذاب نحو هذا الجد لحنانه المفرط الذى جعله يعرف ما يدور حتى فى سريرته ويهون عليه الأمور، وهو لا يملك شيئاً يبدأ به عملا سوى قارب الجد.. قارب صغير يكفى لحركة الجد فقط. قرر مهران أن يعالج الأمر بحكمة، إذ كان يذهب مع الجد إلى البحيرة فى الصباح كما تعود، ويعود بعد منتصف اليوم ويمضى بعض الوقت للراحة، ثم يخرج ثانية إلى البحيرة للعمل مع الصيادين الذين رحبوا به للعمل معهم، لانتمائه إلى الجد من ناحية ، ولمهارته فى الصيد من ناحية أخرى ، وأحيانا ما كان يطلع معهم ليبيت فى الجزر كان يقوم بالكثير من الأعمال ، لكن النقود التى يوفرها قليلة وأحس أن الوقت سيطول.

كان يحكى للجد عن كل مايقوم به وهو يحلم بصوت مسموع ، عما تهفو إليه نفسه وحرص أن يعود للبيت ويمضى بعض الوقت مع الجد ، فتلك هى اللحظات التى يرى فيها زاهية ويملى عينيه من مرآها وهو يتساءل :

- هل تشعر بما يشعر به ؟

لكن زاهية أصبح معظم حديثها مع الجد عن ضاحى .

- نفسى أشوفه ياجدى وهو لابس الجبة والعمامة .

هل سيصبح شيخا بحق ؟ أكيد سيكون غير الشيخ محمد .. لو كنت ولدا مثله ماتركته ، ولذهبت معه ورأيت المحروسة أم الدنيا .

لفت مهران نظر زاهية فى الفترة الأخيرة فقد تغير ، وأصبحت كلماته قليلة ويبدو مهموما ترى فيم يفكر .؟ أكيد يفتقد ضاحى مثلها .

الفصل السابع عشر

لم تنقطع قوافل عمال الحفر الذين يفدون إلى الفرما فمع مطلع كل شهر تأتى قوافل جديدة وتتزايد الأعداد وبمرور الوقت ، كانوا يأتون فى مجموعات يقودها مقاولو الأنفار ويتجهون مباشرة إلى ساحة الحفر ، بينما الراحلون يتناثرون فى كل الاتجاهات . كان أهل الفرما يميزونهم بأجسادهم النحيلة الممصوصة والبشرة التى أحرقتها الشمس من العمل الشاق لشهر كامل بلا توقف ، وهم يقبضون على القروش التى بقيت من الأجر بعد اقتطاع مقاولى الأنفار منها كانوا يقضون الليل فى ساحة المناخ مفترشين الأرض ، أو يبدأون على الفور رحلة العودة سيراً على الأقدام. وكان معظم هؤلاء من قرى الوجه البحرى .

كان أهل الفرما يتابعون مايجرى فى ساحة الحفر من خلال مايرونه بأعينهم ، أو من خلال العمال الذين يترددون على المناخ طلبا لجرعة من الماء الذى يكفى بالكاد أهل الفرما أنفسهم ، فقد كانوا ينتظرون وصول المراكب التى تحمل إليهم مياه الشرب على الشاطىء ، فيأخذ منها رجال الكومبانية حاجتهم ، ثم يعقبهم الملاحظون ورؤساء العمال ، وبعد ذلك يتدافع العمال بالقلل لملئها وأحيانا لايحصلون منها على شىء .

وكان ممنوعا عليهم ترك العمل للبحث عن المياه . فما يكاد اليوم ينتهى حتى يندفعوا إلى الفرما أو إلى البحيرة يشربون من مياهها ويغتسلون فيها رغم ملوحتها .

وكم من الرجال أصابهم الإعياء لقلة المياه وظلوا ملقين فى الصحراء إلى أن

لاقوا ربهم . وكان الطعام يتكون غالبا من أرغفة الخبز الرديئة الصنع والبصل .

أما الأمر الجديد الذى ظهر مع الوقت فهو تلك الأوراق التى كان تعطيها لهم الكومبانية ليصرفوا بها مرتباتهم من البنوك فى المحروسة .

وقد أثار ذلك العمال وبقوا أياما بعد انتهاء مدة العمل يسعون دون جدوى كى يعدل رجال الكومبانية عن قرارهم ويعطونهم أجورهم نقدا ، وفى النهاية رحل معظمهم كما جاءوا دون أن يتقاضوا شيئا .

كانت الأحداث تجرى فى تواتر سريع أمام أهل الفرما ، وكان السيد القبوطى قد أوصى نساء بيته أن يوفرن قدر المستطاع الطعام من أجل بعض العمال الذين كانوا يترددون على الفرما طلبا له ، وقامت أمينة بمساعدة بعض النساء بإعداد كميات من الطعام كل يوم ، لكنها تكفى بالكاد لسد رمق بعض منهم . فتزايد عدد العمال الذين يقصدون البيت طلبا للطعام حتى لم يعد يكفيهم جميعا . ومع الوقت لم تستطع أمينة أن توفر الطعام الكافى لهم .

كانت الحكايات التى يعيشها هؤلاء العمال هى الحديث اليومى الذى يحتل أمسيات المناخ، ولم تكن هذه الحكايات تثير قلق أهل الفرما على هؤلاء العمال فقط، بل أثارت أيضا الهواجس والقلق على مصير الفرما نفسها .

إذ بدأوا يشعرون أن الفرما تفلت من أياديهم ، وماهى إلا مسألة وقت فقط حتى تقرر لهم الكومبانية ماينبغى أن يفعلوه ، كانوا يدركون أن هؤلاء الغرباء لو تمكنوا منهم فلن تقوم لهم قائمة على حد قول السيد القبوطى، فهم يفعلون ما يفعلونه مع هؤلاء العمال المساكين على عكس مايروجه مندوبو الكومبانية ومقاولو الأنفار ، ودون أن يحاسبهم أحد على مايفعلونه .

كان نقص الطعام ومياه الشرب قد بدأ ينعكس على أهل الفرما أنفسهم نتيجة مشاركة العمال لهم فيها .

كان شتاء بارد عاصف قد اجتاح شواطىء الفرما وارتفعت أمواج البحر وغمرت الشاطىء وانزوى الناس فى بيوتهم .

تأخرت المراكب التى تحمل المياه ثلاثة أيام ، كان العمال يقفون على الشاطىء في البرد القارس بانتظار أن يلوح المركب الذى يحمل مياه الشرب دون جدوى ، حتى جفت حلوقهم وتشققت من العطش . ومن تناول ماء البحر حتى أصيب بعضهم بنوبات من الإسهال .

وعقب ذلك هرب عدد كبير من عمال الحفر ناجين بحياتهم ، غير مبالين حتى بتقاضى مالهم من نقود .

وبينما كان ذلك يجرى ، كان إدريس يحاول قدر المستطاع أن ينفذاتفاقه مع مندوب الكومبانية لتوريد الأغذية ، ثم طلبوا منه أن ينقل لهم المياه إذا أمكن ذلك ، قال إدريس بينه وبين نفسه :

ما حاجتهم إلى طلب ذلك منه مع إن هناك عشرات يفعلون ذلك ، سواء بالمراكب أو بالجمال ومع تقدم العمل لاحظ النقص الشديد فى المياه فكانوا يحاولون بكل الطرق توفيرها ، واتفقوا مع واحد من كبار الصيادين فى المنزلة على نقل مياه الشرب ، كان يدعى محمد الجيار و يملك أسطولا من المراكب . قال فى نفسه : هو أمر لا يكلف شيئا. وسرعان ما اتفق مع بعض أصحاب المراكب من الصيادين على الجانب الآخر من البحيرة لتحويل المياه ، لكنهم بعد فترة لم يكونوا بحاجة للتعامل مع الكومبانية من خلاله ، خاصة أنه لم يكن متواجدا بالفرما طوال الوقت .

أما بالنسبة للحبوب ، فسألوه أن يأتى لهم بالخبز بدلا من القمح ، إذ كان عدد الخبازين الذين استعانوا بهم من المصريين والفرنسيين قليلا لايكفى الأعداد المتزايدة من العمال ، فقاموا بجلب خبازين وقاموا ببناء فرن فى الموقع ليخبز للعمال ، لكنه كان بعيدا عن ساحات الحفر بالقرب من المناخ . كان إدريس يحاول

أن يتكتم أموره ، فكان يأتى ساحل الفرما ليلا عند الهناجر المقامة بالقرب من الشاطىء ويفرغ حمولة المراكب ، ثم يعود سريعا إلى الفرما أو إلى دمياط دون أن يراه أحد . وقد حرص منذ بداية العمل على الاستعانة بأصحاب مراكب بعيدين عن دائرة معارفه .

سأله مرة المسيو جيرار مندوب الكومبانية الذى يستلم منه :

قل لى يا إدريس لماذا تأتى ليلا؟ أما زال أهل الفرما يرفضون التعامل مع الكومبانية ؟

رد إدريس :

إطلاقا . فليس بينهم وبين الكومبانية شىء ، لكن أهل الفرما يتوخون الحذر بعد سجن الرجال ، وماهى إلا مسألة وقت حتى يتغيروا تماما .

ويتساءل هو بينه وبين نفسه ، هل هى مسألة وقت حتى يكف السعيد عن خوفه؟ وهل هى مسألة وقت حتى يعلم أبوه بما يفعله ؟ ماذا سيفعل معه؟ هل يعيش معزولا عن أبيه وأهل الفرما ؟ هو لم يقو على مصارحة صهره بما يفعله بالاتفاق مع العمدة ، فكيف له أن يصارح أبوه ؟ هو وحده فقط دون أهل الفرما .. كيف ؟

قال لنفسه إن الزمن كفيل بكل شىء كما قال هو للخواجه ، فلن تستمر الأمور على ماهى عليه .

لم تكن الكلمات التى أدلى بها الحاج عبدالرحمن للسيد القبوطى سرا تناهى إليهما من الهمس الدائر فى مديرية دمياط بأسرها بين التجار وأصحاب الوكالات وأصحاب المراكب بعدم التعامل مع الكومبانية ، وعدم توريد أى مواد تموينية أو مراكب لنقل البضائع والمياه، بل كانت أوامر صريحة ومحددة ، لقيت استحسانا من الكثيرين . أما أصحاب الوكالات وأصحاب المراكب الذين يتعاملون مع الكومبانية فقد أصيبوا بخيبة أمل بعد بدأت النقود تسيل بسرعة فى أيديهم ومنوا أنفسهم بالثروات .

كانت الأوامر صريحة وإن لم تكن مكتوبة، فقد جاءت شفوية إلى مدير المديرية من رئيس النظار بناء على تعليمات سعيد باشا .

وحتى يتوخى مدير المديرية الحذر إقتداء بأفندينا ، أبلغ الأمر شفويا، وأمر رجال المديرية أن ينشروه فى كل مكان ويبلغوا من يعنيهم الأمر بذلك .

قال الحاج عبدالرحمن للسيد القبوطى :

الأخبار التى نقلت إلينا عن كبار المديرية تفيد أن الباب العالى غاضب على أفندينا لأنه حابى صديقه دليسبس على حساب مصر كلها ، وهو بذلك يمكّن هؤلاء الفرنساويين من البلد ، وهذا يغضب الباب العالى فلن يقف متفرجا والفرنساويين يقصون جناح الإمبراطورية بمساعدة الوالى ، وهو يمكن أن يفقد عرشه . يقال أيضا إن قنصل بريطانيا العظمى هو الذى أوعز بذلك للباب العالى .

فكر السيد القبوطى فيما سمعه عن تراجع سعيد باشا عن مساندة الكومبانية وتساءل ، هل يمكن أن تستمر الكومبانية بدون مساندة ؟

أما ما حدث فى الفرما فكان أكبر من ذلك ، فقل عدد العمال الوافدين على الفرما ، مما شجع رجال الفرما على التحريض ضد الكومبانية علانية متذرعين بالأوامر بعدم التعامل معهم وكانوا يعلنون ذلك على العمال القليلين فى ساحة الحفر أثناء ترددهم على الفرما ، لكن هؤلاء لم يعودوا يشكون من عدم تقاضى الأجور وعدم توافر المياه والغذاء مع قلة العدد ، إذ لم يشمل قرار المقاطعة مقاولى الأنفار الذين كانت تستعين بهم الكومبانية فانتشروا فى القرى والبلدان لجمع الأنفار . شمل الفرما الارتياح وعادت الحياة مثلما كانت وجاء موسم الحج فاحتُفل به أكثر من السنوات السابقة .

جاء ضاحى وفوجىء به جده على الشاطىء ، وهو يلف يده حوله ويضمه بشده.

بوغت السيد الفرماوى ، ولم يصدق نفسه وأخذ يصيح بأعلى صوته :

ضاحى .. ضاحى .. ضاحى جاء .. يامهران .

التف حوله كل من فى الشاطىء وأخذ مهران يقفز فى الهواء ، بملابسه المبتلة ضم ضاحى إلى صدره . والتف حولهم كل من على الشاطى .

إتجه ضاحى إلى البيت ، وجده يستند عليه، يحيط بهم الشبان وهم يهللون. وانضم إليهم كل من لاقوه فى الطريق . ووصلوا ساحة المناخ فى موكب كبير تسبقه صيحات :

ضاحى وصل ....

إرتمت زاهية فى أحضانه ، ثم أخذت تضربه بقبضتها وتبكى وتضحك . وجاء أبوه وأمه على الجلبة ، وكذلك جدته سكينة وسائر أفراد الأسرة .

سأله أبوه :

ماهى أخبار الشيخ محمد ، ولماذا لم يأت ؟

قال ضاحى :

طلب منى أن أنتظره ، لكنى لم أستطيع ، سيأتى فيما بعد .

أخذ يحكى لهم عن المحروسة وما رآه فيها بإسهاب وليس باقتضاب كما يحكى الشيخ محمد ، كل شىء فيها .. العلم والدراسة واللهو .

سأله أبوه عن الدراسة بالأزهر، فقال :

– هؤلاء المشايخ يصعب الكلام معهم فهم يريدون أن نردد كل مايقولونه ولا يسمحون بالنقاش .

قال الشيخ صديق العريف :

– أنت ياضاحى تجادل فى كل شىء منذ كنت صغيرا ، لسانك سابقك .

قال ضاحى :

- كيف لا أجادل يامولانا ، وإلا فيما خلق الله لنا العقل ؟

شارك ضاحى فى احتفالات الحج ، ووقف ينشد فى ساحة المناخ بصوت جميل شد الجميع والكل مبهور بما يسمع ثم أخذوا يرددون وراءه :

ياجمع صلى   الصلاة على النبى

والله وصلاة   النبى مكسبى

يارب حجة   ونزور النبى

والله ونزوره   ونشاهد نوره

كان يصطحب جده ومهران إلى شاطىء البحيرة، وتذهب زاهية معهم بعد أن صار ذهابها إليه نادراً، لأن الشاطىء أمتلأ بالغرباء من عمال الحفر ، وكانت قد توحشت الجلسة على الشاطىء .

أخذ يحكي لهم هناك عن المحروسة مالم يحكه فى الساحة .. عن الموالد التى تقام هناك وفرق الإنشاد والمغنى والطرب ، والمطربين الذين استمع إليهم ، حكى كيف تعرف على أفراد إحدى الفرق وغنى معهم فى أحد الاحتفالات فى بيت أحد الوجهاء ، قصر فخم تتوسطه ساحة واسعة امتلأت بالرجال ، يتصدرهم كبار الأعيان ، بينما النساء يشاهدن من خلف الشبابيك الموارية والمشربيات ، وظلوا يغنون حتى منتصف الليل .

ضحك السيد الفرماوى :

- الله يحظك ياضاحى .. رحت الأزهر تتعلم فتركت ذلك إلى الغناء .. وهل تركك الشيخ محمد تجرى وراء المغنين ؟

نظر ضاحى إلى جده بخبث قائلا : الشيخ محمد لديه الكثير ، فهو مصمم أن يشكونى لأبى ذلك لأنه يعتبر المغنى مفسدة ، مع أن والله هناك شيوخ كثيرون يغنون. هو يريد أن أفعل كل ما هو يفعله لكن الناس ليسوا مثل بعضهم، وكل مهيأ لما خلق له .

واصل الجد الضحك وضحكوا معه جميعا، فقال الجد :

– اه منك .. لسانك سابقك كما قال العريف ، كان الله فى عون الشيخ محمد .

قال مهران :

– إفتقدناك كثيرا ياضاحى ، والله كان بودى أكون معك وأرى الدنيا .

قالت زاهية :

– هل ستعود إلى المحروسة ثانية ؟

– طبعا .. من يعيش فيها لا يسلاها .

– يعنى ناوى تهجرنا ؟ تهون عليك الفرما ؟

– الفرما .. لاتغيب عنى دقيقة واحدة ، لكن ربنا خلق الأرض الواسعة من أجل أن نرى ونتعلم . ألا يقال أن فى السفر سبع فوائد .

كان الشبان والرجال على الشاطىء قد تجمعوا حولهم وهم يستمعون إلى ضاحى ويسألونه وهو يجيب .

قال لهم :

– أخذتمونى فى الكلام. ماهى أخبار الفرما ؟

قال مهران :

– أخيرا، توقف العمل فى الحفر .

– هل رحلوا ؟

– مازال رجال الكومبانية موجودين ولكن بأعداد قليلة ، العمال هم الذين يأتون، ويقال إن خلافا حدث بينهم وبين أفندينا فأصدر أوامره بعدم التعامل معهم.

– الحمد الله . تصور ياجدى .. أن الشيخ الذى أدرس معه عرف أننى من الفرما ، فقال لى :

– أنت من المحظوظين ، فقد جاءكم الخير تحت أقدامكم لتنعموا به بحفر الترعة ، فقلت له :

– وكيف يأتي الخير على أيدى هؤلاء الأغراب ، فالخير لهم والتعاسة لأهل الفرما . وحاولت أن أحكى له ما حدث عندما جاءت الكومبانية .

ثم قال مقلدا الشيخ: ماذا تقول ياولد؟ وأفندينا سعيد باشا يعرف مصلحة البلاد والعباد ، وقد أرسل مولانا شيخ الأزهر ليبارك مشروع الكومبانية ثم تأتى أنت ياصياد يا صعلوك لتعترض على ذلك . إياك أن تفتح فمك بمثل هذه الترهات. ولما حاولت أن أشرح له طردني ، ولما حكيت ماحدث للشيخ محمد قال لى :

أنت جئت للتعلم ، مالك أنت وذلك. هذا الكلام نقوله فى الفرما ، وليس للناس هنا شأن به. فقلت له أنسيت ماحدث لرجال الفرما بسبب ذلك؟ فقال لى :

أنا أعرف، ورأيى مثلك تماما، لكن هؤلاء لا يفهمون ما نعرفه نحن .

قال زاهية :

– دعك منهم ياضاحى ، فهم لايعرفون شيئا ، إبق معنا هنا .

وقال مهران :

– نعم ياضاحى ، أنت تفهم الناس هنا وهم يفهمونك ، والكل يفتقدونك .

قال ضاحى :

– لم أشبع من المحروسة بعد ، وهناك أيضا أناس طيبون ويشعرون بما يحدث.

كان السيد الفرماوى ينظر عبر البحيرة شاردا ، ثم التفت إلى ضاحى قائلا :

إسمع يابنى الشيخ محمد غيرك ، فقد انصرف إلى العلم منذ صغره ولم يعش بيننا كثيرا ، وهو بالتأكيد رأيه فى الكومبانية مثل رأينا ، لكنه لم يعش معنا المصائب يوما بيوم كما عشناها .

بعد بضعة أسابيع جاء الشيخ محمد واجتمع شمل الأسرة .

كان قد أكمل تعليمه بما أتاح له الحصول على وظيفة إمام جامع فى الخليفة ، وأخذ يحكى لأبيه عن علمه وعن الدروس التى ينظمها فى الجامع والأسئلة التى تشغل بال العامة . وسعيه لإكمال الدراسة على أيدى كبار الشيوخ فى الأزهر لدراسة الشريعة حتى يصبح قاضيا شرعيا .

قال له أبوه : يبدو أنك لاتنوى الرجوع للفرما وأصبحت من أهل المحروسة .

قالت له أمينة :

– ألم تفكر بعد فى الزواج لتلحق بإخوتك، أمنيتى أن أرى أولادك مثل أولادهم.

قال لها :

– سوف تفرحين عن قريب بإذن الله .

– صحيح ؟ من الغد سوف أبحث لك عن أجمل بنات الفرما . فتاة تليق بك وتصبح زوجة لعالم مثلك .

تردد قليلا ثم قال :

– لقد استقريت على العروس وستنال رضاك أنت وأبى بإذن الله .

– من هى ؟ من مصر ؟

– نعم يا أمى ، وأهلها أناس طيبون وميسورو الحال . هى إبنة صاحب الربع الذى كنت أسكن فيه ، أبى يعرفه ويقدره .

لم تستطع أمينة أن تخفى شعورها بخيبة الأمل، فقالت له :

– غريبة ، ستربطك بالمحروسة ولن تستطيع العيش فى الفرما مثل زوجة أخيك إدريس التى لايعجبها حالنا ، لن يرتاح لها بال حتى تأخذك لتبقى بجوار أهلها .

لم يستطيع أن يقول لها إنه قد رتب أموره على العيش فى المحروسة ، وقال لها :هؤلاء أناس طيبون يراعون الله، وأبوها رجل تقى ، وسوف تأتين لترينها بنفسك.

أما أبوه، فقد أمن على كلامه ، وأبدى ارتياحا لاختياره .

إتفقوا على أن يذهب أبوه وأمه معه لحضور العرس . وتشبثت زاهية بالذهاب معهم إذ لم تجد فرصة أنسب من تلك لرؤية المحروسة .

كان ضاحى قد قرر أن يبقى فى الفرما لفترة أطول ، لكنه مادام سيذهب فى نهاية الأمر فقد قرر أن يذهب معهم .

قال الشيخ محمد لأبيه :

أريد أن أشكو لك مما يفعله ضاحى فى مصر .

قال السيد الفرماوى :

– خير .. ماذا فعل ؟

– أيصح أن يترك العلم ليجرى وراء الآلاتية والغناء واللهو ، ثم يترك البيت ليبيت مع هؤلاء الناس ويهمل دراسته ؟

قبل أن يعلق أبوه ، قال ضاحى :

– أنا أغنى فى الفرما قبل أن أذهب إلى المحروسة ، أحرام الغناء فى المحروسة وحلال فى الفرما فقط ؟

لم يستطع السيد الفرماوى أن يمنع نفسه من الضحك ، وقال له :

– لكن الغناء لايكون على حساب العلم . أنت ذهبت للمحروسة لتتعلم لا لتغنى، تعلم أولا ، وبعد ذلك لن يمنعك أحد من الغناء .

قال ضاحى :

– هناك شيوخ كثيرون يغنون ومعظمهم أزهريون ، ثم أنا أنشد التواشيح الدينية وشعر المتصوفة ، مثل تلك الأغانى التى كنت تستمع إليها أنت وجدى فى دمياط .

قال الشيخ محمد :

– هولاء يلهيهم الطرب عن العلم والدين الصحيح ، وأنت تسير وراءهم وتعصى شيوخك الذين يلقنونك العلم والدين القويم .

قال ضاحى : تقصد الشيخ عكاشة ؟ تصور يا أبى أنه طردنى لأنى لم أوافق على رأيه عندما قال إن الترعة التى يحفرها الفرنسيون فى الفرما ستعود عليكم بالخير وستنعمون به ، ولما حاولت أن أشرح له مايحدث قال لى من أنت يا صعلوك حتى تعترض .

أحس الشيخ محمد بالحرج لاستطراد ضاحى فى الكلام فقال له: هم لايعرفون الأمور مثلما نعرفها ، بل كما يمليها عليهم الكبار ، ولكن هذا لايمنع أن تتعلم منهم بدلا من الجرى فى الموالد والغناء فيها .

قال السيد القبوطى :

– أنا معك.. أن لايكون الغناء على حساب العلم ، لكن مايجرى فى الفرما لابد أن يعلم به الجميع ، خصوصا هؤلاء العلماء .

قال إدريس الذى كان يتابع الحوار :

– الغناء لايحتاج إلى إلذهاب إلي المحروسة، أم أنك تريد أن تكون صييتا وتصبح تلك مهنتك ؟

قال ضاحى :

– كل مهيأ لما خلق له .

– لا نأخذ منك إلا سلاطة لسان .

بدأت أمينة الاستعداد للسفر وشراء هدايا العروس .

قال لها الشيخ محمد :

– لاتتعبى نفسك ، المحروسة فيها كل شىء . لكنها صممت أن تذهب إلى دمياط لتشترى أقمشة للعروس وعطارة وثيابا جديدة لهم كى يحضروا بها .

كان الشيخ محمد يود أن يذهب الرجال فقط ، لكنه لم يستطيع أن يجادل وكل يأخذ أهبته للذهاب ويمنى نفسه برؤية المحروسة .

كان مهران أكثرهم فرحة ، لأنه سيكون فى صحبة زاهية التى ستحضر العرس إذ كان لايريدها أن تبتعد عن عينيه . وأخشى مايخشاه أن يتقدم لها أحد قبل أن يعد نفسه بما يليق بها .

الفصل الثامن عشر

شكل قرار المقاطعة مأزقا بالنسبة لإدريس . فقد كان أصحاب المراكب يخشون مخالفة الأوامر الصادرة بوقف التعامل مع الكومبانية ، وكذلك الأمر بالنسبة للتجار وأصحاب الوكالات فى دمياط وسائر البلدان والقرى .

فى نفس الوقت يلح عليه مندوب الكومبانية ، ورغم أنه شرح له مرارا ما يواجهه من صعوبات أنه أخذ يضغط عليه إلى درجة التهديد .

لعنه إدريس فى سره وهو يحاول أن يسترضيه .

وها هو أبوه ينتهز الفرصة لإحكام المقاطعة والهجوم على الكومبانية .

وأصبح ذلك هو الحديث اليومى فى ساحة المناخ ، إذ لايكفون عن الحديث عن الفلاحين الذين حكوا لهم عما قاسوه فى الحفر من جوع وعطش واقتطاع الأجور، ولولا المقاولون الذين يحتجزون أجورهم لتركوا العمل من الأيام الأولى ، كما كانوا يحكون لهم عن المزايا التى يتمتع بها العمال الأجانب سواء فى الأجور أو الطعام والمسكن والمعاملة ، فهم يوفرون لهم الطعام الجيد ، وقد أعدوا لهم الهناجر بشكل مريح للمبيت ، كما ينوون إقامة مساكن لإقامتهم ، بينما هم ينامون مكدسين داخل الخيام وعشش الكيب أو فى الطل ، ولا تصرف لهم الكومبانية سوى الخبز المقدد والبصل وثمنهما يخصم من أجورهم ، وماء الشرب لايحصلون عليه إلا بشق الأنفس ، رغم العمل الشاق الذى يقومون به طوال اليوم ، فالمقاولون دائما مايقتطعون من الأجر بدعوى أنهم لم يؤدوا المقطوعية المطلوبة .

ورغم صدور الأوامر من المديرية بوقف التعامل مع الكومبانية واصل مندوبوها

وبعض مقاولى الأنفار التجوال فى القرى بدأب لجمع الأنفار وإفهام الأهالى أن العمل سيستمر ، وليس صحيحا مايقال أن أفندينا غاضب عليها ، لأن لو كان ذلك صحيحا لطرد رجال الكومبانية وأوقف أعمال الحفر ، وأن ذلك الكلام يردده ذوو النفوس السيئة الذين لايعرفون مصالح بلدهم أو مصالحهم .

وفى محاولة من الكومبانية لجذب العمال ، أشاعت أنها رفعت الأجور .

رغم ذلك، لم ينجح المقاولون إلا فى جمع أعداد قليلة ، وأعلن مشايخ البلدان فى كثير من القرى موقفهم بعدم التعامل مع الكومبانية وأنهم لن يخالفوا الأوامر التى صدرت إليهم من المديرية . وأمروا الناس ألا يذهبوا .

كان نقل التموين إلى الفرما صعبا على إدريس فى ظل قرار المقاطعة ، لاسيما أن النقل كان يجرى سرا دون علم أحد من أهل الفرما أو علم صهره الحاج عبدالرحمن . فكان يذهب إلى أماكن بعيدة لإحضار الحبوب ، وكانت زوجته تضغط عليه كى تبقى فى دمياط هى والطفلين .

وبدأ يضيق بالمعيشة فى منزل أسرتها . حنق عليها فهى لاتريد أن تفطم عن أمها ، وتندمج مع أهل الفرما ، وخلال اقامتها فى الفرما تغلق بابها على نفسها ، ولا تتحدث إلى أحد . لكنه أخير وجد فى ذلك ذريعة للتخفى عن أهل الفرما .

لم يجد سوى كهرمانة ملاذا للبعد عن همومه.. فهى لم تكف عن ملاحقته وأخذه بالملاينة حتى عاد إليها ثانية .

كانت تدرك مايعانيه فى علاقته بزوجته فاحتوته .

كان يذهب إليها متسللا آمنا من شكوك زوجته ، التى لم تخطر على بالها تلك العلاقة التى ربطت زوجها بتلك الغجرية ربيبة الموالد والطرقات ، وكان يتعلل أمام زوجته بأنه ذاهب إلى الفرما ، وأراحها أنه لم يعد يلح عليها أن تصحبه .

مع إلحاح مندوب الكومبانية ، الذى لم يكف عن تذكير إدريس بأنهم تدخلوا للإفراج عن الرجال الذين كانوا فى الحبس والتغاضى عن حق مواطن فرنسى

يتمتع بالحماية أعتدى عليه شباب الفرما ، وجد إدريس نفسه فى مأزق . كان عليه أن يسعى للخروج منه ، وقرر أن يفاتح أخاه السعيد ليتعاون معه ويسهل مهمته .

وقبل أن يفاتحه قام بنقل كميات كبيرة من البضائع إلى الوكالة حتى إزدحمت بها المخازن ، رحب السعيد فى البداية ، لكن إدريس أخذ يحضر المزيد حتى أصبح يتحرك بصعوبة فى المكان ، فقال له :

ألا ترى أن تلك البضائع أكثر من اللازم؟ فرغم إقبال التجار والأهالى مازال المكان مزدحما .

قال إدريس : هل أصبح يقلقك أن تمتلىء الوكالة عن آخرها بالبضائع وتتوسع تجارتك. أليس هذا ماكنت تسعى إليه دائما ؟

– ماذا تنوى أن تفعل بالضبط ؟

– سأقول لك كل شىء فيما بعد ، لا تحمل هما .

ما أثار هواجس السعيد أيضا أن إدريس أصبح يمكث أوقاتا طويلة فى الوكالة ويشرف بنفسه على تخزين البضائع وترتيبها ، بل اقترح إضافة مخازن جديدة إلى الوكالة ، وهذه أشياء لم تكن ضمن اهتمامات إدريس قبلا ، فالعمل بالوكالة وتنظيمها كان يقوم به بمساعدة عوض. سأله :

ماذا تنوى أن تفعل بكل تلك البضائع ؟

– أليس هذا ما تريده ؟ أن تمتلىء الوكالة عن آخرها .

– نعم ، لكن لم يعد فى الوكالة موطىء لقدم . أهناك سر تخفيه عنى ؟

– إسمعنى جيدا . لابد أن تعرف مايدور حولك ، ومايحدث فى الفرما الآن ، أنت استغرقك العمل فى الوكالة مع صغار التجارالذين يتعاملون معك ، ولا ترى أبعد من هذه الجدران . أنا أريدك أن تنظر للأمام .... لما ستأتى به الأيام القادمة، بدلا من أن تظل كما أنت فى مكانك ، فلن يعود أى شىء كما هو الآن .

ضاق السعيد بكلام إدريس ، فهو يردد نفس الكلام الذى يقوله أبوه، إنه لايرى سوى مخازن الحبوب ، لكن أباه يقول ذلك كى ينصحه بأن يوسع معاملاته مع صغار التجار فى الفرما ، ويسوق له المثل بالحاج عبدالرحمن التابعى ، الذى وقف معه هو وجده فى بداية عملها بالتجارة وأمدهما بما يحتاجانه على أن يدفعا الثمن آجلا ، ولولا ذلك ما استطاعا أن يشقا طريقهما فى التجارة ، وفى نفس الوقت فإن التاجر الذكى الذى يعمل ذلك مع صغار التجار يعمل فى نفس الوقت على توسيع تجارته .

لكن كلام إدريس وتلميحاته فى الفترة الأخيرة أصبحت تثير قلقه ، فماذا الذى يدور فى رأسه ؟ وما الذى يدبره ؟

لم يتركه إدريس طويلا للتخمين، قال له :

أنظر حولك فى الفرما ، فسوف تتغير أشياء كثيرة فيها عما قريب ، فتلك طبيعة الأمور . الفرما التى نعيش فيها الآن ليست هى الفرما التى كان جدى يحكى لنا عنها عندما جاءها ، وليست هى الفرما التى جاءها أبى ، ولن تكون عما قريب هى نفس المكان الذى ربينا وعشنا فيه . وإذا لم ندرك ذلك ، سيأتى غيرنا ليقوم بما يجب أن نفعله نحن ، ولن تصبح لنا نفس المكانة فى الفرما .

– ما الذى تريد أن تقوله بالضبط ؟

– إسمعنى جيدا ، الفرما لم تعد قاصرة على أهلها ، فالناس يأتون إليها من كل مكان وعما قريب ستمتلىء بالخلق ، وسيبنون بيوتا ليقيموا فيها ويصبحوا من أهلها ، وإذا اقتصرت تجارتنا على هؤلاء الناس الذين نتعامل معهم الآن ، فسيأتى تجار آخرون ليتعاملوا مع الجميع وتنمو تجارتهم بينما سنظل نحن فى مكاننا .

– من تقصد بالضبط ؟ هؤلاء الفلاحين الذين يأتون للعمل فى الحفر كل شهر

ويعودون إلى قراهم وهم لايملكون سوى بضعة قروش ، ويسرعون بالعودة إلى قراهم بعد انتهاء شهر العمل ، أم من تعنى بالضبط ؟

– أنت لاتفهمنى جيدا . أنا أقول لك أنظر للأمام .. إلى السنوات القادمة وما ستأتى به فرجال الكومبانية الذين يتولون تنفيذ الحفر سوف يبقون ، وسيقومون بإنشاء ميناء سيصبح أكبر من ميناء دمياط نفسه ، وبعد حفر القنال ستأتى إليه السفن من كافة أنحاء الدنيا ، وسيجيئ الناس من كل صوب ليقيموا فى الفرما للعمل والتجارة . أين سنكون نحن وقتها ؟ هل نظل كما نحن ونرى الأغراب يقيمون الوكالات ويكبرون ، وتصبح لهم اليد العليا فى الفرما بعد أن كنا نحن كبارها ؟

نظر السعيد إلى أخيه متوجسا بعد أن أطال الحديث ، فى انتظار مايريد أن يصل إليه .

قال إدريس :

– التاجر الذكى هو الذى يعرف اتجاه الريح .

– أوضح ماتريد قوله بالضبط .

– أن نبدأ من الآن التعامل مع الناس الموجودين فى الفرما .

– أتقصد الكومبانية ؟!

– الكومبانية وغيرها ، ولم لا ؟

وقف السعيد محملقا فى أخيه الذى بدا له فى تلك اللحظة كأنه يدبر خطة جهنمية ، فالأمر به مساس بأبيه وموقفه أمام أهل الفرما ، وهو الذى لم يكف عن الحديث عما ستجلبه عليهم ، ولم يشأ السعيد أن يترك أخاه يتمادى فى غيه ، فقال له :

– أعرض الأمر على أبى ، وماسيشير به سنفعله .

قال إدريس :

- أنت تعرف موقف أبى ، لن يوافق .

- إعرض عليه حجتك مادمت ترى أنها صواب .

قال إدريس :

- بالطبع ، سأخبر أبى ولكن ليس الآن .

ولأول مرة يتدخل فى الحديث عوض ، الذى كان يستمع حديثهما .

قال السعيد :

- دع أخاك يكمل حديثه واستمع إلى كلامه فلديه دراية بما لانعرفه .

لم ينتبها لوجوده وسط احتدام النقاش حتى تدخل فى الحديث .

أشار إليه إدريس قائلا :

- هذا هو الكلام .

قال السعيد لعوض : وما شأنك أنت بما يدور بيننا .

أحس عوض بتورطه ، فلزم الصمت خشية من السعيد .

قال إدريس : لا تغلق نوافذ عقلك . أنا أعرف أن أبى سيرفض فى البداية ، وربما يثور ، لكنه فى النهاية لايكره الخير لنا . والفرصة أمامنا الآن ، وإذ لم نغتنمها سيأخذها غيرنا وسيكون من الصعب أن نستعيدها ، ولا أحد يضمن الظروف .

قال السعيد بعد طول تردد :

- قل ماتود أن تفعله بالضبط ، ودون مواربة .

قال إدريس :

- الموضوع فى منتهى البساطة ، رجال الكومبانية يريدون الحصول على التموين ، والناس تخشى التعامل معهم الآن بسبب الأوامر الصادرة بمقاطعتهم ، وهناك تجار يحملون إليهم فى الخفاء مايحتاجونه ، وأولو الأمر يعلمون ذلك ولا يعترضون طريقهم ، معظمهم من رشيد والأسكندرية ، كل هذا ونحن واقفون نتفرج. أنا سأجلب البضائع للوكالة كما أفعل ، وسأزيد الكمية ، ويمكن أن نحملها

إليهم فى الخفاء ، وليكن ليلا دون أن يدرى أحد .

صمت السعيد وهو يزن الكلام ، فقال له إدريس :

– إذا كنت تخشى شيئا فاترك لى تلك المهمة وسأستعين بعوض واترك لى مهمة إقناع أبى تدريجيا . المهم أنك أخى ويجب أن تقف بجانبى بدلا من الاستعانة بالغرباء . وأنت أولى بالخير الذى سيأتى .

لم يترك إدريس للسعيد فرصة للتفكير أو التراجع ، دفع إليه بمبلغ من المال وسرعان ما قام بمساعدة من عوض بنقل البضائع ليلا إلى مقر الكومبانية بالاستعانة بجمالين من خارج الفرما ، فى غياب السعيد ، وسرعان ما أخذ إدريس يدفع بكميات ضخمة من البضائع إلى الوكالة .

عندما رأى تجار الفرما تدفق البضائع التى يأتى بها إدريس تزايدت مطالبهم، وبدا السعيد أكثر طواعية فى تلبيتها كما نصحه إدريس ، حتى لايتسرب الشك إلى نفس أحد منهم ، وكانت الأموال التى دفع بها إدريس إلى السعيد أكثر بكثير مما يتخيل ، ففى أيام قليلة حصل على مبلغ لم يكن يحلم به خلال عمره فى العمل بالوكالة .

كان حماس عوض للعمل مع إدريس قد أزاح عنه هم القيام بالعمل بنفسه ، وخفف من مخاوفه ، لكنه مع الوقت بدأ يشعر أن عوض أصبح أكثر ارتباطا بإدريس ، رغم أنه أمضى معظم عمره معه . إذ بدأ عوض يراجعه فى كثير من الأمور حاملا وجهة نظر إدريس ، بعد أن كان يخشاه ، ولم يجد بدا من التغاضى ، خاصة أن ذلك لم يؤثر على القيام بأعماله المعتادة على خير وجه .

شرعت الكومبانية فى إقامة أبنية جديدة بالقرب من ساحة الحفر ، وخيب ذلك توقعات الناس الذين تصوروا أن توقف أعمال الحفر بعد الأوامر الصادرة بعدم التعامل معهم مؤشر على رحيلهم عن الفرما .

قال إدريس للسعيد :

– ألم أقل لك . وجود الكومبانية أصبح أمرا مسلما به ، وغدا سيأتى عمال الحفر من جديد ، وبأكثر مما كانوا ، وتمتلىء القرما بالناس من كل صوب . ونحن الآن قد أكدنا وجودنا لدى رجال الكومبانية ، فماذا كانت ستجدى المقاطعة ....

بدا السعيد أكثر اقتناعا بوجهة نظر أخيه . وبعد أن كان يترك أمر التعامل معه لعوض أصبح يصر على معرفة كل كبيرة وصغيرة مما يجرى حوله حتى لا تفلت الأمور من يديه وأصبح يشير على أخيه بما يجب أن يفعله .

رحب إدريس بذلك . فلم يعد وحده .

كان إدريس يعلم أن تعامله مع الكومبانية سينكشف إن عاجلا أو آجلا ، ولم يرد أن يواجه الموقف وحده ، فلم يكتف بضم السعيد إلى صفه ، بل سعى أيضا لاكتساب إبراهيم أبوالمكارم زوج أخته فاطمة . فإبراهيم يملك مركبا يبحر فى المالح ، ويمكن أن يستعين به فى نقل البضائع إلى مقر الكومبانية ، بدلا من الاستعانة بالأغراب .

قال له فى البداية أنه يود نقل بعض حمولات من البضائع من دمياط .

قال إبراهيم مترددا :

– أنا أعمل فى الصيد ومعى صيادون يعتمدون على العمل معى ، وهذا أكل عيشهم .

قال إدريس :

– وما المانع أن يعملوا معك أيضا فى نقل البضائع ، ولن أبخسهم حقهم .

وقبل أن يشرع إبراهيم فى العمل معه دفع إليه بمبلغ كبير من المال .

قال إبراهيم :

– مادمت ستراعى حقوق هؤلاء الناس فالمركب مركبك .

كانت موافقة إبراهيم مكسبا كبيرا لإدريس ، فإبراهيم قريب منه ويستطيع

الإعتماد عليه ويجده عند الحاجة ، وإن تكتم عنه أمر التعامل مع الكومبانية ، وكانت المبالغ التى يدفع بها إليه كبيرة ، حتى إن إبراهيم نفسه أشار إلى ذلك متحرجا .

وقبل أن يسافر مع الأسرة إلى المحروسة لحضور عرس الشيخ محمد ، نقل كميات كبيرة من البضائع إلى مقر الكومبانية ، وقرر هو والسعيد أن يعودا إلى الفرما على الفور بعد انتهاء العرس .

الفصل التاسع عشر

بدأت الاستعدادات للعرس فور وصول آل القبوطى إلى المحروسة .

إستقبلهم أهل العروس فى بيتهم الكبير بالجمالية ، الذى يتألف من ثلاثة طوابق ويحتوى على فناء واسع . استقبل أبوالعروس رجال الأسرة ، وتمت قراءة الفاتحة وانطلقت الزغاريد . قال أبوالعروس للسيد القبوطى والسيد الفرماوى :

– والله منذ رأيت الشيخ محمد عندما أتى بصحبتكم ارتحت له لما توسمت فيه من جدية ، ولم يخب ظنى فيه ، فقد انصرف إلى الدراسة بجد واستقامة ولم يستهوه اللهو الذى يستهوى الشبان فى مثل سنه ، قلت هذا الشاب سيكون له شأن كبير ، وغدا سيكون قاضيا أو عالما كبيرا نفخر به جميعا .

أخذت أم العروس النساء إلى المكان الذى أعدته لهن ليأخذن قسطا من الراحة بعد السفر الطويل ، لكن أمينة أبدت رغبتها فى رؤية العروس ، فأحضرتها أمها .

وجاءت العروس خجلة متعثرة، وأجلستها أمينة بجوارها وهى تربت عليها قائلة :

– ماشاء الله ونعم التربية .

كانت صغيرة الحجم مثل زاهية وتتحدث بصوت لايكاد يسمع ، قالت لها أمينة:

– فيم الخجل منا ، فقد أصبحنا أسرتك الثانية . عرفتها بالنساء وسلمت عليها كل منهن وهن يمتدحن حسن العروس ، وحسن اختيار الشيخ محمد لأصهاره وللعروس .

أما توحيدة ، فقد قالت لعائشة وقد انتحت بها جانبا :

– أهذه من وقع اختياره عليها من بين بنات المحروسة ؟

قالت لها عائشة :

– ماذا بها ؟ أهلها طيبون ، وهى صغيرة السن .

لم تجد توحيدة مجالا للاستطراد، فلوت شفتيها وانتحت جانبا .

كان أهل العروس ميسورى الحال كما تبين من البيت الكبير وعدد الخدم الذين يعملون فيه ، فشعرت بالغيرة ، فهى ليست مثل عائشة ، التى بدأ أبوها حياته بائع قماش متجول وأمها التى عملت دلالة ، كما كانت تقول دائما لإدريس وهى تمن عليه بزواجها منه .

لم تكتف أمينة بالهدايا التي أحضرتها للعروس ، إذ راحت بعد زيارتها لمسجد الحسين تتجول فى شوارع الأزهر وتشترى كل مايروقها للعروس ولبيت الزوجية ، وذهبت مع أم العروس للإشراف على إعداد بيت العروسين الذى استأجره الشيخ محمد بالقرب من بيت أصهاره ، واصطحبت معها النساء .

أما ضاحى، فقد اصطحب مهران وأخذ يتجول به في أماكن كثيرة .

كان مهران مبهورا بما يراه من بيوت وجوامع كبيرة وشوارع مزدحمة بالبشر ومحلات ومقاهى وورش .

– ياسلام ياضاحى .. نفسى أبقى بجانبك هنا كم يوم .

– ولماذا لاتبقى معى دائما ؟

– المشكلة أني لا أستطيع أن أعيش بعيدا عن الفرما ، أو أغيب طويلاً عنها .

– إلى هذا الحد تحب الفرما .

– جدا ياضاحى .

– أنا أيضا ، أشعر دائما أننى سأعود لأستقر فى الفرما لكن لابد أن أشوف الدنيا .

كاد لسان مهران يزل ويخبر ضاحى بحديثة مع الجد ووعده بأن يزوجه زاهية وخشيته أن يبتعد عن الفرما ، إذ لايتخيل أن تتزوج بغيره ، وقد أصبحت فتاة جميلة تتطلع إليها الأنظار .

اصطحبه ضاحى إلى الآلاتية الذين يعمل معهم ، فى ربع ذى بوابة كبيرة تحتوى على عدة مساكن ، صعدا عدة درجات وطرق الباب ، ففتح له شيخ متوسط العمر ، قدم مهران إليه قائلا :

– هذا مهران شقيقى الذى كنت أحدثك عنه .

رحب الشيخ بهما وأعد بنفسه الشاى ، قال له ضاحى :

– هناك عرس غدا .

ضحك الشيخ جمعة وقال له :

– الزبائن يأتون لكى ليتفقوا معك الآن .

قال ضاحي : كل مافي الأمر أن العريس شقيقى .

– والعرس هنا أم فى الفرما ؟

– عرس الشيخ محمد ، سيتزوج بنت تاجر كبير من الجمالية .

تهلل الشيخ قائلا :

– إن شاء الله سنشرفك . لكن إياك أن تأكل علينا الأجر ، سنجعلها ليلة يحكى عنها الناس ، لكن فتح مخك معنا .

قال ضاحى :

– لا تحمل هما من هذه الناحية ستنبسطون جميعا .

– خلاص ، سأجمعهم على الفور ويجب أن تحضر لتتدرب معنا ، ونتفق على الأدوار .

عندما قال ضاحى فى حضور الشيخ محمد وصهره إنه قد اتفق مع فرقة الآلاتية وسيغنى معهم ، انزعج الشيخ محمد وأحس بالحرج ، وقال الحاج هاشم صهره : أتغنى أيضا ياضاحى؟ أتطربنا الليلة ؟

- بإذن الله .

- أتعرف أن الشيخ عبدالله الشرقاوى سيأتى الليلة ؟

قفز ضاحى واقفا : صحيح !

- ستسمعه الليلة .

كان الشيخ عبدالله الشرقاوى من أكبر المغنين والمنشدين ، ذاع صيته فى أنحاء مصر .

فرح ضاحى لأنه سيراه ويسمعه عن قرب ، وهو يأمل أن يستمع إليه الشيخ عبدالله وهو يغنى أيضا أمامه مع تخت الشيخ جمعه .

بينما دار هذا الحديث إنتحى الشيخ محمد بأبيه قائلا :

- ضاحى لايكف عن العبث ، هل أقول إن أخى يغنى الكلام الفارغ ؟ ومن أذن له ؟

ناداه أمام أبيه وقال له :

- ما هذا العبث الذى تفعله ؟ وماذا يقول الناس عنا ؟ أتغنى هذا الكلام الفارغ أمام الناس ؟ ونحن اتفقنا على أداء الإنشاد الدينى ، ثم تأتى أنت وهؤلاء الآلاتية المجانين ...

قال ضاحى :

- هؤلاء فنانون محترمون ولا يصح الكلام عنهم هكذا ، فعندما عرفوا أن أخى هو الذى سيتزوج جاءوا للتحية . ثم إننا سننشد غناء دينياً بجانب الأغانى التى سنؤديها .

كظم الشيخ محمد غيظة بينما انتحى ضاحى بأبيه جانبا وقال له :

- ليس الأمر كما يتصور الشيخ محمد ، فهم أناس جادون يقدمون الأغانى الجميلة .. وحياتك يا أبى حاول أن ترضيهم ، فهذا أكل عيشهم وستسمعهم بنفسك ، وإذا لم يعجبوك لاتدفع شيئا ..

قال السيد القبوطى :

- سنرى ياضاحى ، لأعرف فيم تضيع وقتك هنا .

مال على يد أبيه يقبلها ، وأسرع إلى بيت الشيخ جمعة ليختار معهم الأغانى التى سيغنونها ، واصطحب مهران معه .

كان بيت العروس من الصباح الباكر مثل خليه النحل . ذبحت الذبائح وقام الخدم على إعداد الطعام الذى انتشرت رائحته فى أرجاء البيت . أعدوا الفناء لمجلس الرجال وصفت فيه الكراسى والمنصة ، وعلقت الزينات وأعدت المصابيح للإضاءة . ذهبت العروس بصحبة صديقاتها ونساء الأسرة الشابات إلى الحمام ، ودعون نساء أسرة القبوطى للذهاب معهن، ذهبت فاطمة وزاهية وعائشة ، ورفضت توحيدة التى طلبت من زوجها أن يفرجها على المحروسة .

مع قدوم الليل بدأ وصول المدعوين من أقارب أسرة العروس ومعارفها وتجار الجمالية من معارف أبوالعروس ،وامتلأ فناء الدار . ترقب ضاحى وصول الشيخ عبدالله الشرقاوى الذى جاء مع أفراد تخته ، هلل الناس لرؤيته وتزاحموا حوله لتحيته ، استطاع ضاحى أن يخترق صفوف المحيطين به بعد أن استقر فى جلسته مع أفراد التخت ومد يده مصافحا قال له :

- الشيخ الجليل عبدالله الشرقاوى منذ زمن وأنا أريد رؤيتك والاستماع لك عن قرب .

كادت كلماته تضيع وسط كلمات الثناء التى انهالت على الشيخ .

قال ضاحى :

- أنا أيضا أغنى مع فرقة يقودها الشيخ جمعه ، فرقة صغيرة لكنهم يأخذون الأمر بجديه ويهمنى أن تسمعنا ، ويكون ذلك شرفا كبيرا لنا .

قال الشيخ الشرقاوى :

- هناك فرقـة أخرى ؟... يهمنى أن أسمع فنا أصيلا ،، وليس أى غناء يقال يسمع ، فكل من يعرف أغنيتين الآن يعتبر نفسه مغنيا ، حتى أصبح عدد الفرق أكثر من عدد المستمعين .

ضحك المحيطون به ، قال ضاحى :

- أتمنى ألا أخيب ظنك ، فنحن نأمل أن تشرفنا بسماعنا .

قال الشيخ الشرقاوى :

- إذن ابدأوا ولكن لاتطيلوا .

- لنا الشرف ياَمولانا .

زف ضاحى الخبر إلى الشيخ جمعه وفرقته، فقال له :

- الله يجازيك ياضاحى . لم نكن نعرف أن أصهاركم بهذا القدر ، لكن إن شاء الله ربنا يوفقنا . وأخذ يشدد على أعضاء الفرقة ويؤكد عليهم بحسن الأداء كى يبيضوا وجهه أمام الشيخ الشرقاوى .

وعندما اكتمل جمع العرس وحان موعد الطرب أعلن الشيخ الشرقاوى على الحضور أنهم سيستمعون أولا إلى تخت الشيخ جمعه .

صعد أفراد التخت ومعهم ضاحى ، لكن أصوات غناء النساء كانت تتعالى بصخب من داخل البيت ، وطلب ضاحى إبلاغهن أن الغناء سيبدأ ، وأن شقيق العريس سيغنى. فتعالت بعض التعليقات : أخو العريس مغنواتى ، وأسرعت النساء ومعهن أسرة الفرماوى للنوافذ ليستمعن .

بدأ العزف والغناء وكان ضاحى واقفا يردد مع التخت . خيب ذلك أملهم فى البداية إذ هو مجرد سنيد ، تناوب مغنون آخرون ، ثم جاء الدور على ضاحى فى الغناء .

كان المستمعون يحكمون على الفرقة من ملامح الشيخ الشرقاوى الذى ظل مستمعا وانتهى ضاحى من الأداء فرفع الشيخ رأسه صائحا :

– أحسنت .

طلب منه الإعادة ، وبدأ الجميع يتجاوبون معه ، كان أداء ضاحى جميلاً صافيا وصوته مجلجلا فى الفناء وسط الصمت الذى خيم على المدعوين حتى انتهى ، فدعاه الشيخ لتحيته بنفسه، قائلا :

– لقد أحسنت الأداء وصوتك جميل فعلا ، لكنك تحتاج للمزيد من المران .

كاد ضاحى يطير فرحا وهو لايصدق نفسه حتى دعاه الشيخ لزيارته . وكان ذلك رد اعتبار له بعد موقف الشيخ محمد الذى طالما استنكر غناءه ، بل أنه يتذكر أيضا تعامل الموجودين فى الفرح معه بتقدير واحتفاء .

فى اليوم التالى، قام إدريس والسعيد بزيارة الشيخ محمد فى بيته، ولم ينتظرا باقى أفراد الأسرة إذ قررا الرحيل إلى الفرما على الفور رغم إصرار أهل العروس على استضافتهم .

ولم يستطيع إدريس أن يثنى توحيدة عن عزمها على الرحيل معهما حتى تأتى مع باقى أفراد الأسرة، استعدت وجهزت طفليها لتسافر معهما وكان ذلك يعنى أن يعود بها إلى دمياط ويتركها بمنزل أسرتها ليحاول بقدر الإمكان شحن أكبر كمية من البضائع . كان قد استغل وجوده هو والسعيد بالمحروسة واتفقا مع بعض التجار لشحن كميات كبيرة من المؤن وقاما بتحميلها فى مركب من بولاق إلى دمياط ومنها إلى الفرما ، وعندما وصلوا إلى دمياط قاموا بالإجراءات اللازمة لنقلها إلى الفرما ، على أن يذهب السعيد إلى الفرما ويبقى هو فى دمياط حتى يعود ببضائع أخرى .

أثنى عليه مندوب الكومبانية، حتى أنه استبقاه لأول مرة ليجلس معه قائلا :

- هذا هو ما نريده بالضبط ، الفعل لا القول ، فالعمل الآن لا يسير كما ينبغى لكن فى الأيام القادمة سيكون هناك نشاط كبير فى الحفر ، ونحتاج المزيد .

ولم ينس أن يطلب منه الاتفاق مع الصيادين وأصحاب المراكب على حمل المياه من دمياط لساحة الحفر ، فوعده إدريس بذلك .

وصل باقى أفراد الأسرة بعد ثلاثة أيام بدون ضاحى ، أخذوا يحكون لأهل الفرما عن العرس وأهل العروس ، أما المفاجأة الكبرى فهى إعجاب الشيخ الشرقاوى بضاحى حتى أنه طلب منه زيارته .

- آه ياضاحى .

قالها السيد الفرماوى متهللا لاتسعه الفرحة ، كأن حلما عزيزا عليه قد تحقق أمامه ، فمنذ اقتحم هؤلاء الغرباء الفرما أضاعوا الفرحة والأمل وزرعوا الخوف فى النفوس من الغد وما ينتظرهم فيه ، لكن هاهو ضاحى يعطيه الفرحة الحقيقية التى غابت عنهم منذ مجىء الكومبانية .

- قال : إن شاء الله سيصبح صيتا مل ء السمع والبصر .

أما مهران فخلال الأيام الماضية التى اقترب فيها من زاهية ازداد تعلقا بها ، كما ازدادت مخاوفه ، فخلال رحلة الذهاب جمعهما ضاحى وظلت معهما كما كانا أطفالا ، كما اصطحبها ضاحى معهما وراحا يتجولان فى شوارع المحروسة وأحيائها ومتنزهاتها ، لكن خلال رحلة العودة كان كل منهما يتهيب الاقتراب من الآخر ، وإن لم تغفل عيناه عنها .

كانا يتبادلان النظرات فى صمت ، لكن خلال تلك النظرات أدرك بصورة ما مشاعرها تجاهه .

كانت تبدو أمامه كزهرة غضة أوراقها ناعمة كالقطيفة يخشى عليها من نسمة الهواء ، كان بالنسبة لها الفارس الذى أنقذ أميرة التنيس فى الحواديت كما يحكى جدها .

كان الهدوء يعم الفرما ، فالنفوس قد ارتاحت لقرار المقاطعة ، وقل عدد العمال الوافدين بدرجة كبيرة جداً ، لكن ما أثار القلق حقا هو تلك الأبنية والبيوت التى شرعت الشركة فى بنائها والتوسع فيها كل فترة .

أما مايدور فى الخفاء وتحت السطح الساكن فكان نشاط إدريس والسعيد ، الذى لايمكن بأى حال أن يتراجع ، خاصة بعد أن تدفقت الأموال حتى حار كل منهما أين يضعها . أوجد إدريس مكانا فى بيته ليخبىء فيه الأموال بحيث لايكتشفه أحد خاصة أن زوجته طوال الوقت فى دمياط . أما السعيد، فحار أين يضعها، فالوكالة مكان غير آمن ويخشى سرقتها ، وعائشة تتحرك فى المنزل طوال النهار ولا تفوتها صغيرة ولا كبيرة ، فقرر أن يضعها فى حجرة داخلية، وبعيدا عن عينى عوض . حتى يمكنه فيما بعد نقلها إلى مكان آمن فى البيت بعيدا عن عينى عائشة .

أثناء وجود إدريس فى دمياط للمرة الأخيرة، كان صهره الحاج عبدالرحمن يعانى من ضيق فى التنفس ، جاءوا له بحكيم شهير فى دمياط ، فقال إنه يعانى ضعفا فى القلب ، وأوصاه بأن يمكث فى الفراش وألا يبذل أدنى مجهود . واصطحب إدريس أباه الذى أعد نفسه فى الصباح الباكر من اليوم التالى للذهاب لرؤيته واصطحب معه جده الذى أصر أيضا على رؤيته ، فالرجل عزيز على كل منهما ، فهو الصديق والأخ الشهم ذو النخوة والمروءة ، هو حقا رجل كما ينبغى أن يكون الرجال على حد قول السيد الفرماوى .

وصلوا البيت مبكرا وانتظروا حتى استيقظ الرجل المريض من نومه .

رفض السيد القبوطى أن يوقظه أحد. فرح لقدومهم ، ومكثوا معه بعض الوقت. وما لبث الزوار أن جاءوا تباعا . أخبرهم أنه قد لزم الفراش والبيت يمتلىء يوميا بالتجار والأهل والأصدقاء والمعارف من كل مكان .

كانت كثره هؤلاء الزوار الذين أحبوا الحاج عبدالرحمن أحد أسباب تدهور حالته، الأمر الذى عجل بوفاته .

الفصل العشرون

سرت فى الفرما أخبار عن تلك السفن التى ترسوا على الشاطىء أمام ساحة الحفر وفى كل مرة تنزل منها أفواج من الناس .

وتبين أن تلك البيوت التى قامت الكومبانية ببنائها كانت لهؤلاء القادمين ، فضلا عن الأفواج التى كانت تأتى عن طريق الساحل الغربى ، ولم تمض فترة طويلة حتى عرفوا أن هؤلاء القادمين شوام جلبتهم الكومبانية ليعملوا فى الحفر ، كما جاءت معهم فى نفس الوقت مجموعات من العمال الخواجات .

ارتاح إدريس الذى وجد فيما حدث فرصة سانحة ، فها هى الكومبانية قد جاءت برجال غير مصريين ليعملوا فى الحفر ولن تكون هناك حجة بإساءة معاملة المصريين . يمكنه الآن أن يؤدى أعماله وهو مطمئن ، بل فى هذه الحالة يمكنه أن يتعامل مع التجار وأصحاب المراكب دون أن يثير هذا الأقاويل وسوء الفهم . ومن ناحية أخرى فمجىء هؤلاء الرجال يحتاج إلى بذل جهد كبير متزايد ، والحقيقة أن إدريس فكر فى الموضوع وعرف أن العمل سيتسع ولن يجدى حشو الوكالة بالبضاعة ثم نقلها إلى مخازن الكومبانية ، بل الأصح والأسلم هو نقلها إلى هناك مباشرة ، كما أن الأمر سيتجاوز الاستعانة بإبراهيم ، ولابد من حل مشكلة النقل ولا مفر من الاستعانة بأصحاب المراكب الكبيرة . كان يتحاشى التعامل معهم قبل ذلك فهؤلاء شروطهم صعبة ، ولابد أن يفكر فى الأمر جيدا . ثم علم أن الكومبانية قد استعانت بأحدهم فى رشيد ، وأنه يقوم بنقل المياه وبعض المؤن ، فلم يهدأ لإدريس بال وذهب إلى رشيد بنفسه واستطاع أن يتعرف بأحد أصحاب السفن

المنافسين له وهو المصيلحى دياب ، وعقد معه صفقة لنقل المؤن بعد جمعها من عدد من الأماكن ، واعتبر ذلك نجاحا كبيرا ، فهو واحد من أكبر أصحاب السفن التجارية فى رشيد .

فزع إبراهيم عندما طلب منه إدريس أن يقوم بنقل البضائع إلى مخازن الكومبانية . قال له :

– أنت الذى تقول ذلك ؟ وهل يعلم أبوك بما تقوم به ؟ وبعد كل ماحدث لم تقل لى فى البداية وتصورت إنها للوكالة .

قال إدريس :

– لا يأخذك الظن بعيدا . فأنت تعلم أن الكومبانية قد أتت بعمال من الشام ومن الفرنساويين وبلاد أخرى كثيرة ، ولن يتم تسخير العمال المصريين كما كنا نتصور ، ولن يأتوا ليحكموا الفرما بالمدافع والبارود ، بل ليقيموا مشروعهم لحفر الترعة لتسير فيها السفن وهم يدفعون أجورا ، ولا أعمل لديهم بالسخرة ، وأنت أيضا ستتقاضى أجرا منهم ، فهم يدفعون أجوراً مجزية ، فبعد ماحدث من إساءة للمصريين وصدور الأمر بمقاطعتهم ثابوا إلى رشدهم ويتعاملون الآن بالحسنى .

– لكن أباك رأيه فيهم كما هو ، إنه يرى أنهم بما فعلوا يضمرون شراً لأهل الفرما .

– أنت تعرف ماحدث فى البداية من سوء فهم ، وما يحمله لهم من ضغينة ، وهو محق فى ذلك بعد أن ساقونا إلى الحبس وما لقيناه من الإهانة والتعذيب ، لكن كل شىء يتغير الآن والوقت كفيل بإزالة ما علق بالنفوس ، ولن أستطيع أن أقول ذلك الآن ، فنحن نختلف دائما مع آبائنا ، ألم تختلف أنت مع أبيك عندما قررت أن تخرج من البحيرة ومنعك من ذلك ، ثم اقتنع فيما بعد .

– نعم صحيح .... ولكن ..

– لكن مع الوقت اقتنع بصواب رأيك .

– ولكننى لم أفعل ذلك إلا بعد موافقته ، بعد أن اقتنع .

– لكن الأمر هنا مختلف ، إذ لو تلكأنا فسيأتى آخرون ليفعلوا ذلك ، ولن ينتظرونا .

– إسمع يا إدريس ، ليس أبوك وحده هو الذى يردد هذا الرأى ، فهذا مايقوله أبى أيضا وأنا أرى أنهما على حق ، ولم أتعود العمل فى الخفاء ، ثم كيف أنظر فى وجه أختك فاطمة وحتى وجه أطفالى؟ ماذا سأقول لهم عندما يكبرون ؟!

– ماهذا يا إبراهيم؟ نحن نأخذ ونعطى فى الكلام ، وأنا لا أدفع بك إلى الشر ، ولا لما لا أرضاه لك أو لنفسى أو أهلنا ، هذا مجرد خلاف فى وجهات النظر.

بعد تردد طويل ، وافق إبراهيم بعد أن اشترط على إدريس أن يفاتح أباه فى الأمر وبقيت أمامه مشكلة أن يعرف الصيادون الذين يعملون معهم . طلب منه إدريس ألا يكونوا معه وسيأتى هو برجال من أماكن أخرى يساعدونه ويحاول أن يفعل ذلك بعيدا عنهم حتى تستقر الأمور .

كان ذلك انطلاقة لإدريس الذى أخذ يعمل ما بوسعه ليل نهار ، يجوب البلدان والقرى ويعقد صفقات مع التجار فى كل مكان لزيادة الكميات التى يوردها ، وهو يعلم أن هناك آخرين يسعون لتكون لهم المكانة الكبيرة لدى الكومبانية .

كان العمال الذين جاءت بهم الكومبانية من الشام للعمل فى الحفر قد سكنوا فى تلك الهناجر الجديدة التى أقامتها ، أما الذين جاءوا مع أسرهم فقد أقاموا فى بيوت مستقلة مع العمال الأجانب ، وذلك حسب الوعد الذى قطعه المسيو دليسبس على نفسه عندما ذهب إلى الشام مخاطبا أولى الأمر ليسمحوا لهم بالمجىء ، فضلا عن التنعم بالحماية الفرنسية .

كانت أعداد الشوام أقل بكثير من العمال المصريين . وكانوا يقبضون أجورهم كاملة، أضعاف مايتقاضاه المصريون ، ويعملون ساعات عمل محددة ، وأصبح أمامهم متسع من الوقت بعد ساعات العمل ، فكانوا ينتشرون فى الفرما ويتجهون

إلى المتاجر وأصحاب الدكاكين ليشتروا حاجياتهم .

كانت لهجتهم غريبة وغير مفهومة في البداية ، ثم سرعان ما بدأ أهل الفرما يألفونها ويسألونهم عن بعض الكلمات التى يتفوهون بها حتى بدأوا يفهمون كلامهم ، لكن مع ذلك ظل الكثيرون منهم متحفظين فى التعامل معهم ، أو يتجاهلونهم ، حتى قال أحدهم ذات مرة :

– يا أخي نحن عرب مثلكم ، مسلمون ومسيحيون ، لماذا تقاطعونا ؟

قال له صاحب الدكان الذى توجه للشراء منه موضحا ، وآملا أن ينقل الصورة لزملائه: نحن لا نعاديكم ولكننا لا نحب هولاء الأغراب الذين اقتحموا بلدنا ، وجلبوا الناس من القرى وأساءوا معاملتهم .

كان لبعض هؤلاء الشوام القادمين أقارب في دمياط والمنصورة ، فكانوا يسألون عن المسافة والطريق للذهاب إلى هناك ، وبعد فترة من الوقت علم إدريس أن أحدهم ويدعى وديع استطاع أن يصل إلى قريب له تاجر فى دمياط ، وأن يشاركه فى نقل الحبوب والمؤن إلى الكومبانية ، فكان يتحرك فى كل مكان يشارك من يتوسم فيه القدرة على العمل مع إغراء المال. وواجهته مشكلة مع أخيه السعيد عرف أنه نقل شحنات من الحبوب مباشرة إلى هناجر الكومبانية فاختلف معه ، قال له :

– كنت تقول لى أنت أخي ويجب أن تقف بجوارى قبل أن يأتى الغريب ويأخذ الفرصه منا وقبلت أن أعمل معك ، وها أنت بمجرد أن تعرفت على الأغراب استعنت بهم وتخليت عنى .

– ماذا تقول يا أخي؟ أنا لم أتخل عنك كل مافى الأمر أنى أريد أن أوسع دائرة العمل وبدلا أن تستعين الكومبانية بآخرين نجلعهم يعملون من خلالنا .

نظر إليه ثم قال :

– أنت تفكر الآن فى نفسك فقط لتستأثر بالمال بدلا من قسمته معا. أنسيت

أنك قلت لى أننا شركاء ؟

قال إدريس لنفسه ، هذا الأبله لم يفعل شيئا ويريد مشاركتى ، لكن لابد أن أحتويه قبل أن تسول له نفسه القيام بأى حماقة ، فقال له :

– بالطبع نحن شركاء. أتظن أننى أتعامل مع الغرباء كما أتعامل معك ، كل مافى الأمر أن نقل البضائع إلى الشركة مباشرة أكثر أمانا من تحويلها إلى الوكالة ثم نقلها ليلا .

– لكنك قلت إننا سنقول لأبينا ومن ثم لاداعى أن نخشى شيئا .. أليس كذلك ؟

– نعم ، بالطبع فقد اتفقنا على ذلك خاصة بعد أن انضم إلينا إبراهيم ، وهو يرى ذلك أيضا .

منح إدريس لأخيه مبلغا كبيرا ولم ينس أن يعطى عوض هبته . لانت لهجة السعيد اعتقد إدريس أن العمل سيتسع ، ولا ينبغى أن يكون هناك مجال للخلاف فسعى إلى أن يقرب إليه السعيد وإبراهيم ليفاتحا من ينغى مفاتحته .

لكن الأمور سارت على نحو آخر فقد بدأت تتسرب أقاويل عنهم ، ودون أن يدروا وصل بعضها إلى والدهما قبل أن يفاتحاه .

فقد عثرت عائشة فى المنزل على لفافة كبيرة مخبأه ، وعندما فتحتها كاد يغشى عليها عندما رأت الأموال المكدسة داخلها . وأخذت الهواجس والظنون تدور برأسها ، فقد خشيت أن يكون وراءها شر وقع السعيد فيه ، وإذا أخبرته فسوف يراوغ مادام يضمر ذلك . أخذت تفكر فيما تفعله حتى هداها تفكيرها إلى أن تبلغ حماتها بذلك ، وأرتها المال ثم أعادته كما كان ، حارت أمينة أيضا فى أمر ولدها ، فهى أن تعرف أن كل مايتعلق بأمر بالوكالة يعرض على أبيه . إستعاذت من الشيطان ، والظنون تدور برأسها ، ربما يعمل مع الكومبانية ، خاصة بعد أن قال أحد الصيادين إنه شاهد شخصا يشبه سى إدريس متجها إلى هناجر الكومبانية ، فهل يعمل السعيد مع إدريس ؟

كان أهالي الفرما يرون تلك المراكب التى تسير بمحاذاة الشاطىء ، وتتوقف قبالة ساحة الحفر أمام الهناجر للمتعاملين مع الكومبانية ، الذين أطلق عليهم أهل الفرما «الهنجراوية» على سبيل التهكم .

فكرت أمينة ، ثم أخبرت السيد القبوطى فلم يكن هناك ماتخفيه عنه ، كان هناك هاجس يحاول أن يكبته لكن هاهو يتقافز أمامه . هى الحقيقة ولا شىء غيرها . منذ خروج إدريس من الحبس شعر الأب أن هناك أمرا يخفيه ذلك الابن ، وأصبح يتحاشى مقابلته حتى لاينظر فى وجهه ويعرف من ملامحه مايضمره . كان يحاول أن يبتعد أطول وقت ممكن عن الفرما متعللا بالبقاء مع زوجته وطفليه فى دمياط . هى الحقيقة ولا شىء غيرها . والسعيد أيضا ، الذى لايعرف من الدنيا سوى التجارة ومكاسبها من السهل أن ينقاد لأخيه.. مَن من أهل الفرما عرف طريقه إلى الهناجر؟ من منهم كان معنا فى الحبس؟ وكيف تم ذلك؟

قبل أن يتدبر أمر مواجهة أولاده، جاء اليه السعد وإدريس، وما لبث أن لحق بهم إبراهيم، كان ذلك مفاجأة بالنسبة للسيد القبوطى.

إنتظر حتى يعرف حقيقة كل منهم. كيف يفكرون فى الأمر وماذا يدبرون. بدأ إدريس التمهيد للموضوع، فتحدث عن الشوام الذين جاءوا للعمل فى الكومبانية، بقوله إنهم يعطونهم أجوراً مجزية ومع الوقت سيعاملون المصريين بالمثل.

قال السيد الفرماوى: هل تعتقد أن هؤلاء العمال الشوام يمكن أن يتحملوا ظروف العمل ونقص المياه والطعام، وقد بدأوا يشكون من ذلك، فضلا عن أنهم يكلفون الكومبانية كثيراً وهى تبحث عمن لايكلفها الكثير.

– لكن الأوامر الصادرة من المحروسة بوقف التعامل مع الكومبانية دفعتها إلى ذلك وتغير الوضع.

– اسمع ياإدريس، أراك جئت للتحدث فى موضوع آخر، فلماذا لاتتكلم فيه دون لف ودوران.

أسقط في يد إدريس وأخذ يلتقط أنفاسه بصعوبة.

– أعرف ياأبى أننا مررنا بمحنة رهيبة جعلتنا لانرى إلا الشر فيما يفعله رجال الكومبانية.

– أقول لك لماذا لاتتكلم دون لف ودوران، أقول أنا لك؟

– أرجوك ياأبى لاتسىء فهم مقصدى، فأنا أيضا حبست معكم.

صمتوا جميعا. قال السعيد: أرجوك ياأبى أن تسمع وجهة نظرنا أولا.

استدار إليه قائلا: هذه الوكالة عملنا فيها من أجل أهل الفرما، ولفتح أبواب الرزق وليس من أجل الكومبانية.

قال السعيد بصوت خافت: لم نقصر مع أهل الفرما.

– كيف؟ حتى يعميكم الحرام عن كل شىء.

أخذ يضرب كفا بكف وصياحه يتعالى: عليه العوض ومنه العوض. أهؤلاء هم أبنائى؟ أهكذا ربيتكم؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم استطرد قائلا: إسمعوا.. هذا المال حرام ولايدخل بيتى، هذا دم الناس الذين امتص العمل الشاق عودهم، إذا كنتم تريدون الرجوع للحق، أعيدوا هذا المال إليهم. هل كنتم تشكون الفاقة؟ الوكالة تدر الكثير لكم ولأهل الفرما جميعا.

قال السعيد: كيف ياأبى نعيد هذا المال إليهم، نحن تعبنا كى نحصل عليه.

كانوا يتخبطون أمامه فحاول أن يتمالك نفسه ليبين لهم الصواب من الخطأ، فى حضور أهل الفرما، فخرج ليبلغ الموجودين من أهل المناخ أن يجمعوا الآخرين ويكون الحديث على الملأ، فكل الرجال الذين كانوا فى الحبس لابد أن يعرفوا، وأن يدلوا برأيهم فى ذلك.

أقبل أهل الفرما وهم يشعرون أن هناك أمرا خطيرا، فالسيد القبوطى لم يدعهم قبلا على هذا النحو إلا عندما جاء رجال الكومبانية، وتساءلوا عما حدث.

جلس وسطهم وذكرهم بما قالوه قبلا عن الكومبانية، وعما لاقاه عمال الحفر

من ظلم بين وماتعرضوا له من عطش وجوع وشقاء، ثم قال: إذا تعاملنا معهم فإننا نساعدهم على أن يتمادوا فى ظلمهم وعلى تثبيت وجودهم فى الفرما ولايغرنا الخلاف القائم بينهم وبين أولى الأمر فى المحروسة، فذلك أمر مؤقت، فهم لايعدمون الحيل ولن يسكتوا حتى يحفروا الترعة بالسخرة.

تعالت أصوات الرجال: نعم نحن نعرف ذلك ياأبا القبوطى.

قال إدريس: لكنهم جاءوا بعمال من الشام ويقولون إنهم يدفعون لهم أجورا مجزية.. يعنى كفوا عن استخدام الفلاحين.

قال القبوطى: هذا مايردده رجال الكومبانية ومقاولو الأنفار، ونحن رأينا بأعيننا ما حدث للعمال، وما الذى تغير فى الأمر؟

قال عثمان: لقد دعوتنا ياأبا القويطى لنسمع أمرا جديدا.. قل لنا ماهو.

صمت الجميع بعد كلمات الرجل. كان القبوطى يلتقط أنفاسه، ليعرض عليهم الأمر.

قال: أبنائى أغرتهم الوعود والأموال التى تدفعها الكومبانية، ولايرون بأسا فى التعامل معها.

إتجهت الأنظار نحو السعيد وإدريس وإبراهيم، الذين جلسوا متجاورين، فوجىء أبو المكارم بتورط إبراهيم معهما، وأخذ يصيح فيه: أهكذا ياإبراهيم؟! لماذا لم تقل لى؟ أمن أجل ذلك كنت تحاول أن تبعد الصيادين الذين يعملون معك، لتقطع عيشهم، ليس ابنى من يفعل ذلك.

وحده إبراهيم الذى جلس منكسا رأسه، وتعثرت الكلمات على شفتيه، وهو يعلن تراجعه عن التعامل مع الكومبانية.

قال إدريس: لن تظل الأمور كما هى، فالترعة ستحفر فى النهاية، والكل يعلم ذلك، ونحن لانجهل مافعلوه مع الفلاحين، ولاتنسوا أننا كنا فى الحبس معكم، وسعيت حتى أفرجوا عن الجميع عندما خرجت قبلكم. نحن نورد لهم الطعام الذى

أكل منه الفلاحون المصريون، أم نتركهم يموتون جوعا؟ وإذا لم نفعل ذلك فعله غيرنا، ونحن أهل الفرما لن نستطيع فى النهاية الوقوف أمام كل من فى المحروسة. إسمح لى ياأبى، فأنا لاأريد إغضابك أو اغضاب أحد من أهل الفرما، ولكننا نتدبر أمورنا ونفكر معا.

قال السيد القبوطى: لكنك لم تستشر أحدا من أهل الفرما عندما تعاملت مع الكومبانية. الآن فقط تقول ذلك؟ وإذا لم نوافقكم ، فهل ستكفون عن التعامل معهم؟

كان السيد الفرماوى يحاول أن يستوعب مايقال، وقد هاله ما رأى من خلاف بين السيد القبوطى وأبنائه ولم يتخيل أن يكون الخلاف حول موقفهم من الكومبانية، نهض من مكانه صائحا: كثير ما تفعلونه بأبيكم وأهل الفرما. تساعدونهم على اغراقها؟ لن تقوم لأحد قائمة بعد ذلك.. كفى ياإدريس.. كفى. اتقوا الله فى أبيكم وفى أهل الفرما.

أثارت كلماته الموجودين، فتعالت صيحاتهم يعلنون رفضهم لما يقوم به إدريس، الذى حاول أن يتكلم وهم يلاحقونه باللوم حتى قال: الله لم يخلق جميع الناس متشابهين يفكرون بنفس الطريقة، وأنا أقول ما أفكر فيه وأراه. نحن نتكلم هنا فيما بيننا ولا أحد يسمعنا، لن يبقى الحال على ماهو عليه، فغداً ستبحثون كلكم عن فرصة لتعملوا معهم بعد حفر الترعة.

يذكر أهل الفرما ذلك اليوم، كأنما أشعلت فيه الشرارة التى لم يهدأ لهم بال بعدها. ويذكر السيد الفرماوى بعده أن السيد القبوطى أصبح عازفا عن الكلام، يجلس صامتا معظم الوقت رغم مواجهة أمينة لأبنائها، حتى أن إدريس أصبح يقضى معظم أيامه بعيدا عن الفرما. ومثلما شهد موقفهم من رجال الكومبانية ووقفتهم وقفة رجل واحد. فقد أثار ما جرى فى ذلك اليوم الكثير من اللغط الذى كان إيذانا بانفراط عقدهم.

الفصل الحادى والعشرون

لم يدرك السيد الفرماوى تقدم العمر . إذ يعتريه الوهن وهو يحاول جاهدا القيام بالأعمال التى اعتاد القيام بها فى المناخ فتخونه قواه، ويحاول أن يلتقط أنفاسه ويصلب قامته، فيسرع إليه مهرأن أو أحد ممن يرونه للقيام بها عنه. لم يدرك تقدم العمرمن تلك المرة التى خرج فيها بالمركب وحده إلى عرض البحيرة، وانتظروا عودته يومها ولم يأت حتى قدوم الليل فانطلقوا يبحثون عنه فى البحيرة، خرج الصيادون بالمراكب إلى الجزر وإلى الأماكن التى اعتاد الصيد فيها حتى تقدم الليل. واستطاع ضاحى أن يجده نائما فى مركبه وقد احتجزته عيدان البوص، فعاد به. ومن يومها لم يتركوه يخرج وحده إلى البحيرة، ولم يدرك تقدم العمر ووهن صحته حتى عندما داهمته الحمى وهو فى الحبس. وعاودته تلك النوبة من الهذيان التى اجتاحته وهو طريح الفراش بعد عودته إلى الدار بعد الأيام الثلاثة التى قضاها جالسا أمام البحيرة، وقتها كان بكامل صحته برغم ما اجتاحه، لكنه وهو بالحبس كان العمر قد تقدم به، وإن أظهر مقدرة على مقاومة المرض، .واستمد مقاومته من صلابة الرجال الذين أحاطوه بعنايتهم وجلدهم حتى استرد عافيته.

إلا أنه شعر بتقدم العمر منذ تلك الليلة التى جمع فيها السيد القبوطى أهل الفرما ليشهدهم على أبنائه، ورغم كلمته التى أثارت حماس الموجودين، شعر أنه لايعى شيئا مما يدور حوله، ومازالت كلمات إدريس تدوى فى مسامعه وهو يرد على أبيه، فالولد ركبه الشيطان وأعمى بصيرته، بحيث لم يعد يفرق بين الحق

والباطل، وبقدر ما كان ناقما على موقفه، كان يدعو له بالهداية، وأن تزول الغمامة عن عينيه ليرى الأمور بوضوح.

كان التفكير يأخذ بعقله، ولايلبث أن يروح فى واحدة من تلك النوبات التى يستغرق فيها، ينعم فيها بصحبة ابن إدريس ويصحبه فيها إلى عوالم شتى، يجوبان المدن والبلدان، ويتجولان فى الطرقات والأسواق، ويريان العمران فى كل مكان، ويتحدثان إلى الناس. يحضران دروس الأئمة فى الجوامع الكبرى والمدارس التى تتبعها، يتلو عليه أشعار الصوفية، يصحبه إلى جزيرة التنيس ويغوص به تحت الماء، ويرى فيها بلدانا عامرة بالخيرات وبيوتا جميلة مزينة بالنقوش ذات طوابق متعددة وبساتين ذات أشجار وارفة مثقلة بالثمار، يقول له: هذه مملكة التنيس، ينزلان فى ضيافة ملكها الشجاع، يصحبهما فى جولة داخل قصره المنيف ويتنزهان فى بساتين القصر ويرى أميرة التنيس الجميلة جالسة وسط وصيفاتها، يبهره جمالها الذى لم يشهد له مثيلا، يحكى لهم الملك كيف استطاع أن يحافظ على المملكة التى حكمها أجداده بالعدل منذ بدء الخليقة، وكيف حارب مملكة السحرة وشتتهم فى كافة بقاع الأرض.

وفى مرة أخرى، يصحبه إلى تل بن سلام ويحكى له كيف نجا من الطوفان الذى اجتاح مملكة التنيس عندما وطأ الماء دون أن تبتل قدماه، ويقال إن الأرض كانت ترتفع تحت أقدامه وهو يسير كمركب تتهادى فوق صفحة المياه، وعندما علا الطوفان إرتفعت به الأرض حتى أصبحت وسط المياه، وعندما انحسرت المياه بعد ذلك بقى تل بن سلام حيث استقر فوقه مقامه ومثواه.

يصحبه لزيارة أهله.. أهل التنيس، ويزوران كل بقاع مصر من أقصى الصعيد وبلاد النوبة حتى الأقصر وأسيوط والمحروسة ورشيد والاسكندرية ، وجميع قرى وبلدان الوجهين البحرى والقبلى، ويرى معه أهله فى كل مكان.. أهل التنيس، لم يكن يتخيل قبل أن يلتقى بهم أنهم موجودون فى كل مكان، وأنه يمكن أن يلتقى

بهم أينما ذهب دون أن يعرفهم أو يدرى من هم.

– إسمعوا ياأهل الفرما كيف اجتاح الطوفان التنيس وشتت أهلها فى كل مكان. إسمعوا قبل أن يجتاحكم الطوفان.

تربت زاهية على كتفه، يمسك يديها الصغيرتين بكلتى يديه: نعم ياجدى.. أنا زاهية.

– أين كنت؟

– أنا هنا بجوارك ظننتك نائما ولم أشأ أن أوقظك حتى سمعتك تتكلم.

– أين ضاحى؟ ألم يعد بعد؟

– ضاحى فى المحروسة ياجدى. أم تريد مهران.

– تعال يامهران، أين أنت؟

– أنا هنا يا أبا القبوطى.

ينتبه إليه وهو جالس بجواره على الجانب الآخر، وسكينة ترقبه بقلق، وفى الأيام الأخيرة أوصت مهران ألا يغفل عنه بعد أن فشلت كل محاولاتها لمنعه من الطلوع إلى البحيرة، ولكنه لم يكن يطيق الابتعاد عنها أو عن الجلوس على الشاطىء والتحدث إلى الصيادين فى فترات الراحة من العمل ويتناول الغداء معهم، فكانت ترسل إليه الزوادة مثلما كانت تفعل فى الأيام كان يطلع فيها للصيد فى البحيرة.

لم تكن وحدها التى ينتابها القلق ، بل انتاب مهران أيضا الذى كان يجمع القروش التى يعمل بها حتى يستطيع أن يمتلك مركباً جديداً بدلا من مركب السيد الفرماوى الذى بلى حتى لم يعد يستطيع أن يقطع به مسافة طويلة بعيداً عن الشاطىء، فكان يعمل مع صيادين آخرين، كان السيد الفرماوى قد وعده أن يتحدث إلى السيد القبوطى وأمينة بشأن زواجه من زاهية أو على الأقل قراءة فاتحتها،. بعد أن أصبحت محط أنظار شبان الفرما هؤلاء الذين هربوا معه فى البحيرة.

كان كلما فاتحه فى الموضوع يقول له: فيم العجلة. أنا وعدتك بأنها لك.

وها هو الآن لايستطيع الحديث معه، فقد فاتحه ثانيا فقال له: أميرة التنيس لك، لكن مهرها غالى، يجب أن تحارب هؤلاء السحرة فى مملكة الهكوش.

أما أبوها فلم يستطيع أن يفاتحه، بعد مواجهته إدريس فى ساحة المناخ بات يبدو مغتما، لا حديث له مع أهل الفرما إلا عن الكومبانية. ويتعجب مهران من موقف إدريس، أنسى ماحدث لأخته من أحد رجال الكومبانية؟!

أخذ مهران يتحين الفرصة للانفراد بزاهية حتى استطاع أن يخبرها بما جرى من حديث بينه وبين جدها ووعده له أن يفاتح أباها فى أمر زواجهما.

وكم كانت فرحته عندما أخبرته أنها كانت تستشعر ما يجرى بينه وبين جدها وأنها تبادله المشاعر، وأطلقت هذه المصارحة تياراً متدفقاً من المشاعر بينهما.

- أنا خائف يازاهية أن يتقدم لك أحد من شباب الفرما أو غيرها.

- لن يستطيع أحد أن يرغمنى على ألزواج من شخص آخر، ثم لاتنس أنك ربيت بيننا، وأسرتى هى أسرتك، لكن تمهل قليلا حتى يصفو الجو وتستطيع الحديث مع أبى.

- آه لو كان ضاحى هنا لسهل على الأمور، هو الوحيد بين أخوتك الذى استطيع الحديث معه، عندما سافرنا إلى المحروسة فى عرس الشيخ محمد كدت أقول له، كان الكلام على طرف لسانى ولكنى أجلته.

- أنا أيضا أشعر بالحاجة إليه. كما أن وجوده الآن قد يخفف الكثير عن أبى.

- ممكن أسافر إليه المحروسة. أتعرفين أنه طلب منى أن أبقى معه هناك، لكنى لم أكن أريد الابتعاد عنك.

- ليتك كنت تقدر يامهران ، لكن لاتغب هناك فقد تستهويك المحروسة.

- تعرفين أننى لاأريد الابتعاد عنك.

لاقى اقتراح مهران بالسفر إلى المحروسة لإحضار ضاحى الاستحسان من

الجميع. عندما أخبرت زاهية أمها ارتاحت لذلك، قالت لمهران: إذهب أيضا للشيخ محمد وأخبره بما حدث وقل له أمك تريدك أن تحضر ولاتتأخر، ربما يستطيع الحديث مع أخويه.

أعدت له الزوادة وأعطته مبلغا من المال وأوصته ألا يتأخر.

لم يجد ضاحي فى نفس الربع الذى كان يقيم فيه مع الشيخ محمد قبل زواجه، أخبره الطلبة الأزهريون الذين مازالوا يقيمون فى الربع أنه ترك الربع واتخذ له مسكنا آخر، وأنه لايتنظم فى الدراسة، عرضوا عليه أن يبيت معهم وأن يصحبوه إلى الأزهر فى الغد ربما يلتقى به. علم أن ضاحى استهواه المغنى وانضم إلى تخت الشيخ عبدالله الشرقاوى، يحيون الليالى وينتقلون من مكان لمكان، فسألهم عن بيت الشيخ محمد، فلم يعرف أحد فسألهم عن صاحب الربع صهر الشيخ محمد، تطوع أحدهم للذهاب معه إلى وكالته.

رحب به الرجل وأرسل معه أحد عمال الوكالة ليحمل معه أمتعته ويوصله إلى بيت الشيخ محمد.

فوجىء الشيخ محمد بمهران أمامه عندما فتح الباب، قال: خير.. ماذا هناك؟

- لاتفزع، إن شاء الله خير وجميعهم فى الفرما يسلمون عليك.

- وأبى وأمى؟

- بخير.

- وجدى؟

- بخير أيضا.

- ماذا هنالك؟

كان الشيخ محمد مازال واقفا فى فتحة الباب، ولم يتصور مهران أن يتحدث فيما جاء اليه وهو واقف أمام الباب ومعه العامل الذى يحمل أمتعته، إلتفت إلى العامل وقال له ضع السلة هنا وألف شكر. حينئذ أدرك الشيخ محمد أنه مازال

واقفا أمام الباب ولابد أن يدخل الضيف كى يتحدث فيما جاء به إليه، وغاب لبرهة ثم عاد واصطحب مهران إلى الداخل.

حكى له مهران ماحدث فى الفرما من مواجهة بين أبيه وإدريس والسعيد وإبراهيم، ومايدور الآن فى الفرما . أبلغه برغبة أمه فى أن يأتى على وجه السرعة، لم يخف على مهران القلق والتبرم الذى ظهر على ملامح الشيخ محمد. جلس صامتا لفترة ثم قال له: هل قابلت ضاحى؟

لقد ذهبت إلى الربع الذى كان يقيم فيه وأخبرونى هناك أنه تركه، فذهبت إلى الوكالة وسألت عن عنوانك حتى تدلنى على مكان ضاحى.

– فى الحقيقة لا أعرف العنوان بالضبط، فهو يأتى إلى فى مكان العمل أو البيت.

صمت الشيخ محمد متفكرا ثم قال: هناك مقهى تعود الجلوس فيه بالجمالية هو وبعض الآلاتية، اصطحبنى مرة إليه. الأفضل أن ترجع إلى الوكالة وأسأل هناك عن عنوان الشيخ عبدالله الشرقاوى وهناك يمكن أن تستدل على ضاحى بسهولة.

أرسل الحاج معه أحد العمال إلى الخرنفش، وعند باب المنزل سمع صوت موسيقى ودندنة، فتح له خادم الباب وعاد بعد قليل ليصحبه إلى الشيخ. وقف ضاحى مذهولا من رؤيته لمهران، وقبل أن يستفسر الشيخ وجد ضاحى يقفز من مكانه ويعانق الشاب الذى جاء يسأل عنه.

– مهران من الفرما، شقيقى، تربينا معا.

كان التخت يستعد لإحياء إحدى الليالى وقد تجمع أفراده فى بيت الشيخ عبدالله الشرقاوى.

قال ضاحى لمهران: حظك حلو. إننا على وشك التحرك، ستأتى معى الآن وتحضر الليلة ثم نعود لمنزلى فهو قريب من هنا .

إستأذن الشيخ واصطحب مهران إلى المنزل وترك حاجياته ثم عاد بصحبته.

ركب مهران معهم عربة أشبه بالصندوق بها أريكتان على الجانبين يجرها بغلان ويقودها حوذى تتبع عربة أخرى يستقلها الشيخ عبداله إلى البيت الذى سيحيون فيه العرس، كان أشبه ببيت صهر الشيخ محمد وله فناء واسع.

بدأ العزف وأدت الفرقة بعضاً من غنائها ثم تقدم ضاحى وغنى والفرقة ترد عليه، كان صوته جميلا صافيا يجلجل فى أرجاء الفناء وسط استحسان الحضور الذين صفقوا له طويلا بعد الأداء .

عاد ضاحى إلى مكانه فى الفرقة وتقدم مغن ثان كان صوته جميلا أيضا، ثم جلسوا مكانهم على المنصة ، وصعد الشيخ عبدالله الشرقاوى فهاج الموجودين بين تصفيق وتهليل وهم يرددون أسماء بعض الأدوار والموشحات.

كانت ليلة مبهجة خففت عن مهران ما لاقاه حتى وجد ضاحى، واستقبال الشيخ محمد الفاتر له حتى أنه لم يكد يلتقط أنفاسه، ولم يقدم له حتى كوب شاى، فهو يعتبره أحد الشغيلة الذين يعملون لديهم.. ماذا يقول إذن لو علم برغبته فى الزواج من زاهية ليصبح صهره، أما ضاحى فالأمر مختلف فهما شقيقان تربيا معا.

لم يذق هو أو ضاحى طعم النوم، ولم يغمض لهما جفن إلا مع شروق الشمس، رغم إرهاق مهران فقد حكى لضاحى ما حدث فى الفرما، وماكان من أمر إدريس وموقف أبيه منه . كانت الأخبار صادمة لضاحى الذى أذهله ماحدث، وهو يردد: معقول هل إدريس بحاجة أن يعرف هل رجال الكومبانية على حق أم لا؟ نسى ما حدث لعمال الحفر الذين وعدوهم بالأجور المجزية والمعاملة الحسنة ثم سخروهم فى العمل الشاق وعانوا من الجوع والعطش وأعطوهم ورقاً لصرف أجورهم من المحروسة وهم لايملكون ثمن العودة إلى قراهم.

– وما حدث لزاهية.

أكيد ليس مالكا لعقله، ماذا يقول فى ذلك؟ وما هى حجته حتى يرى فيهم

خيرا؟ كان الله فى عونك ياأبى. ألم يفكر فى حال أبيه بعد أن أخذ يكشف لأهل الفرما موقف الكومبانية، بينما أبناؤه يتعاملون معها ويرون فيها الخير. هل قلت ذلك للشيخ محمد؟

– نعم.

– وماذا قال فى ذلك؟

– لم يقل شيئا، سوى أنه لايستطيع الذهاب إلى الفرما الآن، وأن مشاغله تمنعه من الذهاب، لكنه سيذهب فيما بعد.

صمت ضاحى ولم يعلق.

فى صباح اليوم التالى قال لمهران: سأنهى بعض الأمور، ثم نتجول فى المحروسة قبل أن نعود إلى الفرما.

حكى له ضاحى عما حققه من نجاح مع تخت الشيخ عبدالله الشرقاوى، فهو يشارك معهم بالغناء ويتعلم منه الكثير، وسافر معهم إلى بلدان أخرى مختلفة فى الوجهين القبلى والبحرى لإحياء الليالى، فالشيخ صييت كبير، وله جمهور ومحبون فى كل مكان، ويقدمه إلى الناس، حتى إن بعض الناس فى الأماكن التى ترددوا عليها بدأوا يطلبون من الشيخ أن يأتى به معه، لقد أصبت بعض النجاح.. الغناء شىء جميل جدا يامهران.

وجد مهران الفرصة سانحة ليفاتحه فى أمر ارتباطه من زاهية، فأخبره بما دار بينه وبين الجد بهذا الشأن.

– يعنى جدى عارف وموافق.

نعم، عندما قلت له أخذ يطمئننى أن زاهية لن تكون لأحد غيرى، المهم أن أعد نفسى لأكون جديرا بها، وأعمل لأدخر المال اللازم لأشترى مركباً كبيراً أستطيع العمل عليها مثل إبراهيم، ثم أقوم ببناء بيت مناسب، المشكلة أن الجد بعد حكاية إدريس مع أبيه أصبح تفكيره مشتتا ولايعطى الأمر اهتماما، وأنا كما تعرف ليس

لى سواه فهو أبى الحقيقى، ولاتربطنى علاقة بإخوتك الكبار، السعيد لايرى فىّ إلا الصبى الذى جاء عالة على الوكالة، إما إدريس الذى يتخلى عن كل شىء من أجل مصالحه، فلا أعتقد أنه يتصور أن تتزوج أخته بمعدم مثلى، مجرد نفر من الشغيلة كما يشعرنى دائما.

- ما كل هذا يامهران؟ أبى مازال بعافيته وكذلك أمى، لن يكون لإدريس والسعيد رأى إلا مايراه أبى وأمى وزاهية نفسها قبل كل شىء.

- لا أخفى عليك أننى فاتحتها فى الموضوع، ووجدت منها استجابة.

ضحك ضاحى قائلا: يالجرأتك ياأخى، وتخبرنى بذلك.

- كى أتأكد، لأعرف أهناك أمل أم لا.

وعده ضاحى بأن يقف بجواره ويفاتح أباه وأمه.

الفصل الثانى والعشرون

لم يكن سـهـلا على إدريس أن يأتى اليـوم الذى يقف فيـه هذا الموقف فى مواجهة أبيه على مرأى من أهل الفرما كلهم، وعلى هذا النحو، أن يكون موضوع الخلاف التعامل أو عدم التعامل مع الكومبانية. إذ يبدو أنه لكثرة مابذل من جهد وخطط ودبر لإقناع أخيه وزوج أخته قد بسط الأمر لنفسه أكثر مما ينبغى، لكنه رغم تمنعهما ومفاجأتهما قد اقتنعا وأقبلا على العمل معه. عموما، فالأمر كان سينكشف آجلا أو عاجلا. قال لنفسه : ستكون المصيبة أكبر لو لم نقل. فقد فهمت من تلميحات أبى أنه كان يعرف وأرجأ المواجهة حتى نفاتحه، إذا لم نقل نصبح فى موقف لانحسد عليه، فلو حدث هذا لم أكن بقادر على النظر فى أى وجه عيني مخلوق في الفرما. أما الآن فعلى الأقل الأمر يبدو كأنه خلاف فى وجهات النظر بين الأب وأبنائه.

هل نحن وحدنا الذين نتعامل مع الكومبانية من أهل الفرما؟ وحتى لو كنا وحدنا، فهناك العشرات ممن يتعاملون معها فى كل مكان، وكل منهم يريد أن يثبت مكانته لديهما كى يفوز بالنصيب الأكبر.

لماذا لا يستطيع أن يواجه أمه وأباه بعد ما قال ما قال إذا كان مقتنعا بما هو مقدم عليه. بات ليلته فى بيته وعاد أخوه وزوج أخته كل إلى بيته بمفرده. لم يذق طعم النوم، وفى الصباح توجه إلى دمياط، ولم يذهب إلى بيت صهره حيث تقيم زوجته وأولاده، ليس ذلك بالمكان المناسب له، فمازال جو الحداد يخيم على البيت ومازال الناس يتوافدون للعزاء.

طرق باب كهرمانة ففتحت له منصورة التى فوجئت بحضوره، وسمع صوت

كهرمانة تسأل عن القادم بصوت كسول يغالبه النعاس.

فوجئت بقدوم إدريس فى وقت مبكر على غير عادته وبعد غياب طويل، طار النوم من عينيها وانتظرت حتى تعرف سبب الزيارة.

كان فى حاجة إلى أن يتكلم فاستمعت إليه باهتمام وحاولت أن تخفف عنه. حكى لها مادار بينه وبين أبيه، لأول مرة يغضبه وبشكل لم يكن يتوقعه قال لها إن أباه كان يعرف ويؤجل المواجهة، ربما كان يتوقع منه أن يتراجع خجلا، ويطلب منه العفو كما لو كان طفلا صغيرا أخطأ.

هى الوحيدة التى كانت تشعر به وبما يعانيه، ضمته إليها وأخذت تهدهده كطفل صغير حتى جاء المساء، قال لها: سأبيت هنا.. أنا بحاجة إليك.

قالت له: الحمد لله ليس لدى أى ارتباطات للرقص اليوم.

قال لها: اسمعى ياكهرمانة، أنا لا أود أن تخرجي بعد اليوم للرقص، إرقصى لى وحدى.

ضحكت قائلة: وكيف أدبر عيشى، أنا كما تعلم أعيش من الرقص.

– لن تحتاجى للرقص، سأتكفل بك.. ألست امرأتى؟

أول مرة ينطق بهذه الكلمة، كاد قلبها يقفز من صدرها مرفرفا، إحتضنته وهى تقول: إمرأتك ورهن إشارتك.

– لا أريد أن تشغلى نفسك بأى شىء آخر.. آتى فأجدك دائما، لى وحدى.

لأول مرة يبيت معها فى بيتها حتى صباح اليوم التالى، ومكث معها ليلة أخرى، وغادر قرب ظهر اليوم الثالث وكأنه ينتزع نفسه انتزاعا من بيتها، ولأول مرة تشعر أنه رجلها حقيقة يلجأ إليها عند الحاجة وتشاركه همومه.

قالت لمنصورة ذلك، فقالت لها: أنت تملأين حياته أكثر من تلك الصبية التى تزوجها، أنت امرأة حقيقية وست الستات.

– لكنه عندما فكر فى الزواج لم يفكر فىّ.

– هو جرب وعاد لك ثانية، أنت الأصل، إتقلى حتى لايستطيع الاستغناء عنك

أو الحياة بدونك، نستطيع أن نتشرط ليتزوجك ويعوضك عما فعله معك، وعن تفضيله الأخرى عليك.

ـ كأني أحلم يامنصورة.. منذ رأيته وأنا لا أرى رجلا آخر سواه في الدنيا، أتعرفين؟ أقصى ما أحلم به أن يكون لي إبن منه، إبن يشبهه تماما، أكون أنا أمه.

إبتسمت لها منصورة وقالت: ليس ببعيد، لكن عليك أن تخيريه وهو بحاجة إليك، ومعك كل أسراره التي لم يبح بها لأحد سواكي، يعني أنت أقرب الناس إليه، فاتحيه في أمر الزواج، هذا هو الوقت المناسب.

نظرت إليها طويلا، هذه المرأة تخرج منها أحيانا بعض الأفكار الحكيمة، هذا ما خرجت به من الدنيا بعد أن أخذت منها كل شيء لم يبق لها سواي، حدثني عنها الكبار، كانت كالوردة في زمانها يتقاتل عليها الرجال وتزوجت تاجراً من الشام وأنجبت منه طفلة جميلة ملأت عليها حياتها إلى أن اختارها الله إلى جواره، كانت أمي صديقتها الصدوق، ماتت بعد ولادتي إثر حمى النفاس، كأنما القدر رتب كل شيء، أنا بلا أم وهي تبحث عن ابنتها، وهبت نفسها لي، لم تتركني وأنا طفلة حتى أنها رفضت الرقص في الموالد والغناء، وفضلت أن تعمل في خدمة الفرقة، ورفضت الزواج من أجلي، عندما أصبحت صبية، كنت أرقص وكانت تعتقد أنه مجرد تقليد للكبار، لكني لم أنتظر حتى أكبر ورقصت وأنا صغيرة، حاولت منعي، لكن عطوة هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة، قال لها:

ـ أصبحت مثل البومة بعد أن ولى شبابك. دعيها تعمل معنا. لأول مرة تقف في وجهه منذ قررت التوقف عن الرقص، كان هو يحميها ويتكفل بعيشها نظير ما تقوم به من أعمال وخدمة الفرقة أينما يحطون الرحال، هددته بأن تأخذني وتمضي بي بعيدا عنهم، قال لها: ليست ابنتك أنت مجرد خادمة لها. كنت صغيرة وفرحة بقدرتي على الرقص، وبنظرات المعجبين حولي، رفضت الإنصياع لأوامرها ولجأت إلى عطوة، رغم ذلك لم تتخل عني.

هو وحده.. إدريس.. أحببته أكثر من الرقص، قال لي أن أكف فكففت فورا،

وألقيت بكل شيء ورائى، لم تفلح المحاولات معى للعودة إلى الرقص مرة أخرى، قلت لمنصورة قولى لهم:

ـ مهما كان الأمر فلن أعود ثانية للرقص.. كنت أرفض مقابلة أى شخص، أسمع البعض يتحدث إلى منصورة وهى تعدهم أن تبلغنى، وتبذل الجهد معهم حتى لايصروا على مقابلتى، و بعد فترة لم تعد تفتح الباب لأحد سوى إدريس، كثرت مرات تردده علينا، الجديد أنه بدأ يبيت فى البيت، ملأ علىّ كل حياتى، فهو نفسه كان بحاجة شديدة إلىّ، يحكى عن كل ما يؤرقه، يشعر بذنب كبير يعذبه تجاه أبيه، لو كلمه أو عنفه أو حتى ضربه لخفت حدة الوطأة، يقول لى كأنما يحدث نفسه:

ـ لماذا لايريد أبى أن يفهمنى، كبار التجار هم الذين ينظرون للأمام، فهناك من يقضون حياتهم كلها كما هم، لايرون أبعد من موطىء أقدامهم، الكومبانية موجودة والترعة سيتم حفرها، وستكون الفرما ميناء أكبر من دمياط نفسها وسيأتى الناس من كل صوب من ينعمون بخيرها، ألا ننعم نحن بهذا الخير؟ نحن نفكر بطريقة مختلفة ويتفق معى السعيد وإبراهيم رغم اختلاف كل منا عن الآخر، أبو إبراهيم هل قاطعه فعلا بعد أن علم؟ هل هو مقتنع أيضا بأن الكومبانية شر ووبال على الفرما؟ أم تظاهر بذلك إكراما لخاطر أبى؟.

كانت فرحة كهرمانة بعودته إليها وحاجته إليها أكثر من أى وقت مضى قد جعلتها تشعر أنها رفيقة حياته فعلا، وليست مجرد نزوة، كانت تستمع إليه وتفكر معه. حاولت فى البداية أن تقنعه بوجهة نظر أبيه، قالت له مالم يقله وأخذت تجادله، لكنها خشيت أن يضيق بها بعد أن قال لها:

ـ حتى أنت لاتريدين أن تفهمينى. كفت عن الجدل، عرفت أن دورها أن تجعله يقول مالا يستطيع قوله لأحد، فأعدت نفسها لأن تقبله كما هو دون نقاش.

عندما عاد إلى الفرما والتقى بمندوب الكومبانية قال له: أين أنت؟ الوقت لايحتمل الهزل والابتعاد، فسوف يتم استئناف الحفر بصورة لم يسبق لها مثيل،

ووافق أفندينا على عودة العمال المصريين والتوسع على عمليات الحفر أكثر من المرة السابقة بكثير.

عاد إدريس إلى بيته فى الفرما قبل أن يتوجه إلى دمياط، سمع بعد قليل طرقا على الباب ففتح ليجد ضاحى أمامه، سأله عن أخباره وأحواله فى المحروسة، فأخبره ضاحى بالتحاقه بتخت الشيخ عبدالله الشرقاوى. وقبل أن يخبره أنه يستعد للذهاب إلى دمياط فاتحه ضاحى فى أمر خلافه مع أبيه، قال إدريس فى نفسه، لم يبق سوى ضاحى ليأخذ دور الأخ الأكبر الحكيم وينصحنى بما أفعله، قال له فى محاولة لعدم إطالة النقاش: أنت تعرف مكانة أبى لدى وكل ما حدث هو سوء تفاهم والوقت كفيل بإزالته وسيعرف أبى أننى لم أكن أقصد إغضابه.

قال ضاحى: أنت تعرف تماما أن أبى لن يرضيه إلا أن تبتعد عن الكومبانية، ولا يغيب عنه ماجاءوا لأجله، لن تقوم لأحد فى الفرما قائمة بعد اليوم، ولن يكتفوا بذلك فلن يقوم لبر مصر كله قائمة لأنهم سيتحكمون فيها من خلال الكومبانية وأنت رأيت الحال الذى كان عليه عمال الحفر من الفلاحين، فهذا هو ماينتظرنا على أيديهم إذا تمكنوا منا. ثم هل نسيت مافعلوه معنا عندما جاءوا؟ أنسيت أنهم حاولوا الاعتداء على شقيقتك؟.

قال له إدريس: لم أنس يا ضاحى، وعندما خرجت قبلهم من الحبس سعيت للإفراج عنهم وإزالة سوء التفاهم بيننا وبينهم، وأنا الذى سعيت كى يتغاضوا عنك أنت والشبان الهاربين، ولم يتكرر الأمر مرة ثانية، وماداموا قد أبدوا حسن نيتهم واستجابوا فلماذا نظل واقفين لهم بالمرصاد.

قال هذه الكلمات وهو بسبيله للخروج، ثم أضاف:

ـ أنا أخوك الكبير، وأعلم مالا تعلمه، وما يظنه أبى شرا، غدا سيقتنع به.

ذهب إدريس وترك ضاحى فى حيرة أشد، فلم يكن يتخيل أن أخاه يغفل الكثير من الوقائع التى شهدها بنفسه مع أهل الفرما، وما جرى للعمال وأكل حقوقهم، ألا يعطيه كل ذلك العلامة.

لم يكن يدرى أنه فى تلك اللحظة كان يجرى حشد الفلاحين فى القرى بكافة أنحاء بر مصر ليساقوا إلى ساحات الحفر فى الفرما ، ورأس الجسر، وقرية التمساح، وغيرها من مواقع العمل.

لم يعرف كيف يخبر أمه بما حدث، والده الذى بدا عازفا عن الكلام لا يدرى ما يجرى حوله. لم تكن هذه الفرما التى تركها، ولا أسرته كما هى، فيما عدا عودته للجلوس مع جده وجدته وزاهيه ومهران.

كان قد تحدث إلى أخيه السعيد، بدا مترددا بين العمل مع إدريس وعدم إغضاب أبيه وأمه. قال له السعيد: ألسنا أولى بالمكسب الذى يأتينا بالعمل مع إدريس بدلا من أن يلجأ للغرباء؟.

عندما ضيق عليه ضاحى قال: لا أريد إغضاب أبى حتى لو تركت الوكالة وتركت كل شيء، لكن غيرنا سيقوم بذلك وسيذهب العائد لهم ونحن نتفرج، ولن يصبح لتجارتنا شأن، وسنصبح تابعين لغيرنا من التجار.

كان ضاحى مندهشا من تلك الكلمات التى يعبر بها أخوه عما يتوارد على خاطره، فأبوه لم يكن يسعى من وراء التجارة للثراء أو تسيد الفرما، ولكنه وضعها فى خدمة أهل الفرما ولم تتوسع إلا بهم وبصغار التجار الباحثين عن الرزق الذين كان يمد لهم يد العون حتى يقفوا على أقدامهم.

وأدرك سر الاختلاف بين ما يسعى إليه أبوه وما يسعى إليه السعيد وإدريس، وما يردده السعيد الآن هو الحوار الذى كان يدور بينه وبين إدريس، ولم يدرك مغزاه من قبل.

قال السعيد:

ـ سأفعل ما يريده أبى بالوكالة ولتكن مفتوحة أمام أهل الفرما، لكن ما المانع أن نعمل مع الكومبانية، فهذا أيضا سيعود على أهل الفرما بالخير.

ثم يعود ثانية ليقول لضاحى:

ـ كل ما يأمر به أبى سأفعله لكن المهم ألا يغضب منى، فهو يعتبر النقود التى حصلت عليها قبل ذلك حراما.. كيف؟ هل أرميها فى البحر؟ ألم نحصل عليها بكدنا؟.

كانوا ينتظرون مجيء الشيخ محمد، وأمه بالذات كانت تعلق عليه الأمل فى لم شمل إخوته، فهو عالم ينطق بالحق وسنه يقارب سن إخوته، بخلاف ضاحى الذى يعتبرونه صغيرا.

الشيء الوحيد الذى استطاعه ضاحى هو مفاتحة أمه وأبيه فى رغبة مهران الزواج من زاهية.

لأول مرة يتكلم أبوه الذى خرج عن صمته الذى لازمه من جراء جرح أبنائه، قال لمهران: لن أجد شخصا أفضل منك أأتمنه على زاهية.

كاد مهران يحلق من الفرحة وكذلك زاهية، واجتمع شمل الأسرة فيما عدا السعيد وإدريس. عمتهم الفرحة التى غابت عنهم فى سياق الأحداث، وقال مهران إنه سيشرع على الفور فى بناء بيت يليق بزاهية، كما سيسعى لبناء مركب حتى يستطيع أن يكون جديرا بها.

قال السيد القبوطى: يابنى البيت ليس مشكلة، فالبيت هنا واسع ويمكن أن تقيما فيه معنا، لقد تزوج إخوتها ويمكن بعد ذلك أن تبنى بيتا على مهلك.

انحنى مهران على رأسه يقبلها. وقال السيد الفرماوى:

ـ مهران هو ابنى مثل زاهية يقيمان معنا فى بيتنا وحتى إذا قرر ضاحى أن يتزوج فليقم فى البيت هو الآخر.

قرروا أن تتم قراءة الفاتحة فى حضور الشيخ محمد. كانت أمينة تأمل أن تكون قراءة فاتحة زاهية فاتحة خير فى لم شمل أبنائها وإزالة أسباب الخلاف مع أبيهم.

مر شهر كامل منذ مجيء ضاحى ثم جاء الشيخ محمد، وفرح قلب أمينة وهى تضمه إليها، سألته عن زوجته قال إنه تركها فى بيت أبيها لأنها تعانى من الحمل

ولا تحتمل السفر.

حكت له ماحدث من أمر أخويه، وأخذ يستمع إليها دون أن يبدى رأيا، ووعدها بأن يتحدث إلى السعيد وإدريس.

كان يريد الحديث إليهما معا، وآثر الانتظار حتى يأتى إدريس، كذلك لم يبد رأيا فى أمر زواج زاهية من مهران، وعندما مر الوقت ولم يعد إدريس، أخذ يتعلل بأنه ترك زوجته وصحتها على غير مايرام، وكذلك عمله الذى لايستطيع الغياب عنه كثيرا، فأرسلوا ضاحى إلى دمياط فى طلب إدريس. توجه ضاحى إلى بيت الحاج عبدالرحمن قالوا له إنه جاء ولم يبت ليلته وأخبرهم أنه عائد إلى الفرما.

أكد عليهم أن يبلغوه أن أخاه الشيخ محمد ينتظره وأمه تريد مجيئه على وجه السرعة.

جاء إدريس فى صباح اليوم التالى وتوجه إليه الشيخ محمد وطلب وجود السعيد أيضا، شرح له إدريس ماسبق أن قاله لضاحى وأبيه.

قال الشيخ محمد لهما: لكن ديننا نهى عن إغضاب الوالدين ولم يكن من الواجب أن تعمل ما عملت، بل كان يجب أن تشرح له وجهة نظرك وتحصل على موافقته كى يباركك الله.

قال إدريس: هو يريدنا ألا نعمل مع الكومبانية وأن نقاطعها تماما ويعتقد أن ذلك سيجعلهم يرحلون، كيف ذلك وأفندينا نفسه يوافقهم ويشجعهم على ذلك.

صمت الشيخ محمد فترة ثم قال: هناك علماء أجلاء فى الأزهر يثنون على مشروع الكومبانية ويرون فيه الخير لمصر كلها وقد حضروا افتتاح الحفر ليباركوه، كما حضره بعض رجال الدين المسيحى لأن كلا منهم يرى فيه الخير لأمته، والله أمرنا بإطاعة أولى الأمر كما نهانا عن إغضاب الوالدين، قال له إدريس: أنا أوافقك على كلامك، فهذا رأى حكيم. ليتك تتحدث مع أبى مثلما تتحدث معنا الآن، فأنت ليست لك مصلحة، وهو يعتقد أننا نغلب مصالحنا.

قال السعيد:

ـ إننا نريد رضاه، ولانريد أن نغضبه.

قال الشيخ محمد: هناك أمر آخر عرضه على أبى وأريد رأيكما فيه يتعلق بزواج زاهية.

قال السعيد: هل ستتزوج زاهية؟ ربما تكون فرصة للم الشمل وعودة الفرحة للأسرة.

قال إدريس:

ـ ومن هو العريس؟.

قال الشيخ محمد:

ـ هذا ما أريد رأيكما فيه، فلم أشأ إبداء رأيى حتى أعرف رأيكما، فأبى يريد أن يزوجها من مهران شقيق عوض.

انتابت الدهشة إدريس والسعيد ثم تحولت إلى غضب. قال السعيد محتدا: لم يبق إلا أن أضع يدى فى يد عوض.

قال إدريس:

ـ ألم يجد لها إلا مهران؟.. ماذا يملك هذا الصبى.. هذا مجرد نفر من الشغيلة الذين يعملون لدينا.. يتزوج زاهية أجمل بنات الفرما؟ أى شاب من الفرما أو من خارجها يتمنى أن يتزوجها، لماذا يلقى بها إلى هذا الصبى الذى لايستطيع أن يعول نفسه؟.

قال الشيخ محمد:

ـ أنا نفسى دهشت من موافقة أبى على زواجها منه، سيتعسها وهو لايملك شيئا، لكن أبى لن يقتنع برأينا، ورأيى أن نطلب منه التريث فزاهية ما زالت صغيرة، وهو مجرد صبى لايملك شيئا، حتى أن أبى وجدى يريان أن يتزوج فى بيتنا.

قال إدريس:

ـ هذا الصبى الناكر للجميل الذى دخل تحت جناح جدى، سيصبح هو رب

البيت الذى تربينا فيه كلنا، لا، ليس سهلا هذا الصبى كما نظن هو يريد أن يرثنا كلنا.

قال السعيد:

ـ وهذا الثعلب عوض دبر الأمر مع أخيه ولم يخبرنى بشىء سأعرفه مقامه.

قال الشيخ محمد:

ـ أرجو أن تعالجا الأمر بهدوء وحكمة، وألا تتصرفا بما يغضب أبى لأن أمى كانت تنتظر حضورنا جميعا لقراءة الفاتحة بعد إزالة أسباب الخلاف مع أبى، ورأيى أن نحضر، وقراءة الفاتحة ليست هى الزواج.

احتد السعيد مرة أخرى وقال:

ـ والله لا أصدق مايحدث.

قال إدريس متفكرا:

ـ أنا مع ما يرى الشيخ محمد . وسنجد حلا إن شاء الله.

الفصل الثالث والعشرون

بدأت قوافل عمال الحفر تهل ثانية على الفرما وسط توجس الجميع، ولم تمض أيام قليلة حتى تزايدت أعدادهم حتى ملأوا أرجاء الفرما. قامت الكومبانية بإضاءة ساحة الحفر ليتواصل العمل فيها ليل ونهار، لم تكن تترك الفرصة للفلاحين القادمين لالتقاط أنفسهم من مشاق الرحلة الطويلة التي قطعوها من قرى الوجهين القبلي والبحري مكدسين في المراكب. كانت مجموعات منهم تهبط على حدود الدقهلية ثم تواصل الرحلة سيرا على الأقدام إلى رأس الجسر وقرية التمساح.

أما الباقون، فيواصلون حتى دمياط أو المنزلة ويقودهم مقاولو الأنفار إلى ساحات الفرما، وبمجرد وصولهم كان يتلقفهم الملاحظون ورؤساء العمال الذين كانت الشركة تعينهم من بعض مشايخ البلدان والشوام والأتراك، ويوزعونهم على مواقع العمل، ويحددون لهم مقطوعية العمل اليومية مع التشديد بعدم مغادرة موقع العمل لأى سبب، كما يحددون لهم موعد صرف الطعام ومياه الشرب وقضاء الحاجة، ولم يكن هناك أى حديث عن الأجور.

بعد إلغاء حظر التعامل مع الكومبانية وإعلان حاجتها إلى التموين ومياه الشرب، وكذلك بعض عمال البناء والحرفيين لإقامة المساكن تحت إشراف الفنيين الذين جلبتهم من فرنسا وبعض الدول الأوربية، بدأ عدد من المقاولين وأصحاب المراكب ومتعهدى التموين يفدون إلى الفرما وغيرها من ساحات الحفر ليعرضوا خدماتهم على الكومبانية، ووجد إدريس نفسه أمام منافسة شديدة لم يكن يجدى معها العمل وحده، أو التستر أمام والده.

كان قد تغاضى هو والسعيد عن معارضة زواج زاهية وحضر قراءة فاتحتها واجتمع شمل الأسرة كما كانت أمينة تتمنى، وحاول أن يسترضى أبيه، ولم تشفع الديباجة التى أعدها الشيخ محمد للتوسط بينهم والتى استهل بها حديثه عن رضاء الوالدين، وأظهر إدريس والسعيد موافقتهم فورا على كل مايقوله مؤكدين أنهم لا يطمعون إلا فى ذلك، وأن يغفر لهما والدهما إذا كانوا قد أخطأوا فى حقه، لكن السيد القبوطى سرعان ما أماط تلك الغلالة التى تستر وراءها، عندما تحدث مباشرة عن تعامل إدريس والسعيد مع الكومبانية، فعاد إدريس ليقول له بأسلوبه المراوغ:

ـ لقد كنا معك فى الحبس يا أبى ولم نتخل عن أهلنا فى الفرما، وقد ارتكبت الكومبانية أخطاء فى حق الفلاحين المصريين مما دعا أفندينا وكافة أولى الأمر إلى وقف التعامل معها حتى يضمنوا حق العمال فى الحفر، وهى قد استقدمت عمالا من الشام وأعطتهم أجوراً مجزية مع ضمان كافة حقوقهم، وأى مصرى يتعامل معها سينال الحقوق نفسها. وأنا لم أقصر فى حق أهل الفرما، فالوكالة عامرة بالبضائع أمام من يريد منهم.

قال السعيد:

ـ وهؤلاء العمال الذين جاءوا للحفر، من أين يحصلون على الطعام إذا لم نزود الكومبانية؟

التفت الأب إلى الشيخ محمد قائلا:

ـ وأنت أيها القاضى الشرعى ماذا ترى فى ذلك؟ والتفت إلى إبراهيم، الذى فنكس رأسه وهو يغالب انفعاله.

قال أبوالمكارم:

ـ أهكذا يا إبراهيم، تبعد الصيادين الذين وقفوا بجانبك، حتى تتخلص منهم فيما بعد، ليس إبنى الذى يفعل ذلك.

وحده إبراهيم الذى شعر بالحرج، ولم يستطع أن يواجه الموقف، بل لم يدرى

ماذا يقول، تعثرت الكلمات على شفتيه، وأخذت تتناثر وهو يعلن ندمه، ووعده ألا يستمر.

قال الشيخ محمد : يا أبى أنا لا أتكلم إلا بما أقره كتاب الله، أن نتحاشى غضب الوالدين ونطيع أولى الأمر، وقد سمعت شيوخا أجلاء فى الأزهر يتحدثون عن الخير الذى سيعم بر مصر بعد حفر الترعة، والكمال لله وحده، ونحن يهمنا أن ننبه أولى الأمر إلى بعض التصرفات المعيبة فى حق الناس ماداموا يهدفون إلى الخير، وإعطاء كل ذى حق حقه.

ـ هل استطعت أنت أو من لقنوك هذا الكلام منع الجوع والعطش عن عمال الحفر؟ هل علا صوت أحد منكم فى الأزهر للدفاع عنهم، أنت بعيدون عنهم ولم تروهم وهم يعانون العطش والجوع والعمل الشاق وسرقة أجورهم وبخس حقوقهم، لقد كفوا تماما عن دفع أجور للعمال وها هم يعملون فى السخرة كالعبيد ونحن نتفرج عليهم . هذه ليست سوى المقدمة، ولن تقوم قائمة لأحد فى الفرما أو بر مصر كله مادام الطمع قد أغشى الأبصار. الفرما هى مصر ومصر هى الفرما.

كانت زاهية مأخوذة بما يجرى حولها، وتلك الغيوم التى حطت فى سمائها، فلماذا لاتكتمل فرحتها مثل باقى إخوتها، رغم فرحة أبيها وأمها وجدها وجدتها ووجود ضاحى إلى جوارها، لهجة أبيها وهو يوصى مهران قائلا: حافظ على زاهية مثلما فعلت عندما تعرض لها الرجل الأجنبى ونحن فى الحبس، أعرف أنك ستكون أمينا عليها أكثر من إخوتها.

قال ذلك فى حضورهم، ولم تخف عليها نظراتهم إليه رغم تأكيدهم لكلام أبيهم وهم يوصون مهران بها، ضاحى هو الذى شد على يديه واحتضنه وهو يهنئه، أما السعيد فقد تجاهل عوض الذى حضر لقراءة فاتحة أخيه، متعمدا أن يشعره أن المسافة بينهما لا تزال قائمة.

أصبح السعيد لايطيق وجود عوض فى الوكالة، فلقد بدأ يشعر أنه وشقيقه

يعملان بخبث على الاستيلاء على بيت القبوطى ليحلا محلهم لدى أبيهم منتهزين فرصة الخلاف بينهم، صرح بذلك لإدريس قائلا:

ـ لقد أحكما خطتهما بدهاء واصطنعا المسكنة حتى تمكنا.

نصحه إدريس ألا يطرد عوض من العمل معه لكي لايلجأ لأبيه، على ألا يأتمنه على العمل بعد اليوم حتى لاتتطاول أطماعه إلى الوكالة ، وبأن يتجاهله تماما، بعدها بأيام أتى إدريس بعمال من دمياط ليعاونوا السعيد فى العمل بالوكالة، فقال له السعيد : هذا الخبيث يعتقد أنه قد تمكن هو وأخيه منا لكن لن يتم هذا الزواج طالما أنا موجود.

مع قدوم عمال الحفر ، أخذ إدريس يعمل ما بوسعه كى يتغلب على منافسيه فى التعامل مع الكومبانية. كان قد علم أن الأيام القادمة ستفسح المجال لآخرين غيره لاغتنام الفرصة، ولكنه رأى أن تكون له مكانته المميزة خاصة أنه بدأ مع الكومبانية من البداية . أخذ يتحرك بلا هوادة من رشيد إلى الاسكندرية ودمياط والمنزلة والفرما، عقد المزيد من الصفقات مع التجار وأصحاب المراكب الكبيرة لتوريد المؤن ومياه الشرب فى فناطيس كبيرة تحملها المراكب لساحة الحفر، وترسو بها على شاطىء الفرما أمام مقر الكومبانية، وحرص على ألا يشعر السعيد أنه يعمل بعيدا عنه . وهو يعرف الطريقة التى تجعله يسكت عنه، بأن يحول كميات كبيرة من المؤن إليه حتى تحولت الوكالة إلى مخزن كبير للكومبانية تحول منها الحبوب عند الحاجة . ولم يعد أمام أى منهما مجال للتخفى عن أبيهما أو أهل الفرما، لكن كلا منهما تحاشى الاقتراب من أبيه أو من بيت الأسرة.

أقام إدريس فى بيته خلال وجوده فى الفرما، فكان يتردد عليه رجال الكومبانية والمتعاملون معه من التجار وأصحاب المراكب، وأحيانا كان يستضيفهم فى بيته غير عابىء بنظرات أهل الفرما.

كان يستقدم بعض الصيادين والعمال من خارج الفرما للعمل معه فى نقل البضائع وتفريغها، وكذلك فى نقل المياه، فكان هؤلاء يترددون عليه بدورهم فى

انتظار المراكب التى ستأتى، وعندما كان يغادر الفرما، كانوا ينتظرونه ويبيتون بالقرب من بابه، تزايدت أعدادهم مع الوقت، وأطلق عليهم أهل الفرما اسم الهنجراوية وشاعت تلك التسمية على كل المتعاملين مع الكومبانية على سبيل التهكم.

تحاشى أهل الفرما العمال الذين يتعاملون مع إدريس ويحيطون به، ورفضوا التعامل معهم، كانوا يرونهم وهم يتجمعون حوله يتقاضون منه الأجور ويوزع عليهم العمل . وبينما كان موقفهم يستفز البعض ويثير حفيظتهم ، أخذ بعض العمال الذين وفدوا على الفرما من قبل وأقاموا فيها حتى أصبحوا من سكانها يتقربون من إدريس في الخفاء كي يسند إليهم بعض الأعمال، فوجدها فرصة سانحة لكسر نطاق العزلة الذى ضربه حولهم أهل الفرما.

أوكل إليهم أعمالا على الفور وأعطاهم أجوراً مجزية، قال لهم إن أهل الفرما أولى من غيرهم، وإنه ينتظر أن يتعاونوا معه لأنهم أهله، ورغم تحفظاتهم ومحاولتهم التخفى أصر إدريس أن يتم ذلك علنا على مرأى من أهل الفرما حتى أنه كان يبعث فى طلبهم أمام الجميع . وأمام إغراء النقود التى بدأت تملأ جيوبهم تخلوا عن تحفظاتهم وأصبحوا يدافعون عن إدريس مبررين أفعالهم بأنهم يحصلون على النقود من كدهم، ويرددون حججه قائلين إنهم إن لم يفعلوا ذلك فسينعم غيرهم بالخير، وإنهم لا شأن لهم ولا علم بنيات الكومبانية ولايملكون حيالها شيئا فهذه الأمور تخص الكبار فى المحروسة.

احتدم الخلاف بين هؤلاء الهنجراوية وسواهم من أهل الفرما الذين أثار هذا الموقف حفيظتهم، وكان ذلك مثار حديثهم اليومى فى ساحة المناخ . كان السيد القبوطى يرقب الموقف، ويعقب بكلمات قليلة، بينما أخذ السيد الفرماوى يضرب كفا بكف وقد أصابه الجزع غير مصدق لما يحدث، هل هذا هو إدريس الذى أسماه على اسم صديقه القديم الزاهد المتصوف الحكيم تيمنا به؟ إدريس الذى تلقفه بين يديه وليدا، وكبر أمامه يوما بعد يوم، يتذكر عندما كان يتشبث به عندما

كانا يذهبان هو وأبوه إلى دمياط يقف معهما وهما يحضران البضائع ويتعرفان على التجار، ويحاول أن يقلدهما وهو يتصرف كرجل كبير، يردد كلامهما فيثير ضحكاتهما. قال لسكينة: غدا سيصبح تاجراً ماهراً، وهو يذكرها بأمينة وهى صغيرة عندما كانت تحاول تقليدهما وهما يقومان على خدمة الحجاج فى المناخ، حتى ظهرت مهارتها فى العمل، وأصبحا يعتمدان عليها وينعمان ما تضفيه على المكان من بهجة كما أدخلت الفرحة إلى حياتهم، هذه الفرحة التى تجددت بميلاد أبنائها خاصة إدريس.

من كان يصدق أن تنقلب الفرحة. وتتحول مهارته إلى جانب آخر، بعيدا عما كان يتطلع إليه جده وأبوه وأمه وتصبح نقمة . يضرب كفا بكف وهو يصيح:

– الطوفان قادم .. ليغرق الفرما.

أخبار إدريس يتناقلها أهل الفرما وتصل إلى أسماع أمينة، وهى ترى زوجها مجروحا عازفا حتى عن محادثة الناس الذين التفوا حوله . كان صمته أبلغ من أى كلام، إذ كانت كلماته تتردد على ألسنتهم، وهم يشعرون بما يعانيه من جراء أبنائه، كانوا يكتشفون كل يوم تسلل واحد من رجال الفرما إلى الهناجر، حتى أخذت الأسرة الواحدة تنقسم، بين الأخ وأخيه والأب وأبنائه، و بدأ الهنجراوية يرددون كلمات إدريس بعد أن بدا المال يتدفق بين أيديهم . وأصبح كل جانب منهما يتحاشى الآخر، ويحتدم النقاش فى ساحة المناخ حول هؤلاء الهنجراوية بينما السيد القبوطى يبدو عازفا عن الكلام.

كان السيد الفرماوى مع أهل الفرما يرقبون عمال الحفر الذين يأتون بعد نهاية العمل ليبحثوا عن المياه أو الطعام منهكين خائرى القوى، لكنه وحده الذى لاحظ أن هناك بينهم من يأتون ليسألوا عن السيد القبوطى، ويتعرفوا إليه ويجلسون حوله، ساعتها كان يخرج عن صمته ويتحدث إليهم . يبدون كأنهم معارف قدامى، أو قادمين إليه من طرف أحدهم، لكن ما كان يحيره أنهم يأتون من أماكن مختلفة، وبعضهم كانوا يتحدثون بلهجة صعيدية، وآخرون بلهجات بحراوية.

تعود الجالسون فى ساحة المناخ على رؤية هؤلاء العمال الذين يترددون على السيد القبوطي ولم يدر بخلدهم شيء مما يدور من أحاديث بينهم وبينه . وعندما يتذكر السيد القبوطي ذلك فيما بعد، يعود بذاكرته إلى زيارتهما للمحروسة، إلى المعارف الذين كان يتردد عليهم فى أماكن كثيرة، فالرجل أمضى عمره الأول فى التجوال فى أماكن كثيرة وله معارف فى أماكن كثيرة . يستعيد كلماته وهو يتحدث عن بعض الأماكن التى تردد عليها وأقام فيها، لكنه أقام فى الفرما منذ زمن ، فكيف ظلت علاقته قائمة بهؤلاء؟ لابد أنهم من الأبناء الذين عرف آباءهم أو ممن يمتون إليهم بصلة ما .

كان الأمر محيرا بالنسبة للسيد الفرماوى.

الفصل الرابع والعشرون

لم يكن ضاحى يتخيل عندما جاء إلى المحروسة أن تغوص قدماه فى أرض الفرما مع كل خطوة يخطوها ويغرق فى دواماتها، فعندما ذهب مهران كى يستدعيه أخبره بما دار بين أبيه وأخويه السعيد وإدريس وغضب أبيهما من أفعالهما . كان يتصور أن ذلك حادث عارض وليد اللبس وسوء الفهم، ولن يلبثا أن يتداركا ذلك، وأن أباه فى النهاية قادر على استعادة إبنيه اللذين لاشك سيشعران بفداحة ما فعلاه طالبين منه الصفح والمغفرة، بعد أن اختلطت عليهما الأمور . كما فرح كثيرا عندما أخبره مهران برغبته فى الزواج من زاهية، وبموافقة الجد، إذ اعتبر الأمور تسير بصورة طبيعية، وأن ذلك فرصة لجمع شمل الأسرة، وإذابة ما علق من شوائب ويعيد الصفاء بينهم لتنطلق ضحكاتهم ويعبروا عن فرحتهم مثلما حدث عند زواج إخوته الكبار.

كان يفكر فى العرس الكبير الذى سيقام فى الفرما، الذى قرر أن يدعو له الشيخ عبدالله الشرقاوى مع أفراد التخت، ليصبح عرسا للفرما كلها، التى لم تعرف الفرح منذ جاء هؤلاء الأغراب، كما قال للشيخ عبدالله وهو يودعه.

قال له الشيخ عبدالله:

ـ على عينى إكراما لك ولأبيك ولأهل الفرما أيضا.

كان يحكى لمهران منتشيا عن المغنى الذى أحبه ووجد نفسه فيه ، عن الشيخ عبدالله الذى أحاطه برعايته وعلمه كيف يقرأ الأشعار ويتفهم المعنى ويستوعبه، وعلمه كيف يؤدى الأدوار والموشحات والأغانى، أخبره ضاحى عن الأشعار والأغانى التى حفظها عن جده، التى أعجب الشيخ بها، وكان جده قد حفظها عن

عن بن إدريس وكان يرددها عليه منذ أن كان صغيرا . حكى له عن الحكايات التى سمعها من جده . يندهش الشيخ عبدالله، يبدى رغبته أن يتعرف على الجد، ولذا عندما دعاه إلى الفرما تحمس للذهاب، كان يدرك أن هناك من يحب المغنى الحقيقى ويتذوقه.

حكى ضاحى لمهران عن النجاح الذى حققه وعن صيحات الإعجاب التى تنطلق من المستمعين فى الليالى التى يحيونها وهم يتنقلون من مكان إلى مكان ويقدمه الشيخ عبدالله للناس، فقد اعتبره إبنه وتلميذه فى الغناء حتى أصاب قدراً من الشهرة جعل الناس يطلبونه بالإسم الذى عرف به ، وهو «ضاحى الفرماوى» . تنقلوا فى أماكن مختلفة من الوجه البحرى وبعض الأماكن فى الصعيد وتعرف إلى المطربين والشعراء الذين يؤمون بيت الشيخ عبدالله، كما تعرف ببعض الأعيان والوجهاء الذين كانوا يترددون عليهم لإحياء الليالى، كأن أبواب القدر تفتح له.

عندما أخبرهم أنه ينوى السفر للفرما، أوصاه الشيخ عبدالله ألا تطول غيبته هناك، قال:

ـ سأبقى قليلا هناك أوحشتنى الفرما وأهلها وأسرتى، سأعود سريعا، كان فى جعبته الكثير الذى يحكيه للسيد الفرماوى عندما يعود ويضمهما مجلسه هو وزاهية ومهران، وهو يشعر بنظرات الإكبار التى ترمقه بها زاهية وهو يحكى لهم، وتعليقاتها وهى تحاول أن تتخيل كيف أصبح ضاحى توأمها الذى لم يفترق عنها. كبرت زاهية وأصبحت عروسا، لابد أن تتخلى عن بعض نزق الطفولة وتحاول أن تتحلى بالوقار كما لو كانت فتاة كبيرة، وسوف يذكّرها أنها لن تترك حضن جدها حتى وهى تجلس بجوار عريسها فى الكوشة، وعندما ستصبح أما ولديها أطفال . سيجلس مهران بجوارها وسيجلس جدها على الجانب الآخر، ستكون أجمل عروس فى الفرما.

منذ اللحظات الأولى لوصوله وهو يستشعر رياحا معاكسة لكل ما كان يتوقعه. حكى له جده ما كان من أمر أخويه، لم ينتظر مجىء الشيخ محمد الذى كانوا

يعلقون أملا على عودته ، خاصة أمه، فهى تعتقد أن له مكانة مميزة بين إخوته باعتباره عالما بأمور الدين، لكن ضاحى يعلم تماما أن الشيخ محمد قد انصرف تماما لعمله وعلمه، لتأكيد مكانته كقاض شرعى ولتحقيق طموحاته كعالم، ولم يعد يعنيه مايدور فى الفرما، بل يعنيه مايردده شيوخه فى الأزهر، فقد قال له:

ـ كيف يكون المشروع الذى تقوم به الكومبانية شرا وشيخ الأزهر بنفسه قد ذهب ليباركه فى الافتتاح؟ فهل يسعى للشر بكل مايملكه من دين وعلم؟ وأفندينا نفسه يوافق عليه، لو كان هناك شر يضمر لأمته ما وافق، وقد أمرنا الله بطاعة أولى الأمر منا . وعندما ردد عليه ضاحى ما قاله أبوه وذكره بموقفه هو وأهل الفرما من الكومبانية صمت ثم قال:

ـ ربنا يعمل ما فيه الخير.

لذلك كان ضاحى يعلم أن الشيخ محمد عندما يأتى سيقول كلاما لايحل ولايربط وسينتهز الفرصة ليعود سريعا للمحروسة متعللا بمشاغله التى تركها هناك.

عندما تحدث إلى أخيه إدريس أدرك ضاحى فداحة الأمر، فليس الأمر مجرد لبس أو سوء فهم أو أن إدريس بحاجة إلى من يذكره بالحقائق التى نسيها أو تناساها، وأدركها أبوه وأهل الفرما منذ مجىء رجال الكومبانية . فإدريس يدرك تماما ما يقوم به، وما هو مقدم عليه ويجده صواباً وما عداه تقدير خاطىء للأمور يجب أن العدول عنه، رغم ما يردده من عدم رغبته فى إغضاب أبيه وما يأمله من صفح عنه وتفهم لما يقوم به . لم يكن ما تحمله لهجته من حدة مجرد نتيجة لفارق السن الذي جعل أخاه الأصغر يقوم بدور الناصح له، بل كانت تشى أيضا بمحاولة النيل ممن يظنون به السوء والذين لايتفهمون التغيرات التى طرأت على الفرما.

أما السعيد فقد بدا مراوغا وهو يحاول أن يدفع به إلى حجج إدريس مؤكداً أن الوكالة ستظل كما هى فى خدمة أهل الفرما كما أراد أبوه، ولم يخف على

ضاحى، وهو ينظر إلى المخازن المكدسة بالأجولة حتى أصبح التحرك بداخلها صعبا، أنها لم تعمر قبلا على هذا النحو لأهل الفرما، كما لم تخف عليه قلة عدد المترددين عليها من التجار وأصحاب الدكاكين من أهل الفرما الذين تعودوا التردد عليها.

وعندما جاء الشيخ محمد إختلى بأخويه طويلا، لكن كلماته جاءت كما توقع ضاحى، لم تنبىء بعدول أخويه عما يقومان به، ربما لأنه هو نفسه مثلهما، يجد الخير فيما تقوم به الكومبانية، ولم تجد مراوغته أمام كلمات أبيه القوية الحاسمة، فلم يستطع سوى الرد قائلا:

ـ الله يعمل ما فيه الخير.

هى أمينة التى حاولت أن تجمع شمل أبناءها حول أبيهم، وإعلان خطبة زاهية لمهران وقراءة الفاتحة . لم يخف على ضاحى فتور مشاعر إخوته تجاه مهران رغم تهنئتهم لزاهية وإعلان فرحتهم لزواجها مراعاة لها . الفرحة الحقيقية كانت من نصيب جده وجدته وأمه وأبيه . كما لاحظ الفتور الذى قابل به إخوته وإخوة مهران الذين جاءوا من قريتهم قرب المنزلة لحضور قراءة الفاتحة . رحبت أمينة بهم هى وسكينة وقدمتا لهم فروض الضيافة حتى عودتهم فى اليوم التالى . ولاحظ الخشونة التى تعامل بها السعيد مع عوض كأنما يؤكد له أن بعد المسافة بينهما مازال قائما.

كل ذلك دعاه إلى الوقوف بجوار أخته وصديقه حتى يتم زواجهما، واقترح أن يقيم العروسان فى بيت الجد بعدما ألمح إخوته إلى أن بيت الأسرة لهم جميعا، وأشاروا أنه قد يصبح مطمعا لمهران وأخيه، ورأى أن يبتعد بأخته عن أية مشكلات يمكن أن يثيرها الإخوة الكبار، لكن مهران أعلن أنه سيشرع فى بناء بيت بجوار بيت الجد يليق بزاهية، وبدأ على الفور فى بناء البيت بمساعدة ضاحى الذى وقف بجواره بكل ما يستطيع ليكون بيتا جميلا كما تمنى مهران وزاهية، فرح الجد والجدة لأن زاهية ستبقى بجوارهما هى ومهران، لذلك قرر ضاحى أن

يؤجل عودته إلى المحروسة.

كانت الخيوط التى تعلقت بها أمينة أو هى من أن تحتمل أى ثقل يفوق الوجود لقراءة فاتحة زاهية، وما لبثت أن تمزقت تحت وطأة ما اعتمل فى النفوس، فها هى قوافل عمال الحفر تجتاح الفرما كالطوفان ، وأقام أولئك العمال فى خيام نصبت حول مساكن الفرما وملأوا طرقاتها ، وأصبح الطريق بينها وبين ساحة الحفر كخلية نحل، إختلطت الأمور على الكثيرين من أهل الفرما الذين ذهبوا العمل مع إدريس ورددوا كلماته، وتباعدت الشقة بينهم وبين من يرددون كلمات السيد القبوطي . وبدا السيد القبوطي عازفا عن الكلام وخيمت على الجميع غيوم كثيرة، ضيعت فرحة زاهية ومهران رغم محاولات ضاحى أن يبعث البهجة فى نفسيهما، وهو يظهر الحماس ويدعو مهران إلى إضافة أجزاء جديدة إلى البيت الجديد، وغرس بذور الأشجار والنخيل أمام الدار، لكن صمت السيد القبوطي وتباعد الشقة بينه وبين أبناءه تركا آثارهما على كل شىء.

حتى السيد الفرماوى نفسه انصرف إلى صهره وما انتابه من صمت، ولم تجد محاولاته معه لإخراجه عن صمته . فقد عاد للجلوس على المصطبة القبلية أمام البحيرة، وهو يرمى ببصره بعيدا، يغمض عينيه ويفتحهما داعيا الله أن يلهمه الصواب، فتتوارد أمامه صور شتى ووجوه مرت عليه، تتداخل فيما بينها، يراه من حوله مستغرقا فى نوبات طويلة يحادث فيها أشخاصا لايراهم أحد غيره ويستحضر وجوها مرت عليه قبل ذلك، منها بن سلام . تستمع زاهية إلى كلمات مبتورة، تتخللها إيماءات إلى مواقف وحكايات مما كان يحكيه، وكلمات أخرى لاتعرف ماترمى إليه، تستعين بضاحى ومهران وتردد عليهما ما سمعت، يفكرون فيما يعنيه . ينتبه إليهم وهو يضرب كفا بكف مستنكراً مايبدو من إدريس والسعيد، ومن كل الهنجراوية من أهل الفرما.

البادرة التى أراحت ضاحى بعض الشىء هى تراجع إبراهيم أبوالمكارم زوج أخته فاطمة، الذى وجد نفسه معزولا ليس من أسرة زوجته فقط، بل وأسرته أيضا بعد أن نال غضب أبيه، حتى إن فاطمة قد جاءت إلى أهلها، وقالت لهم وهى تبكى

إن إبراهيم لم يكن يتصور الأمر على هذا النحو، وإن إدريس وعده أن يفاتح أباه قبل أى شيء.

لم يكن لضاحى أن يفكر فى العودة إلى المحروسة مفارقا أباه وجده على هذا النحو إذ أن الاستعداد لزواج زاهية لم يمكن من خلق لحظات من الفرح تبدد هذا الكابوس الجاثم على صدورهم .

فى البداية، قال لنفسه إنه لن يلبث أن يستعيد أبوه عناده وإصراره، ثم يعود ليجمع أهل الفرما حوله كي يوقفوا نشاط هؤلاء الهناجراوية ويخلعونهم من بينهم، لكن الأيام كانت لاتنم عن أى بادرة سوى عزلة أبيه، وتباعد إخوته كل فى جانب.

وتتوالى الأيام متشابهة، ولاتلوح أمامه علامة يعرف بها ماتحمله الأيام القادمة، لم ينتبه ضاحى إلا يوم جاء يونس زميله فى تخت الشيخ عبدالله، أفاق ضاحى مما هو فيه واحتضن كل منهما الآخر، قال له يونس:

ـ لم أتوقع أن تغيب عنا كل هذه المدة، شهران مضيا منذ غادرتنا لا حس ولا خبر، الشيخ عبدالله انتابه القلق عليك ويخشى أن يكون هناك أمر ما .

لم يدر ضاحى بما يجيب.

قال يونس متسائلا:

ـ لماذا إذا غبت هذه المدة كلها، وتركت كل شيء؟ هل نويت أن تهجر الغناء وتعود للصيد يافرماوى؟.

قال ضاحى:

ـ كل مافى الأمر شعرت أن وجودى وسط أهلى مهم فى تلك الفترة، لكن قل لى، قبل أن يأخذنا الكلام، كيف خطر ببالك أن تأتى إلى الفرما.

ـ أقول لك الحق، جئنا لنغنى فى دمياط وبمجرد وصولنا طلب منى الشيخ عبدالله أن آتى كى أسأل عنك وأحضرك له.

قفز ضاحى فرحا:

ـ الشيخ عبدالله فى دمياط الآن.

ـ نعم وهو ينتظرك على وجه السرعة.

الفصل الخامس والعشرون

يتذكر السيد الفرماوى أحداث ذلك اليوم، بكل تفاصيلها وتداعياتها، والعلامات المميزة لها، التى اكتملت فيها حلقات الدائرة التى بدأت منذ جلوسه أمام البحيرة ثلاثة أيام ومجيء السيد القبوطى بعدها، حتى تلك اللحظة، تتابع صورها أمام عينيه بكل التفاصيل والأحداث، تتجمع كلها فى لحظة، كأنها لم تستغرق العمر بأكمله، وكأنها لم تتسلمه شابا عفيا فى مطلع العمر لتسلمه إلى شيخوخته . وكأن الأحفاد الذين أصبحوا رجالا قد صحبوه منذ بداية رحلة العمر، تتخلل وجوههم المشاهد والأحداث التى عاشها مع سكينة قبل مجيئهم من البيت الكبير، وسكينة تضمهم إليها خائفة من بطش نساء الدار . كيف قست قلوبهن على هؤلاء الصغار . ثم وهم يملأون الدنيا ضجيجا حولهما، ويحيطون بهما وهما يبيتان على الجزر فى البحيرة، يصطحبانهم إلى مولد سيدى أبوالمعاطى، ويتقافزون حولهما، وهم يلهون بالشخاليل المعدنية والبيارق الملونة، وتتعالى ضحكاتهم أمام حلبة البهلوانات وتثيرهم أحابيل الحواة.

تجمعهم أمينة حولها وهى تنادى كلاً منهم، وتطلب منهم أن يساعدوها فى خدمة الحجاج الذين بدأوا يفدون إلى ساحة المناخ، تبدو فى مثل عمرهم، يسرع كل منهم فى اتجاه ويثابر على إنهاء عمله، بينما تقبع زاهية بجواره وهى تشير إليهم، تشكو من مشاكستهم لها، فيربت عليها وهو يتظاهر بالغضب منهم، من يجرؤ أن يغضب أميرة التنيس، هى هنا بجوارى وفى حمايتى.

يرقب السيد القبوطى وهو يخرج من داره، ثم يقف أمام الباب متأملا المكان، ويتجه فى هدوء وصمت إلى جلسته فى الساحة، ينعصر قلبه وهو يلمح الأسى

والمرارة على ملامحه، كأن السيد القبوطى قد أقام جداراً غير مرئى بينه وبين الآخرين، حتى أقرب الناس إليه . يلتف حوله رجال الفرما الذين اعتادوا الجلوس معه يدور حديثهم عن هؤلاء الهنجراوية الذين يتزايد عددهم فى الفرما سواء من الأغراب، أو أهل الفرما وغيرها، خواجات وشوام وأتراك ومصريون، وأصبح من الأحاديث المعتادة التى تدور فى ساحة المناخ اكتشاف الأسرة أن أحد أفرادها قد إنضم إلى هؤلاء الهنجراوية، ليصبح ذلك سببا للشقاق وأحيانا القطيعة فى كثير من الأسر . لم يعد الهنجراوية يتخفون كما كانوا يفعلون قبلا، فكانوا يشاهدونهم وهم يترددون على بيت إدريس أو على هناجر الكومبانية وأصبحوا يرددون كلمات إدريس وحججه، وكان الآخرون يرددون كلمات السيد القبوطى عما ستجلبه الكومبانية على الفرما والمحروسة من خراب، ويستشهدون بما جرى لعمال الحفر. كان عدد المحيطين بالسيد القبوطى يتناقص حتى امتد تأثير الهنجراوية إلى بعض الشبان والرجال الذين خرجوا معه لملاقاة رجال الكومبانية عندما جاءوا لأول مرة، وبعضهم ممن أودعوا معه في الحبس، ولقوا بسبب ذلك أسكالا من الضرب والتعذيب والإهانة لم تفل من صلابتهم ووقفتهم وقفة رجل واحد، لم يتهاون أحد منهم . كانت أسماء بعض الذين انضموا إلى الهنجراوية تتردد، فيزداد الغضب والدهشة والمرارة.

وأخيرا فها هى قوافل عمال الحفر قد هلت من جديد يوما بعد يوم وتزايدت أعدادهم أكثر من ذى قبل بكثير حتى ملأوا الفرما ونصبوا خياما حول بيوت الفرما ليبيتوا فيها . ومع الأيام الأولى لوصولهم عادت من جديد مشكلة مياه الشرب، فالمياه التى تصرف لهم من الكومبانية شحيحة لاتكاد تروى ظمأ، وما أن ينتهى يوم العمل يسارعون بالبحث عن قطرة مياه، و ازدادت ملوحة الآبار مع زيادة الطلب عليها حتى أنهم كانوا يضطرون إلى شرب ماء البحيرة المالح ، وقد خارت قواهم بعد العمل الشاق ولايستطيعون الذهاب إلى الأماكن البعيدة لرى ظمأهم، حتى شح الماء أهل الفرما أنفسهم.

وسط هذه الأحداث وحده السيد الفرماوى الذى كان يرقب عن كثب هؤلاء العمال الذين يترددون على السيد القبوطى، كان الواحد منهم يأتى ويقف مترددا، يسأل عنه فيشيرون إليه، ساعتها فقط كان السيد القبوطى يخرج عن صمته وينتحى بهم جانبا ويتحدث معهم . حار السيد الفرماوى فى أمر هؤلاء، ماهو الحديث الذى يدور بينهم وبينه وهم لايكادون يعرفونه؟ لابد أن هناك أمرا ما لايعرفه أحد سواهم . السيد القبوطى أمضى حياته متنقلا قبل أن يستقر فى الفرما، تردد على قرى وبلدان كثيرة وقد شاهد ذلك بنفسه عندما اصطحبه إلى المحروسة مع الشيخ محمد لإلحاقه بالأزهر، هؤلاء الذين التقيا بهم فى أماكن عديدة وأحياء مختلفة، بجوار الكنائس والأديرة فى مصر عتيقة والسيدة زينب والجمالية، يتعاملون معه بحميمية كأنه لم يغادرهم قط، ربما كان له معارف كثيرون فى أماكن أخرى، وهؤلاء العمال من معارفه أو ذويهم وأهالى قراهم، فهؤلاء الأغراب كما يبدو من هيئتهم ولهجتهم ينتمون إلى أماكن عديدة من الصعيد ومن بحرى، كان هذا الأمر يشغل بال السيد الفرماوى، فهذا الرجل الذى هبط عليه من المجهول وشهدت الفرما الخير بقدومه يرى كل شيء ينحسر عنه، ومن أقرب الناس إليه، أبناؤه الذين جاءوا من صلبه . يتمتم وهو يضرب كفا بكف : لطفك يارب.

فى ذلك اليوم يتذكر السيد الفرماوى بينما هم جلوس فى ساحة المناخ كعادتهم فى الأيام الأخيرة، شاهدوا جمعا من الرجال قادما من اتجاه ساحة الحفر، لم يكن يبدو عليهم أنهم من العمال الذين كانوا يأتون فرادى أو مجموعات صغيرة، إتجهت الأنظار إليهم وهم يقتربون من الساحة، وما أن أصبحوا فى مواجهتهم حتى رأوا إدريس يتقدمهم ومعه السعيد ومصطفى ابن الحاج عبدالرحمن التابعى صهر إدريس وصديقه، يحيط بهم جمع من الهنجراوية من بينهم رجال وشبان من الفرما، وأشخاص آخرون يبدون ذوو أهمية، وهم يتجهون نحوهم فى ساحة المناخ وليس نحو بيت إدريس كما تعودوا .

تعلقت أنظار الموجودين بهم، بل نهض بعضهم واقفا وهم يتطلعون بدهشة شديدة إليهم، وهم يرونهم يأخذون جانبا من الساحة وإدريس يتوسطهم، ويلقى إليهم بالتعليمات والأوامر ويوزع العمل عليهم، لم يكن الأمر فقط غريبا على أهل الفرما الذين يرفضونهم بسبب تعاملهم مع الكومبانية، ولكنه كان غريباً من حيث اختلاف هيئة أولئك الهنجراوية وملابسهم ، فقد ظهر مفعول نقود الكومبانيه فى ملابسهم وطريقتهم فى الحديث وإدريس يوزع النقود على الصغار منهم، ويشدد على أهمية ما يكلفهم به من أعمال.

اتجهت الأنظار إلى الجانب الآخر لدى رؤيتهم للسيد القبوطى وهو يخرج من باب داره، ويقف مكانه ونظراته مصوبة إليهم، وقد اختلجت ملامحه بما يغنى عن أى كلام .. يبدو كجبل يهتز دون أن يتفوه بكلمة. نهض الرجال وأحاطوا به ، بينما بقى الهنجراويه مكانهم.. تقدم بضع خطوات وانطلق صوته مدويا: موعودين بالحرق والغرق .. موعودة هذه البلدة بكم..

شعر الموجودون وقتها كما تردد بعد ذلك بالأرض تزلزل تحت أقدامهم، وتهتز بهم وهم يحاولون الإمساك ببعضهم البعض، ويذكر الذين رأوه وسمعوه فى تلك اللحظة أن صوته كان هادرا رغم جرحه، منذرا ومحذرا، كأنه يرى الحريق والطوفان يداهمان الفرما، كان صوتا فيه النبوءة والتحذير والرجاء، اهتزت له أرجاء الفرما، ثم اتجه بعدها إلى بيته والتفت وهو يقف عند الباب ناظرا حوله فى كل الاتجاهات بعيدا وصوته يتردد كصدى لما قاله: الحريق ، والغرق.

عندما اختفى داخل الدار، تحركوا وراءه جميعا فى وقت واحد، لكن أمينة أغلقت الباب ووقفت أمامه فاردة ذراعيها تمنعهم من الدخول . توقفوا حائرين لايدرون ماذا يفعلون فى تلك اللحظة وصوته يدوى فى آذانهم. وما لبث الخبر أن انتشر فى كل مكان والكل يسرع إلى الساحة ويتجمعون أمام بيته حتى جاء أهل الفرما كلها، رجالا ونساء صغارا وكبارا ، حتى الهنجراوية، وأثار الزحام فضول عمال الحفر وكذلك بعض المستخدمين فى الكومبانيه . ازدحمت ساحة المناخ حتى

لم يبق فيها موطيء لقدم. كان الأغراب يتساءلون عما حدث، لكن لم يكن من السهل على أحد من أهل الفرما تفسير ما حدث، من السيد القبوطى، ولماذا قال ما قال.

شعر السيد الفرماوى بانقباض، كان الهم الذى ينوء به فوق طاقته، لم يشعر به أحد وهو يهتز ويتمايل حتى وقع مكانه، كادوا يطأونه بالأقدام وسط الزحام ، لولا سكينة التى كانت تصرخ وهى تبحث عنه وتشق طريقها بصعوبة وسط الناس: جدك يا ضاحى . يا مهران . سمعها مهران وشق طريقه إليها، وأخذ يبحث عنه حتى استطاع الوصول إليه، لم يكن قادرا على النهوض فاستعان بأحد الشبان وحملاه إلى داره، ولحقت به زاهية التى كانت تصرخ وتولول . ولم يستطيعا أن يتركا سكينه وحدها ليتابعا ما يحدث فى المناخ.

مدداه فى الفرش وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة ، وظل مهران بجواره وهو يحاول أن يهدىء زاهيه التى انخرطت فى البكاء ، ولم تهدأ إلا عندما امتدت يد السيد الفرماوى تربت عليها فأمسكت بها وأخذت تقبلها . طلب منها مهران أن تبقى مع جدتها لرعاية جدها ، ثم عاد إلى ساحة المناخ.

كان الناس قد افترشوا الأرض وكلهم يتحدثون فى وقت واحد، بينما جلست أمينة أمام باب الدار وجلس ضاحى بجوارها . كانوا يتوسلون إليها أن تدخل هى فقط لتطمئنهم عليه، وأمينة ترد : إطمئنوا ، هو بخير ، كانوا يحاولون تذكر حاله فى الأيام الأخيرة وكل كلمة نطق بها وكل حركاته وسكناته ، يحاولون خلالها أن يخمنوا أو يتبينوا علامة على ما حدث الليلة وهم متوجسون من كلامه . يتوجهون بالأسئلة إلى أمينة التى لابد أنها تعرف شيئا مما حدث ربما يكون قد أفضى به إليها، وإلا ما وقفت على باب الدار تمنعهم من الدخول إليه، وكأنها تعرف ما به، ولدخلت وراءه لاستطلاع ما حدث . حتى ضاحى منعته من دخول البيت.

تقدم الليل وانصرف البعض إلى بيوتهم، لكن الحديث لم ينقطع فى كل مكان حول ما حدث ولم يطرق النوم عيون أحد ، أمضى معظمهم الليل فى الساحة

يتحدثون حتى انتشر الضوء وظل آخرون ساهرين فى بيوتهم يتحدثون مع ذويهم. عاد قسم كبير من أهالى الفرما إلى بيوتهم فى الصباح واستيقظوا متأخرين ، توافدوا على الساحة قبل أن يتجهوا إلى أعمالهم ، وجاء السيد الفرماوى فالتفوا حوله وهم يحاولون أن يعرفوا منه أى أخبار ، فقال لهم : لقد عاد إلى التنيس.

– هل غادر الدار؟

– عاد إلى مملكة التنيس.

– ماذا يفعل هناك؟

– ماذا هناك فى التنيس؟

قال السيد الفرماوى : عاد إلى مملكة التنيس .. مملكته ليحارب أعداءها ويدركها قبل أن تغرق.

استمعوا إلى كلماته فى صمت ثم علت همهمة البعض : الرجل عقله راح، لم يحتمل ماحدث . سرت الهمهمة حتى تناهت إليه.

– أنتم لاتعرفون شيئا . مازلت بعقلى . السيد القبوطى لن يتركنا ويهرب . أنا أعرفه جيدا، لا أحد منكم يعرفه مثلى ، هو ذهب لينقذنا، حتى لاتغرق الفرما مثلما غرقت التنيس.

رغم كلمات السيد الفرماوى التى تبدو غير حقيقية، فأهل الفرما الذين امتلأت قلوبهم بالرهبة والخوف من المجهول ، بعد اختفاء السيد القبوطى على هذا النحو، حاولوا أن يتبينوا شيئا ما فى كلمات السيد الفرماوى ، فربما تخفى هذه الكلمات وراءها شيئاً ما.

خلال الأيام التالية، حاولوا أن يطمئنوا عليه من أمينة أو الدخول إليه، لكنها كانت تطمئنهم أنه بخير . فتحت الدار ، لكن حجرته ظلت مغلقة وهى تجلس على بابها. لم تكن كلماتها تحمل إليهم شيئا يشفى غليلهم، لكن وجودها نفسه كان يطمئنهم . كانوا يأتون كل يوم إلى الساحة كما تعودوا ليجلسوا ، وكان الحديث يدور معظم الوقت عن سبب اختفائه على هذا النحو وهم يخمنون ما وراء ذلك .

فالسيد القبوطى ، كما قال الفرماوى، ليس من يهرب فى الأوقات الصعبة، ولابد أن هناك سراً ما وراء كلماته التى حملت إليهم النذير والتحذير مما هو آت. ولما لم يجدوا ما يشفى غليلهم ، فقد راحت التخمينات تأخذ شكل الحقائق. قال البعض أنه اعتكف حتى يعدل أبناؤه ومن معهم من الهنجراوية عن التعامل مع الكومبانيه، ومنهم من قال إنه اعتكف حتى يصفو ذهنه عن حل لدرء الخطر القادم الذى يستشعره، أو إنه اعتكف كى يدعو الله أن يبعد الخطر عنهم.

أما السيد الفرماوى ، فلم يكف عن قوله إنه ذهب ليحارب أعداء التنيس. ورغم أنهم لم يأخذوا كلامه محمل الجد إلا أنهم كانوا يلتمسون من كلماته دليلا على حقائق أخرى، مثل قوله إنه ليس الرجل الذى يهرب من مواجهة الصعاب، فهو لابد مشغول بدرء الخطر القادم الذى استشعره .

لم تكف زاهية عن البكاء من جراء ماحدث، وأخذت تحاول هى وضاحى الدخول إلى أبيهما. كانت أمينة تشفق على أبنتها وهى تطمئنها أن أباها بخير، لكنه لايستطيع رؤية أحد الآن، وقد أوصاها بذلك، فتقول لها متوسلة: قولى له زاهيه تود أن تراك، لا أريد أن يتركنى هكذا ، هو غاضب على إدريس والسعيد والشيخ محمد، لكن ما ذنبى أنا وضاحى ومهران؟

تربت عليها أمينة قائلة: تعرفين كم يحبك، خاصة أنه يود أن يراك عروسا تعمرين بيتك، ويرى أن مهران هو الرجل الجدير بك.

– ولكنهم يقولون إنه لن يرى أحداً بعد الآن.

– أبوك لن يتخلى عنك يا زاهيه أنت وضاحى ومهران ، وأهل الفرما كلهم أهله.

كان الجميع فى انتظار اللحظة التى يخرج فيها إليهم ويتخذ مجلسه فى الساحة كما تعود ويقول لهم ما رآه، وما يجب أن يفعلوه.

الفصل السادس والعشرون

كانت التغيرات التى اجتاحت الفرما قد غيرت معالمها تماما، فقد أقامت الكومبانيه أبنية كثيرة على جانبى ساحة الحفر، معظمها مساكن لإقامة الموظفين والمستخدمين الأجانب الذين تزايد عددهم لتولى المهام الإشرافية والفنية . وهذه البيوت واسعة من بضعة طوابق، تحيط بها الحدائق وتتخللها شوارع واسعة مستقيمة مرصوفة، وغرست الأشجار على جانبى الشوارع، كما أقامت الشركة أبنية للإدارة والموظفين، ومخازن للمؤن وأن ظلت الهناجر كما هى، توضع فيها المعدات بعد انتهاء العمل وبعض الماكينات الخاصة بالكومبانيه.

كان أهل الفرما ينظرون إلى بلدتهم بدهشة ، فقد أصبحت مدينة مثل المحروسة، لكن الحال بالنسبة للفرما القديمة تغير إلى الأسوأ ، فقد أقيمت بيوت خشبية علي عجالة للعمال وأحيطت بحصائر الكيب، وقامت الكومبانيه بتكليف العمال أنفسهم ببنائها. ومع تزايد أعداد العمال القادمين ، كانت هذه البيوت الذى يظل معظمها خاويا معظم النهار، تكتظ بالعمال بعد انتهاء العمل ينامون محشورين فيها. وكثيرا ما كانت تتهاوى فوقهم وهم نيام ، حتى أن بعضهم كان ينام فى الطل خارج هذه البيوت، وقد أحاطت هذه البيوت بالفرما وكان عددهم يتزايد مع الوقت. وكان رجال الكومبانيه يطلقون عليها قرية العرب.

وفيما بعد شوهد رجال الحفر يحفرون أخدودا فى المسافة الواقعة بين ساحة الحفر والفرما التى يقيمون فيها مما أثار الحيرة، التى لم تطل كثيرا. إذ أخذ الحفر يتقدم باتجاه المنازل ملتفا حولها حتى البحيرة وامتلأت الترعة بالمياه. وفيما بعد كانت المراكب الصغيرة القادمة من البحيرة تقطعها حتى ساحة الحفر محملة

بالمياه والمؤن والمعدات ، وأحاطت المياه بالبيوت من كل النواحى، عدا المسافة الممتدة حتى ساحة الحفر.

كان اختفاء السيد القبوطى واعتكافه في المنزل قد طال أمده حتى بدأ أهل الفرما يساورهم القلق من عزلته التى ليست لها نهاية وعجبوا من أمره وأعيتهم الأفكار التى تراودهم عن سبب اختفائه . فالرجل رغم خروج أبنائه على طاعته هم وغيرهم من شبان الفرما ورجالها ، يتمتع بحبهم وتقديرهم ، فما ذنبهم ليشملهم غضبه جميعا؟ قال ذلك الشيخ راضى أحد المقربين من السيد القبوطى، الذى وقف يوما على باب حجرته التى اعتكف فيها وهى مَضْيَفة لها باب يؤدى إلى الساحة. أخذ يطرق الباب بكلتا يديه رغم ممانعة أمينة وهو يصيح: أخرج يا سيد يا قبوطى.. أخرج إلى ناسك الذين يحبونك، الله رحيم بعباده .. أخرج يا قبوطى.

إنخرط الرجل فى البكاء بعدها وأخذ ينهنه والناس يهدأونه ، أخذ يشير حوله فى كل الإتجاهات قائلا: أهذه هى الفرما التى عشنا فيها حياتنا معززين رغم كل شىء؟ ها نحن أنفسنا قد أصبحنا أنفارا لدي الكومبانيه ، ومن يعلم بالآتى.. لقد بدأ يتحقق كلامك يا قبوطى وربنا ينجينا.

كان الرجل مازال يبكى وقد تجمع حوله الناس من أهل الفرما فى الساحة، وقد جددت كلماته مخاوفهم مما أنذرهم به السيد القبوطى قبل اعتكافه. وكانت هناك نذر كثيرة، فقد تفاقمت مشكلة مياه الشرب حتى عزت على أهل الفرما أنفسهم ونفدت المياه العذبة من الآبار لكثرة الطلب عليها فلم تعد تعطى إلا الماء المالح، وكان الأهالى يملأون الأوعية من مياه البحيرة ويضعونها فى الأزيار والقدور الفخار ويقطرونها للشرب، أما العمال فكانوا لشحة المياه يشربون المياه المالحة من البحيرة، ونتيجة لذلك فقد انتشرت الأمراض. إذا كان الأهالى يسمعون أنينا يأتى من خيام العمال، كانوا قد تعودوا على تلك الأصوات التي تصدر من العمال بعد يوم العمل الشاق الذى يترك أثارا دامية فى أقدامهم وأيديهم . كانت الجروح تتقرح دون أن يجدوا وسيلة لعلاجها سوى غسلها فى ماء البحيرة، حتى

استئناف العمل فى اليوم التالى وأى بطء أو وهن فى العمل لم يكن فى عرف رؤساء الأنفار سوي تهاون ومكر من الأنفار، والجزاء هو الضرب بالسياط حتى يكون النفر عبرة لغيره. كانت السياط تترك آثارا دامية على أجسادهم، ولا يملك زملاءهم أى علاج سوى غسل الجرح بالمياه المالحة ليواصلوا العمل فى اليوم التالى قبل أن تطيب الجروح. ومع قدوم الليل لم يكن هناك سوى الأنين المنبعث من الخيام والبيوت الخشبية الذى تعود أهل الفرما سماعه كل يوم مع قدوم الليل، حتى يغلبهم النوم ، فتخفت حدة الأصوات . كان الأهالى تأخذهم الشفقة فيقتربون من الخيام، يقدمون لهم القليل مما يفيض من الطعام والشراب.

كان الأنفار يشهدون جلد زملائهم الذين يتهمهم الملاحظون بالتقصير فى إنجاز المقطوعية اليومية اللازمة، لظروف خارجة عن إرادتهم فى معظم الأحيان، فيتحاملون على أنفسهم حتى لايكون ذلك مصيرهم. وأصبح ذلك من المشاهد المعتادة خلال يوم العمل، كان من بينهم رجب، وهو فلاح من سوهاج ترك قريته ضمن مجموعة من أبناء قريته أخذتها السلطة للحفر ، قطعوا رحلة شاقة إلى ساحة الحفر مكدسين فى المراكب حتى المحروسة، ثم استقلوا القطار إلى بلبيس، وظلوا سائرين خلالها أربعة أيام من بلبيس إلى التمساح ، ثم ساروا يومين حتى وصلوا إلى الفرما، كان الإعياء قد نال منه هو وزملاؤه، والألم يكاد يفتك بأمعائه من الأعشاب التى اقتلعها أثناء السير ليسد رمقه، فبدأت الآلام تنتابه أثناء المشى، وسار متحاملا حتى وقع على الأرض عند ساحة الحفر التى بلغوها فى منتصف النهار فى عز القيظ . أحاط به أبناء بلدته الذين جاءوا معه، وأبلغوا شيخ البلد الذى جاء معهم ، لكن مندوب الكومبانيه الذى جاء بعد قليل أخذ يلقى عليهم بتعليماته بشأن توزيع الأنفار ومكان العمل والمقطوعية . وبعد توسل أبناء البلد إلى الشيخ قال لمندوب الكومبانيه : هناك شخص مريض لايستطيع العمل، قال له المندوب بصلافة: عندما يمسك بالفأس سيضيع كل تعب.

أمسك رجب بالفأس متحاملا وحاول العمل قدر استطاعته ، لكن قواه لم

تسعفه ، كل يوم كانت قدرته تقل وكان زملاؤه يتحاملون على أنفسهم رغم مشاق العمل لمساعدته فى إنجاز مقطوعيته ، حتى بدأ التعب ينالهم هم أنفسهم، فلم يستطيعوا مساعدته، أصر رئيس الأنفار على معاقبته.

لم يستطع رجب تحمل وقع السياط، وقبل إتمام الجلد وقع مغشيا عليه، وسط صراخ زملائه حتى لفظ آخر أنفاسه، اختطف أحدهم السوط وانهال به على رئيس الأنفار وتجمع عليه الآخرون وأوقعوه أرضا وهم ينهالون عليه بالضرب حتى الموت، وفروا هاربين قبل أن يتبين أحد ما حدث، إذ لم ينطق أحد من باقى الأنفار المتواجدين بالمكان وهم يهللون فى سرهم لما جرى.

عندما وصل مندوب الكومبانيه وبعض المسئولين فيها وتبينوا هروب الأنفار أرسلوا وراءهم قوة من البوليس تجاه الفرما، بعد أن أكد بعض الشهود رؤيتهم لهم وهم يتجهون إليها . انتشرت أفراد القوة فى كل مكان من الفرما، دخلوا البيوت وفتشوها بيتا بيتا، حتى مساكن وخيام العمال على شواطىء البحيرة، حتى بيت السيد القبوطى.

حاولت أمينة منعهم من الدخول ، ركلها الضابط وأوقعها على الأرض واقتحموا البيت . فتحوا حجرة السيد القبوطى واندفعوا داخلها وخرجوا منها بعد تفتيشها.

وقف بعض الموجودين بالساحة من أهل الفرما وهم يرون الجنود خارجين من الحجرة كما دخلوها دون أن يجدوا بداخلها أحداً . أنهضوا أمينة التى اتجهت إلى الحجرة وأغلقت بابها كما كان، فالسيد القبوطى لم يغادرها منذ دخلها وأمينة تجلس على بابها. هل يمكن أن يكون قد تركهامتسللا؟ ولماذا أغلقتها أمينة كما كانت وعادت لتجلس على بابها؟ أم ما يرونه هو المعجزة التى أعمت رجال السلطة عن رؤية من بداخلها؟ فهو رجل مبارك أخفاه الله عن عيونهم.

صال العسكر وجالوا يفتشون كل شبر من الفرما وهم يقلبون الأثاث فى البيوت ويحطمون كل ما يجدونه أمامهم من متاع . جمعوا الصيادين على شاطىء

البحيرة وأخذوا يستجوبونهم ، ويهددون بأن من لديه معلومات وأخفاها عنهم أو ساعد فى هروبهم، فسوف يلقى موتة شنيعة ، كان من بين المستجوبين شيوخ كبار أخذوا يقسمون أنهم لم يروا أحدا . وأنهم يصطادون بالقرب من الشاطيء والقوارب الصغيرة لا تستطيع عبور البحيرة بهذا العدد من الرجال . حتى أطلقوا سراحهم متوعدين إياهم بأنه فى حالة اكتشاف أى دليل على التواطؤ فى حادث الهروب فسوف ينالهم العقاب بلا رحمة. وظلت قوات البوليس تجوب شواطيء البحيرة وانتشرت فى الفرما ، وكذلك فى الجانب الآخر من الصحراء.

كان ذلك الحادث الأول من نوعه الذى يصدر عن الأنفار، وقد شجع عدداً من العمال على الهروب فى طريق بلبيس - التمساح قبل وصولهم إلى ساحات الحفر، مما جعل مسئولى الكومبانيه يطلبون من السلطات المصرية زيادة عدد قوات البوليس فى المنطقة.

وصدرت للعمد فى القرى أوامر أن يبلغوا فورا عن وصول هؤلاء العمال إلى القرى، وفعلا تم الإبلاغ عن عدد من العمال الذين تسللوا عائدين إلى قراهم. وقد دعا ذلك بعض العمال الهاربين إلى التوجه إلى أماكن أخرى للاختباء فيها وظل البحث جاريا عنهم، مع تعليمات بالإبلاغ عن أى غريب يدخل القرى مما دعى بعض الهاربين إلى توخى الحذر فى العودة إلي قراهم خشية الإبلاغ عنهم، إذ كانوا يرسلون إلى ذويهم لاستطلاع الأمر وتأمين وجودهم، وإذا تأكدوا أنه لن يتم الإبلاغ عنهم فإن الأمور تسير على مايرام، أما إذا كانت هناك تعليمات بالقبض عليهم أو البحث عنهم فإنهم يؤثرون عدم العودة إلى قراهم ويبحثون لهم عن مستقر فى أماكن أخرى بعيدةعنها قدر الإمكان .

صدرت تعليمات بتشديد الحراسة فى مواقع الحفر والأماكن القريبة منها وفى طريق بلبيس - التمساح ، حيث تقطع قوافل الأنفار المسافة سيرا على الأقدام. وازدحم الطريق بالقوافل التى تسير فى موجات من الذاهبين والعائدين فى حراسة البوليس . ورغم هذا تكرر هروب العمال من ساحات الحفر، والويل لمن يتم

القبض عليه من الهاربين إذ كان يجلد أمام زملائه ليكون عبرة لهم. وصدرت تعليمات لرؤساء الأنفار بعدم التهاون مع المقصرين فى العمل بل توعدتهم الكومبانيه إذا هم تهاونوا فى عقاب المقصرين فسوف يقع العقاب عليهم. فارتفعت السياط فى مواقع الحفر دون رحمة، ودون تقدير لظروف الأنفار الذين يعانون من الجوع والعطش والجو الحار. فكانوا يعملون وقرقعة السياط فوق ظهورهم، ووقع بعضهم من الإجهاد والمرض. كانت أناتهم تدوى فى آذان زملائهم، وهم لا يملكون شيئًا يفعلونه من أجلهم. كان رؤساء الأنفار يتلكأون فى إبلاغ الطبيب فى موقع العمل عن هؤلاء ويتهمونهم بالتمارض، ويتركونهم حتى يلفظوا أنفاسهم ، فيقوم زملاءهم بعد انتهاء نوبة العمل بحملهم إلى صحراء الفرما ودفنهم فيها، لم يعد هناك وقت حتى للحزن عليهم ، فالأجساد المنهكة كانت تلتمس قدرا من الراحة لاستئناف العمل فى اليوم التالى . انتشرت قوات البوليس والدرك فى الفرما وحول مساكن العمال حيث يصطحبهم المقاولون ورؤساء الأنفار فى نهاية اليوم ويتم عدهم كل يوم عند الذهاب والعودة من ساحات الحفر.

أثناء ذلك، تردد بين العمال وأسماع أهل الفرما اسم إسماعيل حمدى قائد قوات البوليس الذى أوفدته السلطة إلى ساحات الحفر. كان اسمه كفيلا ببث الرعب بينهم، لما عرف عنه من بطش بالعمال. إذ كان يجوب ساحات الحفر من التمساح إلى الفرما على صهوة جواده محاطا بفرقة من الضباط والجنود ، وقد أقيم له مقر فى كل مكان. كان يتابع بنفسه سير العمل، ويصدر الأوامر إلى رجاله بتوقيع عقوبة الجلد على العمال المقصرين فى إتمام مقطوعية العمل اليومية على مرأى من زملائهم، ومن مشايخ البلدان المصاحبين للأنفار الذين كانت الكومبانية توكل إليهم ذلك.

كل ذلك لم يوقف حالات التمرد بين العمال. وعادة ما يكون العمال الهاربون من أبناء قرية واحدة بل وازدادت هذه الحالات بعضهم كان يتم إعادتهم وجلدهم، وآخرون لم يعرف أحد لهم مكانا.

وعلى شاطىء البحيرة، كان البعض يتسللون ليلا. يخوضون فى المياه بجوار الشاطىء مستترين بالظلمة وأروحهم على أكفهم . فى بعض الليالى كان يبرز قارب في الظلمة يقترب منهم فيتوقفون ، يدعوهم صاحب القارب للركوب ويقوم بتوصيلهم إلى غابات البوص جنوبى البحيرة، يخوضون بداخلها متخفين ويمكثون بضعة أيام يتحينون الفرصة ويراقبون الأراضى الواقعة على الجانب الآخر كى ينفذوا منها ويفروا هاربين ، وازداد عدد الهاربين كما زاد عدد الذين لاقوا حتفهم في ساحات الحفر ، فلم يكد يمضى يوم واحد دون تسجيل حالات وفاة بين الأنفار، كان زملاؤهم يقومون بمراسم الدفن على عجالة ويغسلون المتوفى بمياه البحر ويصلون على روحه ، ثم يدفنونه فى الرمال فى صحراء الفرما.

كان أهل الفرما فى حالة من الذهول وهم يرقبون مايجرى حولهم. لم تعد تلك بلدتهم التى عاشوا فيها وجاء إليها معظمهم من قراهم حول البحيرة هربا من سطوة كبار الصيادين ومن أماكن أخرى بعيدة ، ينشدون الأمن والسلام بعد أن عانوا من القهر ليصبحوا سادة المكان تظللهم المودة والمحبة لينشأ أبناؤهم أحرارا فى تلك البلدة الآمنة. فما يرونه كل يوم بأعينهم يفوق كل ما رأوه، وما مروا به من قبل. حتى أن بعضهم قرروا ترك البلدة التى لم يعد لهم فيها مكان والعودة إلى قراهم ، أو الهجرة إلى أماكن أخرى على ساحل المالح.

يتجمعون فى ساحة المناخ كما تعودوا ويرون أمينة وهى تجلس أمام حجرة السيد القبوطى ، وقد كفوا عن طلب رؤيته احتراما لرغبتها التى هى بلا شك رغبته هو ، وتنفيذ لوصيته قبل اختفائه ، لكن الأسئلة ظلت تدور عن مصير السيد القبوطى والتى كانت تدور معظم الوقت فى أذهانهم أو يبوحون بها بعضهم لبعض. ثارت حيرتهم عندما اقتحم رجال البوليس الحجرة ولم يجدوه فيها، هل كان يعلم بقدومهم واختبأ؟ أم أن الرجل من أولياء الله وقد أعمي الله بصيرتهم عنه رغم وجوده؟ أم أنه ترك البيت؟ وإلى أين ذهب ؟ فهو لايمكن أن يترك الفرما ولابد أنه الآن يشاهد ما يجرى فيها وما يلقاه أهلها من بؤس بعد الحياة الهانئة ،

يتذكرون كلمته التى قالها عندما جاء رجال الكومبانيه أول مرة : إذا جاءوا فلن تقوم لأحد من أهل الفرما قائمة.

ظلت هذه التساؤلات تتردد ، عندما جاء ذات يوم شاب من الفرما يدعى عثمان، همس وسطهم قائلا : لقد رأيته . سرى الهمس بينهم وتجمعوا حوله وهو يقول لهم: رأيته فى البحيرة . كنت ساهرا فوق إحدى الجزر ، ورأيته فى قاربه الذى كان محملا ببعض الأنفار من رجال الحفر ، وهو يتجه بهم وسط البوص والهيش . إذن فالسيد الفرماوى محق فيما يقول ، فالسيد القبوطى لم يختف من الفرما ولم يغادرها ، ولاقى هذا التفسير ارتياحا شديدا بينهم.

ولم تكن الكلمات التى همس بها عثمان سوى فاتحة لحكايات لم تنته عن السيد القبوطى . فلم يكد يمر يوم إلا ويؤكد البعض منهم أنه رآه . فبعد حكاية عثمان قال الشيخ صديق . رأيته .. هو بنفسه السيد القبوطى كان يقف على الشاطىء ، فلايمكن أن يختلط على الأمر ، أسرعت نحوه وأنا أناديه : يا سيد يا قبوطى .. يا سيد يا قبوطى .. فى لمح البصر اختفى ، وقفت فى المكان الذى كان يقف فيه، ظللت فترة طويلة على أمل أن أراه، حتى رآنى بطرس وسألنى عما إذا كنت أبحث عن شىء ما .. أليس كذلك يا بطرس؟

قال شاب آخر من الفرما إنه كان يجلس مع بعض رفاقه، وكان الأنفار يمرون أمامهم عائدين فى نهاية اليوم. واستشهد برفاقه الذين كانوا معه، عندما نهض من بينهم فجأة فى أثر مجموعة من العمال مرت أمامهم، وأكد أنه لمح السيد القبوطى بينهم. وظل سائرا خلفه إلى أن تعرض له أحد العسكر الذين يرافقون العمال .

سيل من الحكايات يتدفق، ولايستطيع أحد أنه يوقفه.

الفصل السابع والعشرون

شرع إدريس فى بناء بيت جديد على ساحل الفرما فى المناخ، على غرار تلك البيوت التى قامت الكومبانيه ببنائها للمستخدمين الأجانب بالقرب من ساحات الحفر، وهى بيوت أشبه بالقصور القديمة فى المحروسة ودمياط، لكنها تختلف عنها، إذ كانت ذات أسقف مائلة يسمونها الجمالون، ونوافذ واسعة ذات ضلف خشبية بها فتحات تسمح بمرور الهواء وأخرى ذات ألواح زجاجية بدلا من الخشب الخرط الموجودة بالقصور، وبدلا من الفناء الداخلى أو باحة القصر، حديقة تحيط بالمنزل محاطة بسياج، تغرس الأشجار داخلها وعمل أحواضا للزهور، كما يفعل هؤلاء الخواجات.

لم يشهد أهل الفرما بيت بمثل هذا البذخ والثراء مثل هذا من قبل حتى فى دمياط أو بعض المدن الأخرى سوى بيوت الكومبانيه ، فى الوقت الذى يعانون من ضيق العيش بعد أن امتلأت الفرما بعمال الحفر، وبعدها بقليل، أقيمت بيوت أخرى بجواره قام ببنائها بعض الشوام والتجار وأصحاب المراكب الذين يتعاملون مع الكومبانيه، ولم تعد الفرما بلدة واحدة بل أصبح هناك الفرما التى يسكنها الأجانب فى الأراضى على جانبى ساحة الحفر والتى منحها لهم سعيد باشا، ثم مقر التجار وأصحاب السفن على شاطىء المناخ، ثم الفرما القديمة التى أحاطتها مساكن وخيام عمال الحفر.

جاءت توحيدة وأبناؤها ليقيموا مع إدريس ويستقروا فى الفرما وأعجبها البيت بجماله واتساعه ، ولكنه كان دائم التنقل ما بين الفرما والاسكندرية ودمياط ورشيد. حتى أثناء وجوده فى الفرما كان دائما مشغولا بأعماله واستقبال ضيوفه

من شركائه فى العمل ورجال الكومبانيه وإقامة الولائم لهم. وسرعان ما دب الملل إلى توحيدة التى كانت تفتقد دمياط وبيت الأسرة، خاصة بعد أن تقدم السن بأمها وكانت تقوم على رعايتها ، فكانت تنتقل ما بين الفرما ودمياط حتى عادت للاستقرار فى بيت الأسرة فى دمياط مصطحبة الأبناء معها.

خلال فترة وجودها فى دمياط، كان يستقر فى بيت كهرمانة التى اعتزلت الرقص وتفرغت تماما لحياتها معه كأى سيدة منزل، وما أن علمت أن توحيدة أقامت معه فى بيته الجديد فى الفرما حتى استشاطت ، ولم يهدأ لها بال وهو بعيد عنها . أخذت تلح عليه ثانية أن يتزوجها كى تكون لها حقوق عليه كزوجة، وكان يرد عليها قائلا: أهناك شيء ينقصك؟ كل ما تريدينه يأتيك من أموال ومصاغ . كادت تحدث أزمة بينهما وهددته بالقطيعة. وأمام إصرارها قال لها مراوغا : إنه يتحين الوقت المناسب دون أن يسبب ذلك مشاكل مع توحيدة ، ووعدها بأن يفكر فى الأمر جديا.

أخذت تتابع أخبار توحيدة، وعلمت أنها تتردد ما بين دمياط والفرما، وما أن علمت أنها عادت لتستقر فى دمياط ثانيه، حتى فاجأت إدريس بحضورها إلى الفرما مصطحبة منصورة معها، وقد قررت أن تقيم معه هناك . لم يشأ إدريس أن يثير خلافا جديدا معها وهو يعلم مدى عنادها إذا هو طلب منها العودة إلى دمياط، فآثر أن يمتص غضبها حتى تهدأ ثم يقنعها بالعودة، خاصة أن الأمور فى الفرما قد تغيرت ولم يعد يخشى أحدا من أهل الفرما أو أفراد أسرته، كل ما يخشاه أن يصل الخبر إلى توحيدة فتركب رأسها وتتركه وتحرمه من الأبناء ، رغم تغير ظروفها هى نفسها بعد وفاة أبيها، فقد اقتسم أخوتها الميراث واستقل كل بنصيبه فى الوكالة رغم أنها يعملون فيها معا، باستثناء مصطفى الذى أشار عليه إدريس بأن يستقل عن إخوته ويعمل معه فى توريد الحبوب والمؤن للكومبانيه ، واستطاع مصطفى فى فترة وجيزة أن يكون ثروة تفوق ثرورة إخوته مجتمعين وما تركه له أبوه بعد عمر طويل فى التجارة التى ورثها عن الأجداد . وشعر بالامتنان

لإدريس ، حتى أنه عندما تناهى إليه أنه مازال يتردد على كهرمانة وتأكد من ذلك بنفسه ، فاتحه فى الأمر وهو يخشى إغضابه . فقال له إدريس: ها أنت ترى أختك مبتعدة معظم الوقت في دمياط، ولم توفر لي الاستقرار الذي كنت أنشده وسط أسرتي وأبنائي . وكما تري إننى لم أحاول إغضابها، وأتركها براحتها وهى سعيدة بذلك ، فآثر مصطفى الصمت وعدم إثارة أى مشاكل مع إدريس فى تلك الفترة على الأقل.

كانت كهرمانة منذ وصولها تتصرف كربة دار حقيقة، كانت فرحة بالبيت الجديد وترى أنها جديرة به. أخذت تتفنن بمساعدة منصورة فى تجميله وتزيينه، حتى أصبح أجمل من بيوت الوجهاء التى كانت تتردد عليها لإحياء الليالى ، وطلبت من منصورة إحضار خدم يقومون على خدمتها وخدمة ضيوف إدريس، وإقامة الولائم لهم ، وكانت تشرف بنفسها على كل شىء ، وتحرص علي الظهور أمام الضيوف والترحيب هم لتثبت مكانتها كربة للمنزل وقد أخذت ترتدى الملابس التى ترتديها الهوانم التركيات، وتتزين بصورة لافتة.

كان الكثيرون من معارف إدريس وأصدقائه يعلمون أنه متزوج وله أبناء فى دمياط ، وأخذوا يتساءلون عن أمر كهرمانة، وعما إذا كان قد تزوج على امرأته، التى لم يكن يراها أحد، فلماذا يسمح بظهور زوجته الجديدة أمامهم وجلوسها معهم متبرجة، وأخذت هذه الأسئلة تأخذ شكل تلميحات أمامه، وهم يتحدثون عنها كزوجته ، بل بلغت بهم الجرأة أن يسألوا عن الهانم عند قدومهم حتى تأتى وترحب بهم وتجلس معهم. حتى المسيو جيرار مندوب الكومبانيه ، الذى كان يتردد على البيت ومعه بعض المستخدمين كان يقول بمجرد وصوله: أين مدام كهرمانة؟

وما فجر غضب إدريس هو أن المسيو جيرار حضر ذات مرة وأخذ يثنى على جمال كهرمانة، وهى تضحك سعيدة ، ثم ينحنى على يدها يقبلها أمام الموجودين . كظم غيظه يومها حتى انصرافهم، ثم انفجر غاضبا فيها طالبا منها ألا تظهر أمام الضيوف.

– قلت لك تزوجني يا إدريس الآن وأنا أنفذ كل ما تطلبه ، ولك علي ألا يرى أحد طرف ثوبي.

– ماذا تظنين نفسك؟ مجرد راقصة جعلت منها سيدة ، لكنك لاتعرفين كيف تكون السيدات المحترمات.

– تزوجني يا إدريس على سنة الله ورسوله إذا كنت تريدني سيدة محترمة بحق .

– أنا الذي طمعتك في بهذه المعاملة، وسوف أعيدك للموالد لتعرفي حقيقة قدرك.

أندفع إدريس في ثورة غاضبة وانهال عليها ضربا، وعندما حاولت منصورة حمايتها انهال عليها أيضا بكل ثورته، وجذبها ثم دفع بها بعيدا عن الأرض واخذ يكيل لكهرمانة الضرب وهو يجمع حاجتها وملابسها ويلقي بها في كل اتجاه . قال لها: أمامك حتى الصباح ولا أريد أن أرى وجهك مرة ثانية.

ظلت تبكي هي ومنصورة طوال الليل وقد تأججت نيران الغضب في صدرها حتى أنها ودت لو تقتله . ومع تسلل ضوء الصباح تسللت خارجة هي ومنصورة تاركة كل شيء في البيت كما هو ، ماعدا مصاغها التي جمعته.

غفا إدريس قرب الفجر واستيقظ متأخرا ظهر اليوم التالي . وجد البيت في حالة فوضى وملابس كهرمانة وأشياءها مبعثرة وقد تركت البيت ومعها منصورة ، شعر بالراحة كأن كابوسا انزاح عنه، اعتقد أنها آثرت الانصراف في هدوء لتستعيد موقعها مرة أخرى لديه، ولكنه في هذه المرة لن يترك لها الفرصة كي تطمع فيه . أما أمر الزواج منها فسيجلب عليه المتاعب، لأنه سيجعلها تتمكن منه ولن يستطيع كبح جماحها لو تزوجها.

بينما كان مسترسلا في أفكاره سمع طرقات على الباب ، ليجد أحدهم يستدعيه للمسيو جيرار على وجه السرعة.

تذكر إدريس أن موعده مع مسيو جيرار في نهاية اليوم هو وبعض التجار

والمقاولين لحل مشكلة مياه الشرب التى تفاقمت . كان قد طلب من أصحاب المراكب زيادة كمية المياه التى يجلبونها بعد أن سبب هؤلاء مشاكل كثيرة للكومبانيه بسبب نقص المياه، مما يهدد بوقف عمليات الحفر.

فوجىء عند دخوله مكتب مسيو جيرار بوجود كهرمانة ومنصورة . نهض المسيو جيرار عند دخوله قائلا بغضب : ماذا فعلت يا إدريس يا متوحش؟ لايمكن أن تكون إنسانا لتضرب امرأة لطيفة جميلة مثل مدام كهرمانة.

لم يخطر ببال إدريس هذا الموقف ، توقف ذاهلا أمام كهرمانة التى كانت آثار الكدمات والدماء على وجها، وكذلك على وجه منصورة التى أخذت تئن من الألم.

– ماذا فعلت لك يا إدريس حتى تضربها هكذا؟ وهى تهتم بك وتقوم على رعايتك والاهتمام بضيوفك وتقف بجوارك وتساندك.

إندفعت كهرمانة قائلة : سنين طويلة وأنا أتحمله، وهو لا يريد أن يتزوجنى بعد كل ما تحملته من أجله.

قال إدريس : أنا متزوج ولدى أسرتى وأبنائي وأنا سعيد معهم. ثم أننى أعطيتها الكثير وجعلت منها هانم بعد أن كانت راقصة فى الشوارع.

– لا إدريس .. فنانة رقيقة وجميلة ، لايجب أن تعيش مع وحش غبى مثلك.

رغم سبه لإدريس ، إلا أن إدريس ارتاح لقراره ألا تعيش كهرمانة معه.

قال المسيو جيرار : هي تعود إلى المنزل وتقيم فيه وأنت تتركه لها، وإياك أن تتعرض لها.

– كيف يا مسيو جيرار ؟ هذا بيتى أنا ، هى لها بيت آخر فى دمياط تقيم فيه.

– بعد كل ما سببته لها ، هذا البيت لايساوى شيئا . اتركه لها ، وابحث لك عن مكان آخر.

حاول إدريس أن يعترض ، لكن المسيو جيرار لم يعطه أى فرصة للنقاش وأصر على موقفه قائلا : أنت الآن أصبحت غنيا بفضل النقود التى تأخذها من

الكومبانيه بعد أن كنت تاجرا صغيرا . فكر فيما كنته قبل أن تتكلم عنها هكذا. هي كانت فنانة ولاشك لها معجبون كثيرون وأنت كنت مجرد واحد منهم. وأنت تريد أن تحصل على كل شيء دون أن تعطي شيئا ، أترك لها البيت من اليوم.

كادت كهرمانة تطير فرحا بفكرة مسيو جيرار. رغم جراحها والآلام التى تعانيها، فقد فاجأها بقراره ورد اعتبارها ، وهى ترى إدريس مستكينا مستسلما أمامه . لم تكن تتخيل عندما جاءت إلى الفرما أن تحدث فى حياتها مثل هذه النقلة ، أسرعت جريا إلى البيت هى ومنصورة ، وقبل أن تعيدا ترتيب البيت قامتا بجمع ملابس إدريس فى صرة كبيرة.

عندما وصل إدريس فتحت له منصورة الباب ثم عادت إلى مكانها وهى تشير إلى الصرة . ورفضت كهرمانة مقابلته، فأخذ ملابسه فى هدوء وانصرف عائدا إلى بيته القديم الذى كان مهملا ومتربا . ضاق صدره برجوعه وسط أهالي الفرما الذين يعلم جيدا مشاعرهم نحوه . ونظرات أمه التى كان يتهرب منها . ثم هؤلاء الأنفار والحياة التي يعيشونها ، ونظرات أهل الفرما التى تحمله مسئولية مايحدث لهم هو وغيره من الهنجراوية ، كان ابتعاده عنهم قد أراحه كثيرا من تلك الهموم وهو يمضى قدماً فيما هو مقدم عليه . لأول مرة يشعر بالخسارة ، فلقد لعبتها الملعونة كهرمانة بمقدرة ، وهى الآن فى حماية المسيو جيرار نفسه ، وخسر بيته الذى أنفق عليه مبالغ طائلة ، وأخذ يفكر كيف يعوض خسارته.

انتقل للإقامة فى دمياط مع توحيدة والأبناء فى بيت أسرتها، وتعجبت توحيدة لبقائه معها فترات طويلة، عندما سألته عن البيت الجديد الذى أصبح يتغيب عنه ، أثر أن يخبرها بنفسه قبل أن تصل إلى أسماعها حقيقة ما جرى ، قال لها أن مسئول الكومبانيه الذى كان يتردد عليه أعجبه البيت جدا وأثار غيرته أن يكون له مثل هذات البيت ، فقرر أن يأخذه ويعوضه عنه.

قالت توحيدة : أكان ينقصه البيت؟ فقد بنوا بيوتا جميلة أحسن منه فى شوارع واسعة قل لى كيف حدث ذلك بالضبط؟

قال كي يقطع عليها : هم يريدون أن يكون لهم قصر في الفرما قريب من الأهالي يتابعون منه ما يجرى في الفرما ومعرفة أحوال العمال والأهالي ، خاصة بعد أن تكرر هروب الأنفار من الفرما.

لأول مرة يشعر إدريس بأبنائه الذين كبروا وهو دائم الترحال والابتعاد عنهم. وشعر بمدى التصاقهم بأمهم التي لم يفارقوها قط وكذلك جدتهم، لم يقم معهم علاقة حميمة، فها هو ابنه الأكبر قد صار صبيا ولايزال ملتصقا بأمه، ويقضي معظم وقته في اللعب معه أقرانه، وقد أنهى دروسه في الكتاب . يذكر كيف أنه عندما كان أصغر منه سنا كان يصطحب أباه وجده ويتعلم منهما . حاول أن يتقرب من أبنائه لكنهم كانوا يقتربون منه في وجل. أخذ يعد ابنه ليصطحبه معه ويعلمه التجارة.

كان يضطر للابتعاد عنهم والإقامة في الفرما، وكان التجار وأصحاب المراكب الذين يتعاملون معه يذهبون إليه في الفرما في البيت القديم، ولم يعد يقيم تلك الولائم التي كان يقيمها قبلا ويستقبل ضيوفه على الرحب والسعة كما كان يفعل في البيت الجديد ، فضلا عن نظرات أهل الفرما التي كانت تحصي حركاتهم، لكنه مضطر للبقاء في الفرما حتى يستطيع أن يدبره أموره . حاول إقناع توحيدة بالذهاب معه إلى الفرما لكنها رفضت قائلة: بعد هذا البيت أعود لأقيم أنا والأولاد وسط هؤلاء الأنفار. هناك لا نستطيع الحصول على مياه شرب إلا بشق الأنفس.

نصحه أخوه السعيد عندما شرع في بناء البيت أن يؤجل ذلك ، لأنه سيثير حفيظة أفراد الأسرة وأهالي الفرما، لكنه لم يبال فقد كان السعيد رغم عمله معه، والنقود التي أخذت تتدفق بين يديه، مازال يتحسب نظرات أفراد الأسرة ويبقي ولو على شعره من صلته بهم ، خاصة أن زوجته عائشة كانت دائمة اللوم له على موقفه من أبيه وأمه، ولكنها كانت كالمغلوبة على أمرها ، حتى أنها ظلت تعيش كما يعيش باقي أفراد الأسرة بالفرما، لم تطالبه بشيء وتكفلت بتربيه أبنائها ، كما كانت تقوم على شئون البيت ورعاية أفراد الأسرة وإعداد الطعام وتقديمه لهم، بعد

أن استغرق كل منهم فى همومه، تواسى زاهيه التى انتابها الحزن منذ غياب أبيها، وتحاول أن تشجعها على إتمام زواجها من مهران. واستعانت بضاحى ، لكن زاهية كانت ترد قائلة : كيف أقيم عرسا لا يحضره أبى ولايكون بجوارى . وأمام كلماتها كان مهران كالمغلوب على أمره . حتى السيد الفرماوى اعتلت صحته، وانشغلت سكينة برعايته ، وهو لايكف عن حكاياته.

الفصل الثامن والعشرون

حاول إدريس العمل بكل طاقته لتعويض ما أنفقه على بناء البيت الجديد، واكتساب ثقة المسيو جيرار ثانية وإرضائه. إذ كان جيرار يلح على مشكلة مياه الشرب التى تتفاقهم يوما بعد يوم، خاصة بعد تذمر العمال وتكرر هروب أعداد كبيرة منهم ، وهم يرون زملاء لهم يموتون كل يوم بينهم، ولاتجدى المحاولات التى يبذلونها فى إسعافهم ، حتى أصبح لايمر يوم دون تسجيل حالات وفاة بين الأنفار.

نجح إدريس فى عقد صفقات مع بعض الصيادين وأصحاب المراكب لجلب المياه العذبة من النيل عبر البحيرة أو من جنوب البحيرة بالمراكب والجمال. كان يتحاشى قدر الإمكان التواجد فى البيت وسط أهالى الفرما ونظراتهم المسلطة عليه بالغضب والشماتة ، على بيته الذى فقده واستقرت فيه كهرمانة . كان يرى المسيو جيرار وهو يتردد على البيت ومعه بعض رجال الكومبانيه ، وبعض معارفه من المتعاملين مع الكومبانيه ، وتنبعث من البيت أصوات الموسيقى والغناء والضوضاء التى تصدر وتصل إلى أسماع أهل الفرما، إذ عادت كهرمانة إلى الرقص فى بيتها . كلهم يترددون على البيت ماعداه. حاول أن يحادثها فرفضت دخوله البيت أو حتى مجرد الاستماع إلى بعض الوسطاء الذين أرسلهم لها، أحضرت بعض المغنين والآلاتيه والراقصات ، بعضهم من معارفها القدامى، وكل يوم يدور الرقص والغناء فى البيت متناهيا إلى أسماع أهل الفرما الغناء، بما فيه من غنج وخلاعة وخدش للحياء تؤرق الأنفار الذين يلتمسون قسطا من الراحة بعد أيام العمل الشاقة والهموم التى تثقل صدورهم.

كان أكثر ما يضايقه هو عزلته عن هؤلاء الناس الذين ينتمي إليهم، والذين كان يستقبلهم فى بيته. وأخذ يلعن كهرمانة فى سره ويتوعدها ، ويمنى نفسه باليوم الذى يزول فيه حسنها، ولاتجد من ينظر إلى وجهها مثل منصورة.

كان يتردد على بيوت جيرانه ومعارفه فى الفرما فى غير المواعيد التى يجتمعون فيها فى بيت كهرمانة لكنه كمنافس لهم فى العمل مع الكومبانيه كان يعلم أنهم قد استراحوا لابتعاده وعزلته ، رغم كلماتهم المعسولة التى يؤكدون له بها أنهم يفتقدونه.

من هؤلاء الحاج المصيلحى دياب إبن رشيد الذى تعرف عليه ، كان يمتلك سفناً كبيرة، تنتقل ما بين رشيد والأسكندرية ودمياط، واعتبر إدريس أنه عقد معه صفقة العمر عندما أقنعه أن تحمل سفنه المؤن إلى الكومبانيه فى الفرما، إذ استطاع أن يوسع من تجارته أمام المنافسة القوية من التجار وأصحاب السفن، وظلا يعملان معا رغم أن الحاج المصيلحى قد تعرف على رجال الكومبانيه وأصبحت سفنه تقوم بمهام أخرى غير نقل الحبوب والمؤن، وتوطدت علاقته بالمسئولين فى الكومبانيه وقوى نفوذه ، لكنه ظل يتعاون مع إدريس فى هذا الجانب واكتسب الرجل ثروة كبيرة إضافة إلى ثروته الأصلية ، ثم قرر أن يبنى بيتا فى الفرما.

لاحظ إدريس تودد الرجل إليه فى الفترة الأخيرة. وزاد تردده عليه وهو يواسيه قائلا : لاتنعى هما بيتى هو بيتك حتى تبنى بيتا آخر بدلا من الذى استولت عليه كهرمانة.

أصبح إدريس يقيم معه معظم الوقت أثناء وجوده فى الفرما، أنس إليه وأخذ يفضى إليه بهمومه وعزلته عن الناس ، فوعده المصيلحى بأن يفاتح المسيو جيرار فى الموضوع وأن يهدئ النفوس ليعود معهم كما كان. لكنه رأى أن يؤجل ذلك إلى اللحظة المناسبة.

فوجئ إدريس بالحاج المصيلحى يقول له إنه يود مصاهرته. تعجب إدريس

قائلا : لكن ابنتى مازالت طفلة.

قال الحاج المصيلحى : أريد الزواج من شقيقتك ، فقد رأيتها ، وأعجبتنى دون أن أعلم أنها شقيقتك إلا بعد أن سألت عنها ، ففرحت أنها شقيقتك وقلت نعم المصاهرة.

قال إدريس : لكنها مخطوبة بالفعل وتمت قراءة فاتحتها وقد وافق أبى على زواجها قبل اختفائه .

قال المصيلحى : يعنى مجرد قراءة فاتحة، ومن يكون هذا الزوج المنتظر؟

– أحد شبان الفرما .

– ماذا يعمل ؟ وماذا يملك؟

– يعمل صيادا ، وهو على قدر حاله، ، لكنه تربى فى بيتنا منذ صغره ويتمتع برعاية الأسرة خاصة جدى ، منذ جاء إلينا صغيرا .

– يعنى مجرد نفر يعمل عندكم. خسارة أن تزوجها لفتى مثل ذلك لايملك شيئا ويتعسها ، وهذا الجمال خليق بالعز.

– لكن زاهيه صغيرة بالنسبة لك ثم أن لديك أبناء أكبر منها .

– وما له .. هذا لايخالف الشرع ، مادمت قادرا على إسعادها .. وكل ما ستطلبه سيكون رهن إشارتها، وبأكثر مما تتخيل . الرجل لايعيبه إلا جيبه .

أسقط فى يد إدريس وأدرك سر تودد الحاج المصيلحى ، فقال له : لن يوافق أحد من الأسرة ، وهى نفسها متمسكة بخطيبها . أعطنى فقط بعض الوقت حتى أفكر بالأمر وأحاول إقناعها .

لم يجد أمامه سوى السعيد الذى لم يوافق علي ارتباطها بمهران . وأعلن تذمره منذ البداية، لكن هما الاثنان انقطعت علاقتهما بالأسرة ، وعندما فاتحة قال السعيد : كيف؟ لقد احتدم الخلاف بيننا وبين أبى ، وأمى لم تغفر لنا ذلك . كيف بعد ذلك تريد فسخ خطبة زاهية لمهران؟ لن تستطيع ذلك، ولن يوافقك أحد، وهكذا تقطع كل السبل بيننا وبينهم .

- لم أكن أعلم أنك تعمل حسابا لهذا الصبى.

- أنت تعلم أننى لا أطيقه هو أو أخاه ، لكن ما يعنينى هو أبى وأمى.

- لكن نحن الكبار والمسئولون عنها بعد غياب أبى، ومهران عاجز عن إتمام الزواج وهذا الرجل يطرق الأبواب طالبا الحلال والبنت كبرت، والعيون عليها من الغرباء الذين ملأوا الفرما ولن يسلم الأمر كل مرة . أنا متأكد لو فاتحت الشيخ محمد سيوافق على الفور ، أما ضاحى فهو لايستطيع أن يفعل شيئا ، ولو كان رجلا بحق لألزم مهران بإتمام الزواج بعد أن أفسح له الطريق لدى أبى وأمى، يعنى لو لم يكن مهران موجودا هل يمكن أن يكون أمر زواجها أسهل؟

قال السعيد مترددا: أعتقد ذلك، ثم استطرد قائلا : أتعلم أن هذا المدعو عوض قد اشتط بتفكيره، وبات يعتقد أننا سنصبح أصهارا وبالتالى يصبح ندا لى، وربما أثار مطامعه أن بيت أبينا سيصبح لأخيه وبالتالى له، بعد أن استقر كل منا فى بيته، تخيل، .. إنه حلم أن يكون هذا البيت له ونحرم نحن منه، ولولا أبى لطردته من الوكالة، لكنى عرفته قدره، واستعنت بالعمال الذين جئت بهم من المنزلة. كاد يجن عندما جاءوا، إذ كان يتوهم أنه شريك فى العمل لكنى تجاهلته تماما وجعلتهم يمسكون الحسابات وكافة المسئوليات.

قال إدريس: يبدو أن معاملة أبينا لهم الطيبة وقوله لهم إنهم مثل أبنائه قد جعلتهم يتصورون ذلك .

كان المصيلحى فى انتظار رد إدريس كما وعده .

قال له إدريس : لولا وجود هذا الصبى لكان الأمر سهلا، خاصة أنه صديق شقيقها التوأم وتربى معهما .

قال المصيلحى : هذا ليس مشكلة .

- كيف ؟

- دع الأمر لى .

شعر إدريس أن الأمر يفلت منه، فالمصيلحى يضمر شيئا ما . حاول أن

يعرفه منه، لكنه لم يقل سوى: لا تقلق فسأدبر أنا الأمر .

بعدها بأيام قليلة جاءت تجريدة من رجال البوليس العاملين فى خدمة الكومبانية ورابطت فى ساحة الفرما، تجمع الأهالى حول الساحة متوجسين، فقد تعودوا قدومهم للبحث عن الأنفار الهاربين والمتخلفين عن العمل، كان الضابط يصدر أوامره للعسكر، حاول الأهالى أن يتسمعوا مايقول لهم. سمعوا أسماء شباب من الفرما تتردد، وسرعان ما انطلق العسكر لإحضارهم .

تم تقييدهم بالحبال وسط صراخ وولولة الأهالى الذين حاولوا الاقتراب من أبنائهم فمزقتهم سياط البوليس، كانت زاهية تقف بجوار ضاحى وهى تصرخ وتلطم، وهما يريان مهران وسط المقبوض عليهم. اندفع ضاحى تجاهه فأصدر الضابط أوامره بأخذه معهم، وشقت صرخات النساء ومعهم زاهية سماء الفرما، حتى أن أمينة أخذت تحتضن ابنتها لتهدئها هى وعائشة وهى تبكى أيضا، جاء السيد الفرماوى متعثرا فى خطواته مستندا على سكينه. بكى الرجل قهرا وهو يرى ضاحى ومهران مقيدين مع الشبان، لم يكن عددهم كبيراً، كانوا ثمانية. تحركت التجريدة بغنيمتها من الشباب المقيدين وخرج الأهالى وراءهم، وارتفع الصراخ والولولة، والأهالى يتوسلون الى رجال البويس أن يتركوهم ، فهم لم يفعلوا شيئا حتى يلقى القبض عليهم.

قال الضابط : سيذهبون للعمل بالحفر وسيعودون ثانية.

باتت الفرما ليلة من أسود لياليها، ظل الناس مجتمعين طوال الليل فى ساحة المناخ يواسون أهالى الشبان، وهم يستشعرون أن الخطر بات يطرق أبوابهم، فسوف يتحول أهالى الفرما الى أنفار، ورغم أنهم منذ تدفق عمال الحفر وهم يعانون ما يعانونه من قلة المياه ونقص الطعام، إلا أنهم لا يزالون يقيمون فى بيوتهم ووسط أسرهم ويمارسون أعمالهم التى تقيم أودهم بعيدا عن سياط السخرة ومشاق العمل فيها .

فى اليوم التالى انتظر الأهالى عودة الأبناء الثمانية مع الأنفار فى نهاية يوم

العمل، مر اليوم بطيئا لم يذق فيه أحد طعم الزاد حتى غروب الشمس. وبعدها هلت قوافل الأنفار التى ينتظرون وصولها، أسرعوا لملاقاتهم واصطفوا على جانبى الطريق يتفحصون الوجوه. كلها وجوه متشابة، الملامح المجهدة والوجوه المغبرة والأجساد المصوصة والخطوات المتعثرة، ولم يكن بينهم أحد من الشبان، أخذت الأعداد تقل تدريجيا ولم يبق سوى أفراد قلائل يقتربون ببطء ويتوقفون قليلا أثناء السير، ثم يسيرون بضع خطوات، حتى انقطع رتلهم، ولم يأت الشبان .

شك الأهالى، وقال البعض : ربما جاءوا بينهم ولم نرهم جيدا، وقال آخر : لا يمكن أن يرونا دون أن يتحدثوا الينا. قال أحدهم: ربما خشوا الكلام وهم فى حراسة البوليس.

أخذوا يطوفون بخيام العمال وهم يرددون أسماء الشبان الثمانية، ويسألون الأنفار عما اذا كان أحدهم قد رآهم ، لكن لم يجبهم أحد أو يعرف شيئا عن الموضوع، قال لهم أحد الأنفار متفكرا إنه رأى مجموعة من الأنفار الجدد عند ساحة الحفر، وقد استبقوهم عند نهاية العمل وأمر الضابط بتشديد الحراسة عليهم.

كانت تلك هى الأوامر، ألا يعودوا مع العمال كى لا يتسللوا الى بيوتهم ويساعدهم ذووهم على الهرب .

ظلت عائشة مع حماتها وزاهية، وقامت هى وزاهية بإحضار الفرماوى وسكينة ليبقوا جميعا معا بعد ذهاب ضاحى ومهران حتى يتسنى لهم رعايتهما معا، وانتقلت هى وأولادها إلى البيت الكبير ، انتظرت عودة زوجها فى المساء وذهبت الى البيت فقالت له: ماذا فعلت من أجل أخيك وخطيب أختك وباقى الشبان الذين أخذهم العسكر .

قال لها السعيد : أنا ؟ ماذا أفعل؟ لو بيدى شىء لفعلته على الفور، ليس من السهل على أن أرى ماحدث دون أن أستطيع أن عمل شىء، ولولا خشيتى من أمى ورفضها مقابلتى لبقيت بجوارها .

– هذا الكلام لايدخل العقل، فأنت وأخوك تستطيعان ذلك، وعلاقتكما برجال الكومبانية على خير ما يرام . كان إدريس يستضيفهم فى بيته قبل أن يتركه للغازية، أم لأننى لا أتكلم معك تظن أنى لا أدرى شيئا ، لقد أخذت الأولاد للبيت الكبير وسأبقى هناك معهم، لن تراهم أو ترانى إذا لم يعد الشبان .

نقل السعيد لإدريس ماحدث، فقال ادريس وهو يضرب الحائط بقبضته: لا أدرى لماذا أخذوا ضاحى؟ أنا أردت إبعاد مهران وحده، واتفقت مع المصيلحى على ذلك، لابد أن يعود ضاحى وسأذهب أنا والمصيلحى لمسيو جيرار لنطلب منه إطلاق سراح ضاحى .

قال السعيد: لقد جاء عوض ليتشاجر معى وقال إن لنا يدا فى ذلك، لكنى قلت له إن أخى أيضا قد أخذوه، أخذ يسب ويهدد، لكنى طردته.

– دعك منه، المهم الآن ضاحى.

عندما طلب إدريس من المصيلحى أن يذهب معه لمكتب مسيو جيرار ليطالبانه بإطلاق ضاحى، الذى أخذ خطأ على خلاف المتفق عليه، قال المصيلحى: المسيو جيرار الآن عند كهرمانة ولن نستطيع الحديث معه إلا غدا صباحا.

قال إدريس وقد بلغ به الضيق مداه: نذهب اليه فى الصباح الباكر، ربما يكونوا قد رحلوهم الى قرية التمساح أو رأس الجسر بعيدا عن الفرما هذا يزيد الأمر تعقيدا، فهو لن يأتى معنا للبحث عنه وسط آلاف الأنفار.

– لا تنع هما، المهم أن تفى بوعدك وتعجل بإتمام الزواج.

– لا أستطيع الحديث فى هذا الأمر الآن . كيف تتصور أن أفاتحهم فى أمر زواجك من زاهية وهم يبيتون ليلهم فى مأتم، ويرون بأعينهم مايحدث للأنفار فى الحفر.

– أسمع ياإدريس ، بصراحة ، ليس لى يد فى أخذ أخيك، ولا أدرى ماذا حدث حتى أخذوه معهم، هناك التباس فى الأمر، أقسم لك أنه ليس لى يد، فهو شقيقك وشقيق العروس. لكنك أخبرتنى أنه صديق هذا الصبى الذى يريد أن

يتزوجها ، فلماذا لا نتم إجراءات الزواج سريعا قبل أن يأتى ويعترض على الزواج. هو عائد على أية حال.

– محال أن يتم ذلك فالأمر أصعب الآن، حتى على أنا نفسى ، حتى لو توقف الزواج.

– نحن لم نتفق على ذلك. الرجل لا يرجع فى كلامه .

– ليعد ضاحى أولا، وأنا عند وعدى مهما كانت الظروف .

– سيكون غضبى شديداً لو نكثت بوعدك .

رفضت أمينة الحديث الى السعيد وإدريس اللذين توجها الى البيت ولم تسمح لهما بالدخول رغم أنهما أتيا لطمأنتهم بشأن عودة ضاحى وأكدا على ذلك. قالت زاهية:

وماذا عن مهران ؟

قال إدريس : خطوة خطوة.. وسيعود الإثنان .

الفصل التاسع والعشرون

فرضت على شباب الفرما الثمانية لدى وصولهم الى ساحة الحفر حراسة مشددة، عملوا مع الأنفار طوال اليوم، وفى صباح اليوم التالى تقرر ترحيلهم الى الساحة الواقعة مابين الفرما والتمساح فى رأس الجسر،وتحركت القافلة مع ضوء النهار قبل أن تشتد حرارة الجو مقيدين بحبل واحد غليظ، فى حراسة العسكر. عندما وصل المصيلحى وإدريس الى مكتب المسيو جيرار وشرحا له ماحدث، أرسل فى إحضار ضاحى. جاء الرد بأنهم توجهوا الى رأس الجَسر، أخذوا منه أمرا مكتوبا بإخلاء سبيل ضاحى. وأسرع إدريس للحاق بهم قبل أن يتم توزيعه أو تتعقد الأمور. كان يحاول الإسراع أثناء الطريق وقد حصل على جمل من بدوى الذى اصطحبه فى الطريق، لقاء مبلغ من المال، فوصل فى نهاية اليوم وقدم لمندوب الكومبانية بساحة الحفر فى رأس الجسر خطاب المسيو جيرار. أخذ المندوب ، ويدعى فيليب، يستفهم عن السبب، فأفهمه إدريس أنه أحد المقاولين الذين يتعاملون مع الكومبانية وأن ضاحى شقيقه قد أخذ مع بعض الشبان من الفرما بطريق الخطأ، فأرسل فى البحث عنه .

قال له فيليب: يبدو أنك مهم بالنسبة للمسيو جيرار، وإلا ما اهتم بك كل هذا الاهتمام.

قال إدريس: منذ بدأ الحفر وأنا أعمل معه، أورد الطعام والماء، وقد شجعت الكثيرين على ذلك وهم الآن يعملون معه، لأننى أرى الخير الذى سيعود على مصر من حفر الترعة.

– برافو . أتمنى أن يفهم كل المصريين ذلك وأن يفكروا مثلك. أنت ترى

مالايراه الآخرون، أطمئن فلن ترجع الا شقيقك معك .

أخذ إدريس يكيل المديح ويثنى على شهامته، فقال له فيليب: أتمنى أن تتعاون معنا فى رأس الجسر لأن العمل هنا أشق، فالأرض صخرية وأصعب فى الحفر وهؤلاء العمال ينتهزون أى فرصة للتكاسل، كما أننا بحاجة أكثر للمياه.

– كما تريد، وأنا تحت أمر الكومبانية.

أرسل فيليب معه أحد الملاحظين للسؤال عن الأنفار الذين وصلوا فى الصباح من الفرما. لم يكن الأمر هينا، فلم يكن هناك من يهتم بهؤلاء الأنفار الذين لا يحملون أسماء، وبعد الاستفسار من الملاحظين ورؤساء الأنفار فى عدة أماكن، رآهم ادريس فنادى ضاحى الذى كان قد تم توزيعه هو وشباب الفرما فى أحد مواقع العمل وبدأوا العمل بالفعل. التفت ضاحى نحو مصدر النداء الذى بدا قريبا وسمعه الشبان فالتفتوا ليجدوا إدريس قادما باتجاههم، حياهم وقال لضاحى : هيا استعد للعودة.

قال ضاحى : وحدى؟ لا ، لا يمكن أن أعود إلا مع كل هؤلاء الشباب.

كلكم ستعودون بالطبع، لكننى لا أستطيع أن أطلب منهم الآن أن يتركوكم جميعاً. وسيذهب ضاحى معى الآن.

رفض ضاحى الذهاب معه، بعد ماحدث منه وما رآه فى الشهور الماضية . كان يتوجس من إدريس، خاصة مع هذه التفرقة.

قال مهران : إذهب معه ياضاحى

– أسكت يامهران .

قال إدريس : إرجع رحمة بأمك وزاهية وجدك وجدتك، كأنهم فى مأتم ولا يكفون عن البكاء عليك، أنت لا تعرف كم بذلت من جهد منذ أخذوك، وأنا أرى الحزن يهدهم .

– وهؤلاء ، أليس لهم أهل؟

أصر ضاحى، وإدريس يستعطفه ويتوسل اليه قائلا : جدك وجدتك وأمك

وزاهية كلهم بحاجة الى من يرعاهم. وأنت أقدر منى على ذلك لأنك مازلت تعيش معهم، وأمك مازالت غير راضية عنى وعن السعيد. أرجوك ياضاحى لأجل خاطرهم، وأعدك أن أبذل جهدى لإطلاق سراح الباقين، وأولهم مهران .

قال مهران : من أجلى أنا أيضا ياضاحى، وجودك وسطهم يجعلنى أعيش فى الفرما وأراها بعينيك .

ردد الشبان الرجاء، قال أحدهم : اذهب ياضاحى . لو أفرجوا عنك فسيتركونا جميعا، مثلما حدث مع إدريس فى الحبس. رفض ضاحى الذهاب، حتى إن إدريس اضطر أن يلجأ للمسيو فيليب ليصدر أمرا بإبعاده عن الأنفار، وقام رئيس الأنفار بإبعاده عن زملائه . وإدريس يرجوه أن يبعد .

إحتضن ضاحى مهران طويلا هو وباقى الشبان وانصرف مع إدريس، وهو يؤكد له أنه سيسعى للإفراج عن بقية الشبان. ظلا صامتين وهم يسيران جنبا الى جنب وكل منهما يسرح بفكره فى اتجاه، كان ضاحى يشعر بضيق لعودته بدون زملائه. لا يعرف كيف يفسر لأهاليهم أنه جاء بدونهم، هل سيقول لهم أن إدريس سيبذل مافى وسعه، لكنهم لا يثقون بادريس. بل ينقمون عليه لإغضابه أبيه، وهم يرون أنه السبب فى اختفائه. إدريس لا يخطو خطوة الا فيما يراه مصلحة له، وقد قال بنفسه إنه كان وراء الافراج عن رجال الفرما من الحبس، كان ذلك مقابل أن يقبل التعامل مع الكومبانية وقد جنى الكثير من وراء ذلك. ترى ماذا سيجنى من وراء الإفراج عنه، أم أنه يحاول اصلاح بعض أخطائه واكتساب رضاء أمه؟ أهو جاد فى ذلك فعلا وهو يعلم الطريقة الوحيدة لرضائها، هل يكف عن العمل مع الكومبانية؟ لا أعتقد.. فهو دائما يطلب المزيد.

أما إدريس ، فكان يفكر فى الوعد الذى قطعه لمصيلحى بتزويجه زاهية، والطريقة التى ينفذ بها هذا الوعد. فالبنت صغيرة لا تعرف مصلحتها، وقد تعلقت بمهران لأنها تعودت وجوده منذ أن كانا صغارا.. تماما مثله مثل ضاحى، هى لا تدرك من أمرها شيئا، لكن ربما يثير ضاحى المشاكل إذا حدث ذلك وسيحرض

عليه أمه. هم لن يقبلوا أن يكون زواج زاهية عن طريقه. لكن كيف يكسب رضاهم؟ هو لم يفعل مايغضبهم، لكنه اختلف في الرأى مع أبيه، هكذا يرى إدريس الأمر، فلماذا كل هذا الغضب الذى دعاه للاختفاء تاركا الفرما لهم جميعا، وهل لا يزال فى الفرما أم تركها؟ وماذا يفعل الآن؟ وجود أمه على باب حجرة أبيه يوحى بأنه مازال معتكفا فى الداخل، ولا تسمح لأحد بدخول الغرفة، هى وحدها التى تدخل حجرته ، وهم لا يلحون فى طلب رؤيته، ويتركون لها المكان احتراما.

أخذ يتصور ما يمكن أن يحدث إذا قرر أن يفاتحهم فى أمر زواج زاهية. ستثور أمه وضاحى، والبنت نفسها سترفض. وإذا نكث بوعده للمصيلحى فلن يسكت ذلك الرجل، فقد أصبح له اعتباره لدى المسيو جيرار.. سيحاربه بضراوة بعد أن أعلنت كهرمانة الحرب عليه، ولن يستطيع أن يلجأ للعمل فى رأس الجسر مع المسيو فيليب وجيرار غاضب عليه. هو فى مأزق من كل النواحى.

عاد ضاحى الى الفرما وسرعان ماسرى النبأ. أخذ أهل الفرما يسألونه عن أبنائهم الذين ذهبوا. سأله السيد الفرماوى عن مهران. شعر ضاحى بالضيق لحضوره دونهم، قال إدريس: أفهمنى انهم سيأتون تباعا .

قالت إحدى الأمهات: إدريس أتى بأخيه فقط ولا يهمه أمر أبنائنا، مادام قادرا على إحضار أخيه فقد كان بإمكانه أن يأتى بهم أيضا.

حاول البعض إسكاتها، وتوسلوا لإدريس أن يبذل جهده لإحضارهم قائلين: هم أيضا، أبناء الفرما .

جاء عوض وسط الموجودين ولم يتكلم أو يندفع نحو إدريس. فقد ساورته الشكوك فى أن يكون هو المتسبب فى الابلاغ عن مهران حتى لا يتزوج من زاهية، فقد قالها للسعيد صراحة، لكنه رأى قلق السيد الفرماوى واهتمامه بأمر مهران. لم يشأ أن يتكلم حتى لا يعاند إدريس، فاكتفى بالصمت، وكظم غيظه الذى يفور فى صدره وهو يفكر فى طريقة للانتقام منه .

أخبرهم ضاحى أنهم موجودون فى رأس الجسر. إقترح بعضهم الذهاب الى

هناك لرؤية أبنائهم لكن ضاحى قال لهم أن الأمر ليس بهذه السهولة، إذا لم يعودوا كما وعد إدريس سينتظرون يوما أو يومين ويذهب هو بنفسه نيابة عنهم. حاول إدريس أن يتحاشى لقاء المصيلحى وأن يماطل فى تنفيذ وعده فذهب الى دمياط، أرسل المصيلحى فى طلبه فلم يجده فتوعده بأن يوجه اليه ضربه قوية اذا لم يظهر، وهدد قائلا : لن يدخل الفرما مرة أخرى .

كذلك شعر أهالى الفرما، الذين ينتظرون عودة أبنائهم الذين سيقوا مقيدين إلى ساحات الحفر، أن ادريس يتملص من وعوده ولابد أن يواجهوه، فظلوا متواجدين أمام بيته. كان ضاحى شديد القلق لغياب إدريس، فهو يتعلق ببعض الأمل فى أن يكون إدريس جادا فى وعده، بالسعى للافراج عن بقية الشباب، فى محاولة منه للتقرب من أمه وبقية أسرته، وأهل الفرما أيضا الذين تحول الشك لديهم الى يقين بأنه السبب فى تسليم الشباب الى الكومبانية. انطلق عوض يقسم ويهدد وهو يتهم إدريس والسعيد بأنهما السبب فى تسليم أخيه حتى لا يتزوج زاهية، وأنه يكرهه ورغم الكلمة التى أعطاها أبوه وجده لمهران، وقراءة فاتحته على زاهية. فهو لا يقيم حرمة ولا وزنا لأحد حتى لأبيه، وهو السبب فى كل مايحدث فى الفرما وفى إختفاء أبيه .

عندما جاء بعد ثلاثة أيام أمضاها فى دمياط، فوجئ باستقبال أهالى الفرما، اندفع عوض ثائرا وهو يمسك بتلابيبه: أين أخى يا إدريس؟

دفعه إدريس بعيدا، فاندفع عوض باتجاهه ولكمه. حال الناس بينهما. قال إدريس متوعدا: لن تراه مرة أخرى، سيأتى كل الشبان ماعداه.

قال السيد الفرماوى: لعنة الله عليك، كيف تقول ذلك ياولد؟ هذا خطيب أختك الذى اختاره لها أبوك، ووصيته بزواجه منها .

– زاهية تتزوج بأفضل شباب الفرما أو غيرها، وليس بمثل هذا الأجير الذى يطمح هو وأخوه أن يرثا السيد القبوطى. ثم التفت الى عوض قائلا: أنت ستترك الفرما مثلما جئتها، أتظن أن المعروف الذى فعلناه معك قد جعلك تطمع فينا أنت

وأخوك؟

خرجت أمينة ، وأمسكت بتلابيب إدريس وهى تهزه،: كفاك ياإدريس. لم نر منك إلا كل شر، وإذا لم يعد مهران مع الشبان فأنا التى سأقف أمامك.

صمت إدريس، لم يستطع الرد عليها. وجاءه رسول من مصيلحى يطلب منه الذهاب اليه .

حكى إدريس للمصيلحى ماحدث بالتفصيل من ثورة الأهالى وضاحى عليه، لأن هذا الملعون عوض شقيق مهران قد أوعز للأهالى أنه السبب فى أخذ أبنائهم مع أخيه حتى يبعده عن زاهية.

قاطعه المصيلحى قائلا : إياك أن تفكر فى النكث بوعدك .

– لا ، ولكنى أحكى لك ما يحدث، فانتظر قليلا حتى تهدأ ثورتهم .

كشر مصيلحى عن أنيابه قائلا : أعطيك مهله للغد فقط، واذا لم يتم الزواج فأنت لم تعرف غضبى بعد، وإياك أن تحاول التملص .

– إهدأ فقط ياحاج مصيلحى ، أنت تعرف أننى فعلت كل ذلك من أجلك وأنت جالس مستريح فى بيتك. وبدلا من أن تقدر ذلك وتفكر معى فى مخرج تهددنى، البنت الآن معهم ولن أستطيع الاقتراب منها بعيدا عنهم .

– لن تعدم حيلك ياإدريس .

– لن تستطيع أن تتزوجها وتقيم معها فى هذا البيت فى الفرما.

– من يجرؤ على الإقتراب من هذا البيت؟ فالبوليس كفيل بتأديبهم.

– هؤلاء هم أهلى يا مصيلحى، وأهل البنت التى تريد أن تتزوجها. كيف تفكر أن تفعل ذلك بأهلها.

– أنت تتحايل كى أترك لك البيت، أنت تريد الاستيلاء عليه بدون زواج.

– أنا أزوجك أختى وأتحمل فى ذلك الكثير وأنت تتحدث عن البيت. بيتك هذا لا يهمنى فى شىء، ولا يساوى الكثير فيما تطلبه .

– ماذا تريد بالضبط ياإدريس؟

– أن نفكر في هدوء بدلا من التهديد والوعيد .

– إحضر البنت الى هنا بأى طريقة ثم نأخذها الى رشيد ونتزوج هناك، فقد أحضرت لها من دمياط كل ما تتمناه عروس من ملابس ومجوهرات لتليق بى .

عاد إدريس الى البيت الكبير فى نهاية اليوم متحاملا على نفسه. عرج على السعيد قبل أن يذهب وحكى له ماحدث وعن الخطة التى دبرها مع المصيلحى لزواج زاهية.

قال السعيد : يعنى نخطفها ؟

– لو تركنا زاهية، ستظل تنتظر هذا الملعون مهران، وسيطول انتظارها. والفرما لم تعد كما كانت فقد امتلأت بالرجال الغرباء وستصبح مطمعا لهم . لا أحد بجوارها ليحميها. والمصيلحى يريدها فى الحلال وهو رجل مقتدر لا يعيبه شىء. ونحن إخوتها الكبار.. يجب أن نسترها .

أخذ السعيد يزن كلمات أخيه، قال : أنا معك ولكن كيف نزوجها بعيدا عن أمها وجدها؟ جدها لم يعد يقوى على شئ وأمها مشغولة بأمر أبينا، وستمضى بقية عمرها جالسة على باب حجرته، لا أحد يفكر فى مصير هذه البنت .

إصطحب السعيد معه الى البيت الكبير وعيونهما على زاهية بعد أن رسما خطتهما مع المصيلحى .

تجمع الناس حولهما ثانية وقد تغيرت لهجة إدريس. وهو يقول لهم إنه جاد فى الذهاب لإحضار الشبان ، لكن الناس تحاملت عليه .

أقسم أنه لا ذنب له فيما حدث. أمضى ليلته وسطهم حتى يهدئ النفوس هو والسعيد حتى أوغل الليل فأخذوا فى الإنصراف، انتهز فرصة إبتعاد ضاحى لأمر ما واختلى بزاهية . قال لها : هناك خبر لا أريد أن يعرفه أحد غيرك.

التفتت اليه متسائلة ، فقال لها : مهران موجود.

– أين؟

– إخفضى صوتك حتى لا يسمعك أحد .

- أين هو ؟

- قريب من هنا ، وهو يريد أن يراك ، مختبئ في مكان قريب. لا تخبرى أحدا بذلك.

زالت تحفظاتها ومخاوفها وخشيتها من إدريس أمام رغبتها فى رؤية مهران. إصطحبها هو والسعيد الى بيت المصيلحى، الذى لاقاها متهللا: أهلا بعروستنا ست البنات .

إختلى به ادريس ليخبره بخطته. أرسل مصيلحى رجاله ليعدوا الأمر، وقرب الفجر تسللوا بها وقد بدأ ينتابها القلق دون أن يجيبوا على أسئلتها المتتابعة. إتجهوا الى المرسى على الشاطىء ، طلبوا منها الركوب معهم، فتوجست قائلة : أين مهران؟ قلت لى إنه فى مكان قريب، الى أين نحن ذاهبون؟

قال إدريس : كما قلت لكى لا تخشى شيئا .

مضت معهم ورهبة كبيرة تملأ قلبها، وهى تتعلق بذراع إدريس. وقبل أن تتحرك المركب قال السعيد : سأعود أنا .

نظر إليه إدريس شذرا : كيف تفكر فى الانصراف ؟

- حتى اطمئنهم عليكم، فلا أحد يعلم بغيابنا .

- وتتركنى وحدى؟

قالت زاهية للسعيد وهى ترتجف : خذنى معك، لا أريد الابتعاد اكثر من ذلك ، فقد تأخرت عليهم .

قال له إدريس وهو يكظم غيظه : أترى ؟

كاد الخلاف يحتدم بينهما ، وزاهية لا تفهم شيئا مما يجرى حولها وقد انتابها الجزع من جراء المشاجرة التى نشبت بين أخويها ولم تعرف لها سببا، وانفجرت فى البكاء بعد أن شعرت أن فى الأمر خدعة ما . وإدريس يحاول ان يهدئها، وهى تصرخ قائلة : لن أصدقك إلا إذا عدت بى الى الفرما تدخل المصيلحى قائلا للسعيد: لا تنعى هما، سنرسل لهم من يخبرهم .

وتحركت بهم المركب متجهة الى رشيد.

الفصل الثلاثون

لم ينتبه أحد لغياب زاهية حتى صباح اليوم التالى الا بعد أن استيقظ جميع من فى الدار. عندما لم يجدوها اعتقدوا أنها استيقظت مبكرا وربما ذهبت الى مكان ما. تعودوا ان يكون هذا المكان بيت جدها . لكن جدها وجدتها يقيمان معهما. بمرور الوقت بدأ القلق ينتابهم خشية أن يكون قد وقع لهم مكروه، فانطلقوا يبحثون عنها فى كل مكان، وكلما سألوا أحدا من الأهالى إنطلق يبحث معهم حتى فتشوا كل شبر فى الفرما. وقرب نهاية اليوم جاء أحد رجال المصيلحى وأخبرهم بما حدث.

ترنحت أمينة وأطلقت صرخة مدوية ووقعت على الأرض فتجمع حولها أهل الفرما ليستطلعوا ماحدث. ، وجدوا جميع من فى الدار يولولون وهم فى ذهول. ويحاولون إسعافها.

أسرع ضاحى فى أعقاب الرجل ليستفهم منه عما حدث، فأخبره أن المصيلحى قد طلب الزواج منها، ووافق إخوتها وأنهم اصطحبوها فى مركب أبحر بهم إلى رشيد لعقد زواجها هناك وأن هذا كل ما قاله له المصيلحى وطلب منه أن يطمئن أسرتها أنها بخير .

– من هذا الخنزير المصيلحى ؟

– لا داعى للسب، فهو قد اتفق مع إخوتها الكبار. وقد ذهبت معهم بموافقتها.

– الخنازير .

تركه الرجل ومضى. ولم يستطع ضاحى إيقاف دموعه، كان فى حالة من الذهول، كيف توافق زاهية على الزواج وتمضى معهم ؟

كيف خدعها إدريس والسعيد؟ وماذا قالوا لها حتى تمضى معهم دون أن تخبر أحدا، وهى التى لم تجف دموعها من البكاء منذ أخذوا مهران، ولم تكف عن السؤال عنه وتطلب منه أن يذهب إليه، هذا الزواج لا يمكن أن يتم بموافقتها . لكن اذا كان قد غصبا عليها فلماذا لم تخبرهم؟ لا يمكن ان يتم الأمر هكذا دون تدبير. أم كانت هى آخر من يعلم؟ قال وهو يصرخ: لماذا لم تخبريني يازاهية؟

إنهمرت دموعه والأسئلة تكاد تطيح برأسه، ماذا سأقول لمهران؟

مسح الدموع وهو يقترب من المنزل. وأدهشه هذا السكون الذى خيم على الموجودين رغم الزحام فى البيت وخارجه، والأنظار متجهة إليه وهم يواسونه. أخبروه أن أمينة دخلت حجرة أبيه وأغلقت الباب على نفسها. خفتت الأصوات رهبة وخشية أن تكون قد اعتكفت مع زوجها وحاروا فى أمرها وأمره، تقدم ضاحى نحو الحجرة وحاول أن يفتحها، لكن الباب كان مغلقا من الداخل، أخذ يطرق الباب بكلتى يديه وهو يكاد يصرخ: إفتحى يا أمى إفتحى أرجوك. أريد أن أراك.. أنا ذاهب للحاق بها ، إفتحى .

ترقب الموجودون بلهفة ، هل ستفتح أمينة استجابة لرجاء إبنها أم ستفعل مثل زوجها . حتى أخذ البعض ينادون معه يرجونها أن تخرج اليهم. بعد قليل، فتحت أمينة الباب وخرجت اليهم. كانت تبدو أكثر هدوءا رغم نظراتها الحادة الصارمة.

– أمى ، سأذهب لألحق بزاهية.

لانت نظراتها أمام ابنها، قالت وهى تربت على كتفه: أخشى أن تذهب وحدك، لا أحد يدرى أين ذهبوا الآن .

إنضم اليه بعض الشبان ومنهم من كانوا معه هو ومهران فى غابات البوص. أسرعوا الى البحيرة واستقلوا مركبا، وأخذوا يسابقون الوقت، على أمل أن تتوقف المركب الذى إختطف زاهية فى دمياط ويتمكنوا من اللحاق بهم .

لم تهدأ ثائرة أهل الفرما، خاصة أسر الشباب الذين أخذوا الى ساحة الحفر، أسرعوا إلى بيت ادريس واقتحموه وهدموه تماما وهم يتوعدونه، ثم أسرعوا الى

بيت المصيلحى، حاول الخدم منعهم ولكنهم تغلبوا عليهم بكثرتهم.

أطاحوا بمحتويات البيت وحاولوا هدمه، وهم يتوعدون ألا تطأ اقدامه هو وإدريس والسعيد أرض الفرما. أبلغ أحد رجال المصيلحى الكومبانية بأن هناك هوجة فى المناخ، وسرعان ما جاءت تجريدة من البوليس يقودها أحد الضباط، قاموا بالإمساك بالأهالى وقادوا الشبان والرجال مقيدين إلى ساحة الفرما وجلدوهم بالسياط أمام ذويهم دون رحمة وسقط البعض مغشيا عليه وامتلأت الأجسام بالندوب والجروح وسط صراخ النساء وتحولت الفرما الى مأتم كبير.

وأمر الضابط بحصر وتسجيل أسماء الرجال والشبان كلهم، وألا يغادر أحد مكانه وانتشر رجال البوليس والدرك فى كل مكان فى الفرما.

كانت أسر كثيرة قد غادرت الفرما بعد اقتياد الشبان الى ساحة الحفر خشية على رجالها وأبنائها، كما غادر الكثير من الشبان أسرهم ليقيموا فى أماكن بعيدة خشية أن يأتى عليهم الدور للذهاب الى الحفر .

لم يكف السيد الفرماوى وسكينة عن البكاء. كان يردد: خطفوها.. خطفوها.. خطفوا أميرة التنيس.. أين أنت الآن ياأميرة .. يازاهية؟

ثم يواصل : لقد سحروا لها، نعم لديهم سحرة قلوبهم سوداء وهى الآن لا تدرى شيئا مما حولها. طمعوا فيها ، فلا توجد فتاة أجمل من زاهية.

أما عائشة، فكانت تبكى وهى تشعر أن آخر خيط يربطها بزوجها السعيد قد إنقطع، وقد صممت ألا تعود اليه مهما كان الأمر ، فما حدث قد تجاوز كل أسباب الخلاف وقد أصبحت تخشاه وتخشى على أبنائها منه، فهو يتبع إدريس الذى تملكه الشيطان حتى أنه لم يتوان عن التفريط فى أخته نفسها، لم يبق الا أن تواصل حياتها وتكرسها لأبنائها وتعيش فى كنف حماتها، رغم وجود أمها التى كانت قلقة عليها فى الفترة الأخيرة بشأن ما ينتاب علاقتها بزوجها وكانت تطلب منها طاعته، إلا أنها كانت ترفض أن تستكين، وهى تشعر أنها تنتمى لأمينة ، تستمد منها قوتها، وتتعلم الكثير منها .

في غمرة ما يحدث ، ورغم الظروف العصيبة التي اجتاحت الفرما، كان السؤال الذي يدور في ذهن كل واحد من أهلها هو : كيف يمكن أن يظل السيد القبوطي في مكمنه تاركاً إبنته؟ لماذا لم يظهر؟ وهل غضبه على إدريس والسعيد يشملهم ويشمل حتى زاهية التي من أجلها انفطرت قلوبهم واشتعل غضبهم؟ هل مازال موجودا في حجرته أم غادرها منذ زمن؟ السيد الفرماوي مازال يؤكد أنه لم يغادر الفرما بعد كل ماحدث، عندما اقتحم رجال البوليس البيت وفتحوا الحجرة لم يكن موجودا بها، أرسلوا بعضهم للبحث عنه في كل مكان لكنهم لم يعثروا عليه. الغريب أن أمينة ظلت جالسة مكانها أمام الحجرة تمنع أي أحد من دخولها .

تدور الأسئلة في دوائر تعود بهم إلى نقطة البداية وتجعلهم أكثر حيرة في أمره. ويتفاقم هذا الشعور بالإفتقاد إليه مع كل مشكلة تواجههم. فيشعرون بالحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى.

توجه ضاحي والشبان الذين كانوا معه إلى المنزلة وقطعوا الطريق إلى دمياط وتوجهوا على الفور إلى المرسى وسألوا عن المصيلحي، أخبرهم المراكبية في المرسى أن المركب وصل دمياط في الصباح وتوقف قليلا ثم واصل الإبحار إلى رشيد . صمم ضاحي على مواصلة الرحلة إلى رشيد ليبحث عنهم هناك. لم يكن هناك مركب مبحر إلى هناك، وقال له المراكبية ان ينتظر للمصادفة.

حاول الشبان إثناءه، لأنه لن يتمكن من اللحاق بهم، وسيكون الزواج قد تم . طاش صوابه لمجرد التفكير في ذلك، أخذوا يهدئونه قائلين إنهم لاشك سيعودون بها قريبا الى الفرما ولابد أن ينتظرهم هناك، لا أن يكون غائبا عند حضورهم. ولم تجد المحاولات معه :

- قال له أحد الشبان: نحن مثلك تماما، فزاهية أختنا وربيت وسطنا وكنا جميعا معك أنت ومهران عندما هربنا من قبل، لن يجدي الذهاب وإدريس والمصيلحي والسعيد لن يستطيعوا الإبتعاد لفترة طويلة، ولابد أن يعودوا لأن مصالحهم

وأعمالهم فى الفرما مع الكومبانية وعندما نصل إلى رشيد سيكونون قد عادوا إلى الفرما .

كان ضاحى كالمذبوح وهو يشعر أن جزءاً قد اقتطع منه، يفكر فى أمر إخوته ويكاد التفكير يذهب بعقله. أن يصل الأمر بهم الى خطف زاهية.. هذه الزهرة التى لا حول لها ولا قوة، بعد أن قتلوا فرحتها بالزواج المنتظر من مهران .

عندما اقتربوا من شاطئ الفرما اخبرهم الصيادون وهم فى البحيرة أن البوليس يرابط فى المناخ وأخبروهم بما حدث ونصحوهم ألا يدخلوا الآن، فاتجهوا الى البوص وانتظروا الليل حتى عودة العمال ورأوا بعضهم على شاطىء البحيرة يغتسلون كما تعودوا ويشربون من مائها المالح فعادوا وتسللوا إلى بيوتهم. إستراح ضاحى لأن جده كان نائما ، أخبر أمه بما حدث فقالت إن رأى رفاقه صحيح ولن يلبث إدريس والسعيد أن يعودا.

نصحته أمه ألا يخرج من البيت وأن يبقى مع جده، لكن دموع جده كانت تزيد من عذابه وهو يسأله عن زاهية، ثم يعود إلى حكاياته التى كان ضاحى يرى أنها تلهيه عما يحدث، فيقول له : تعرف ياضاحى أن ملك التنيس عندما يعرف بغياب إبنته، سيحارب مملكة الهكوش ويعيدها ثانية، سيهزمهم ويبددهم فى كل مكان ولن تقوم لهم قائمة. سيعود بالأميرة إلى مملكتها وستصبح ملكة البلاد ولن يستطيع أحد الوقوف أمامها، وتعود التنيس كما كانت عامرة بالخيرات..

يستمع ضاحى إلى هذه الحكايات التى تعود سماعها من جده مع زاهية ومهران منذ الصغر، يتذكر تلك الأيام وتلك الصحبة الدائمة عندما كان الصيادون والصبية الصغار يتجمعون حولهم وهو يحكيها وتنطلق ضحكات زاهية. لأول مرة يشعر ضاحى برغبة حقيقية فى سماع تلك الحكايات من جده وهو يحكى معه ويسردان التفاصيل معا ويشعران أنها قصة حقيقية، ولأول مرة ينتبه إلى جده وهو يحكى ويتساءل بينه وبين نفسه: كيف تكشف حكايته ما يجرى؟ ومادام الأمر كذلك فستكون نهايات الحكايات مثل مقدماتها، لم يكن يأخذه من تلك الحكايات

سوى جده نفسه عندما ينتبه فجأة الى ما جرى ويصيح مناديا : زاهية .. يا أميرة .. أين أنت؟

كانت صحته قد ساءت وعاف الطعام مما أقلق سكينة التى كانت تستعين بضاحى كى يتناول الطعام معه ليشجعه. وكانت عائشة تطلب من أولادها أن يبقوا معه وتطلب منهم أن يستمعوا الى حكاياته ومداعباته كى يسروا عنه، لكن لم يطب له الجلوس إلا على المصطبة القبلية أمام البحيرة، وهو يحاول جاهدا أن يستعين بتلك الرؤى التى أصبحت عاصية عليه. سنوات طوال مضت منذ كان يطيب له الجلوس فى هذا المكان، كان الشاطىء وقتها خاليا إلا من بضعة صيادين، يعرفون بعضهم البعض. لم يكن يجلس أمام البحيرة بعد ذلك سوى فى صحبة زاهية وضاحي ومهران. كانت صورهم تتخلل المشاهد الماثلة أمامه، وصورة السيد القبوطى التى تتراءى له أينما ولى جهه، فيجلس مستغرقاً حتى أنهم كانوا لا يدركون أهو نائم أم مستيقظ.

– إنهض ياسيد يافرماوى، وتعال معى .

ينظر اليه مذهولا ويده ممدودة اليه، وأصابعه تتحرك تستحثه على النهوض .

– بن إدريس!

– أسرع ، فليس هناك وقت نضيعه.

أمسك بيده واندفع معه على الشاطىء باتجاه البحيرة. لم تكن هناك مياه، بل أرض ممتدة أمامه، وعلى البعد كانت تلوح أبنية عالية تبرز من بينها قباب وأبراج عالية، وتلوح قلعة ضخمة مقامة فوق رابية، وعندما إقتربا منها وجد أن كل الأنبية مائلة باتجاه البحر. كان يحثه على الإسراع وهو يمسك بيده .

– هيا ندركهم قبل أن يرحلوا.

– ندرك من؟!

– هؤلاء هم أهلى الذين حدثتك عنهم.

كاد للحظة يهتف باسمه: السيد القبوطى، لكن الأمر إلتبس عليه ثانية فلم يدر

أن كان السيد القبوطى أم بن إدريس.

عندما اقتربا منهم وجدا المياه تغمر الطرقات بين الأبنية، بحيث بدت كجزر منفصلة مثل جزر البحيرة، لكنها كانت تهتز، ثم تتحرك في شتى الاتجاهات ، كان هناك جمع متزاحم أعلى القلعة إلتف حول شخص ما وهو يشير بيديه الى الناس الواقفين على الجزر، وبن إدريس أو السيد الفرماوى يلوح بيده كما لو كان يودعهم. ثم انتبه بعد ذلك الى الأرض التى يقفان عليها وهى تتحرك بهم وهو يهتز مترنحا، يحاول الامساك بأى شىء بينما الآخر منشغل عنه وهو يناديه ، وكأنه لا يسمعه. أخذت الأرض التى يقفان عليها تتراجع بهما حتى ابتعدا وهو مازال يلوح لهم بيده، ثم التفت إلى السيد القبوطى قائلا كأنما يحدث نفسه : الآن عرفت أين ذهبوا ، أستطيع بعد ذلك أن أراهم .

كان ضاحى يربت عليه، وقد أحاطت به سكينة وأمينة وعائشة ، وسكينة تدثره بالعباءة وقد انتابها القلق من الرعشة التى انتابته .

تطلع اليهم قائلا : لقد رأيته .

الفصل الواحد والثلاثون

فتحت عائشة الوكالة وأخرجت كميات كبيرة من الحبوب ونقلتها إلى الدار، وقامت بتوزيعها على بيوت الفرما التى كان سكانها يعانون نقص الطعام. شجعتها أمينة وهى تشعر بالامتنان لها، ساعدتها في ذلك، حتى أن بعض الناس القادمين من خارج الفرما إشتكوا قلة الزاد، وأخذوا نصيبهم. كما فعلت حماتها من قبل عندما كان الرجال فى الحبس. أخذ الناس يدعون لها ولبيت الفرماوى الذين رغم كل الظروف التى مروا بها، مازالوا يشعرون بهم، ومازالوا يعطون .

كان ضاحى يتأمل مايحدث حوله كأنه كابوس يصل ليله بنهاره. إذ لم يكن يستطيع النوم إلا فترات متقطعة وهو يشعر بالإنهاك، تطارده الصور التى تتتابع أمامه ويحاول أن يمسك بها .. المرات الأخيرة التى كانت يجلس فيها مع جده وزاهية ومهران، تبدوا له كرؤى بعيدة، كأنها حلم قديم يحاول أن يتبينه فى لحظات مابين اليقظة والنوم . كان يقضى ليله مؤرقا وهو يتحرك فى الدار يتسمع أصوات أبيه وأخوته. يشحذ الذاكرة إلى ضحكة انطلقت مازال يتردد صداها بين تلك الجدران التى تكاد تنطبق عليه بينما. وهو مؤرق سمع صوتا خافتا يناديه كصوت مهران، آثار شجونه وهو يشعر بافتقاد هائل، لكن الصوت ظل يتردد فى عقله، حتى سمعه بوضوح، لم يستطع أن يكذب سمعه، فتح الباب ليتسمع ذلك الصوت، الذى بدا كما لو حملته اليه نسمة حنت عليه راثية لحاله، وبمجرد أن فتح الباب اندفعت كتلة تجاهه حتى أوقعته على الأرض . أغلق الباب سريعا . لم يصدق نفسه وهو يمسك بيده لينهضه. تعانقا طويلا .

– مهران !

ردد اسمه غير مصدق، ومهران يضع يده على فمه .

– هربت .

– كيف؟

– تعال الى الداخل، أين زاهية؟

– تعال أولا : إحك لى .

كان يريد أن يسمع منه قبل أن يفجعه بالخبر .

قال مهران : كنا نعمل في ساحة الحفر ، بعد إنصرافك جاءت مجموعة جديدة من الأنفار وهؤلاء كانوا من عسكر الجهادية، معظمهم فلاحون أمضوا فى الجهادية ثلاث سنوات، وقبل أن يسرحوهم ليعودوا إلى بلادهم جاءوا بهم ليعملوا فى الحفر، تعرفت عليهم وأنست اليهم، رجال بحق، معظمهم لم يروا أهاليهم منذ فترة طويلة، وكانوا يحسبون الأيام الباقية لهم ليعودوا إليهم، واذ بهم يأخذونهم قبل تسريحهم مساقين إلى ساحة الحفر فكانوا متبرمين ، إضافة الى أن العمل كان شاقا . حكى شخص منهم إسمه حلمى من مديرية المنوفية، قال انهم عندما أخذوه للجهادية لم يكن قد مضى على زواجه شهر ، وإنه لم ير زوجته طوال تلك المدة، ولا يعرف كيف تعيش الآن، وهل هى فى دار أسرته كما تركها أم عادت إلى دار أهلها؟ هل سيعود ليجد إبنا أم لا؟ وهل كفت زوجته عن التفكير فيه؟

قال إنه كاد يجن من التفكير وهو يحسب الأيام كي يعود لقريته، وإذ بهم يأتون به هو وزملاءه إلى الحفر قبل أن يعودوا إلي قراهم .

وكل منهم له حكاية . شخص آخر إسمه سالم من مديرية أسيوط ، قال إن والده توفى وترك له إخوة صغارا كان يعولهم ، ولايعرفون كيف يدبرون أمورهم الآن ، فأمه كانت تعتمد عليه فى زراعة بضعة قراريط تركها أبوه ، وليست لها دراية بشىء . وحكايات كثيرة حكاها آخرون.

رغم مشقة العمل كنا نجلس معا فى نهاية اليوم نتحدث أنا وجرجس إبن

عم بطرس ، وعثمان ، يحكي كل منا عن همه ، وأحيانا كنا نلتقي في حلقة ونغني نعم ياضاحي ، رغم الجوع والعطش والتعب ، كنا نسرى عن أنفسنا بالغناء ، تذكرتك ياضاحي وأنا أستمع إليهم . لكنه غناء ليس مثل تخت الشيخ عبدالله الشرقاوى ، بل غناء ملىء بلوعة الفراق .. فراق الأهل والأحبة والدار والقرية ، وظلم الزمان ، وأيضا أغاني العشق ، نعم يا ضاحي، ففي هذه الظروف يصبح للحياة مذاق.. هو تمسك بالحياة .

وأخيرا ضاقوا بالعمل ، رفض البعض منهم أن يعمل وحرضوا زملاءهم على الإمتناع عن العمل . قال سالم :

كفى ما لقيناه فى الجهادية .

إشتكى رئيس الأنفار لإسماعيل حمدى أثناء مروره فأمر بإحضارنا ، ثم أمر العسكر أن يجلدونا قائلا :

– كي يكونوا عبرة لغيرهم .

جمعونا على مرأى من الأنفار وأمرونا بخلع ملابسنا وهم يلوحون بالسياط وانهالوا علينا ولم يرحموا أحدا ، وبعد انصرافه تولى رؤساء الأنفار الجلد ، فاختطف حلمي السوط من رئيس الأنفار وانهال عليه ضرباً، ففعلنا مثله ، إنضم إلينا آخرون من عسكر الجهادية ، وأخذنا نضربهم ونضرب كل من يعترض طريقنا ، وانضم إلينا عدد من الأنفار عند هروبنا ، هؤلاء رجال بحق ، وقبل أن يأتى البوليس إنطلقنا هاربين بعيدا عن التمساح وطريق بلبيس وخضنا فى الصحراء . وسمعنا من بعيد صوت إطلاق البارود ، لم نكن نعرف طريقنا جيدا لكننا ظللنا نجرى دون أن نلتقط أنفاسنا . وقطعنا مسافة طويلة وسط الرمال ، إلى أن ظهر لنا فجأة شخص ملثم عند هروبنا ويحمل بارودة على كتفه . خفنا أن يكونوا قد لحقوا بنا . كان يتكلم هامساً وطلب منا أن نتبعه ، لكننا خفنا أن يشى بنا . ثم عاد وكرر بنفس اللهجة :

– لا تخافوا .

ولم يكن هناك وقت للتردد ، إذ سمعنا صوت إطلاق البارود عن قرب . قال الشخص الملثم :

– لن تستطيعوا الفرار ، ربما يلحقون بكم ، سأقودكم إلى مكان آمن . إقترب منه سالم وتحدث إليه . ثم طلب منا أن نتبعه ، فأسرعنا وراءه . ويبدو أن هذا الشخص الملثم كان على دراية بالمكان . طلب منا أن نسرع الخطى حتى قادنا إلى مكان فى الصحراء به صخور بارزة تتخللها تجاويف . أشار إلى تجويف واسع منها فتجمعنا كلنا فيه ، ثم جمع بعض الأشواك وغطى بها الجزء المكشوف منا وربض هو فى المقدمة ، ظللنا مختبئين فيها ونحن نسمع أصوات رجال البوليس عن قرب وصوت طلقات بارود فانكمشنا كلنا وحبسنا أنفاسنا ، ويبدو أن هناك من هربوا بعدنا أو هربوا معنا لكننا كنا أسرع منهم وكان رجال البوليس يطلقون عليهم البارود ، حتى إبتعدت الأصوات وانقطعت حاولت الخروج لكن سالم طلب منا أن نكون أكثر حرصا وألا نظهر ، كانت الليلة شديدة الظلمة وبلا قمر ، وبعد قليل سمعنا الرجل الملثم يهمس لنا أن نظهر . وقادنا فى اتجاه البحيرة لكن بعيدا عن الفرما ، وكان هناك مركب مخبأ وسط البوص فطلب منا أن نركب . لم أصدق نفسى أننى على مسافة قريبة منكم قلت آتى لرؤيتكم وليحدث بعدها مايحدث . فرفضت أن أركب معهم وهم يستعجلوننى ، لكن نفسى لم تطاوعنى . أشار لى الرجل الملثم أن أركب ، ولم أسمع حتى ماقاله ، إلى أن جاء سالم وجذبنى قائلا وهو يشير للرجل :

– ألم تسمع مايقول لك . ليس الآن ، الفرما مليئة برجال البوليس .

إتجه بالقارب نحو البوص . أتذكر ياضاحى ؟ بالقرب من المكان الذى كنا نختبىء فيه ، ثم قال لنا قبل أن يتركنا ويمضى :

– الأفضل ألا تصدروا أى حركة حتى نستطلع المكان ، جلسنا مكومين نكاد نحبس أنفاسنا ، لا نصدق أننا تركنا الحفر ، لكن ما كان يقلقنا هو افتراقنا بعد أن أنس كل منا للآخرين . تعاهدنا أن نلتقى فى يوم ما ، قلت لهم إنى سأكون

موجودا فى الفرما ، ويمكن معرفة مكانى بسهولة ، وأخذ كل منا يذكرنا بقريته .

قرب الفجر ، سمعنا صوت مجداف يضرب فى الماء يقترب منا ، إنكمشنا وحبسنا أنفاسنا ونحن نحاول أن نستطلع الأمر فى الظلمة ، إستطعنا أن نميز مجموعة من الرجال يستقلون قاربين ، وظللنا فى أماكننا خائفين أن يكون فى الأمر خدعة . حتى اقتربوا منا ، كانوا مجموعة من الرجال الملثمين ، بنفس الطريقة التى كان عليها الملثم الذى ساعدنا على الهرب ، وأحضروا معهم لفافة طعام ، كنا جائعين فالتهمناه ، سألناهم عمن يكونون ، ولماذا يفعلوا معنا ذلك ، قال أحدهم بنفس الصوت الهامس :

– ربما تعرفون ذلك يوما ما . ثم أضاف متمتما :

– وربما لاتعرفونه .

أشار إلى بعض الرجال الذين جاءوا معه قائلا :

– هؤلاء زملاء لكم ، كانوا يعملون فى الحفر مثلكم .

– تعرفنا إليهم ، قال لنا البعض إنهم صيادون أما الباقون فهم مثلنا هاربون من الحفر ، ولم يستطيعوا العودة إلى قراهم مثل زملاء لهم ، فنجح البعض فى الهرب ووقع آخرون فى قبضة رجال البوليس المنتشرين فى المراكز والقرى بحثا عن الأنفار الهاربين فعادوا ثانية ، وانضموا إلى رجال المنزلاوى ، وهو الرجل الملثم .

أثار حديث أولئك الرجال عن البوليس المنتشر فى كل مكان مخاوفنا ، لكن أنا وحلمى أصرينا على الذهاب رغم كل شىء ، وانضم إلينا جرجس وأمام إصرارنا قال أحدهم :

– دعوهم يذهبون ، ثم ألتفت إلينا قائلا : لكن لاتذهبوا الآن ، وتوخوا الحذر .

أوصى بنا الرجال الذين جاءوا معه ، قبل أن ينصرف أشار لى وهو يسحب القارب . ظننته يحتاج إلى مساعدة ، عندما إقتربت منه وضع يده على كتفى مربتا وقال بنفس الصوت الهامس :

– إذهب إلى ضاحى وكن معه .. انتبه فالبوليس منتشر فى الفرما .

أذهلتنى المفاجأة . وقبل أن أنتبه ،أسرع إلى المركب وهو يضرب بالمجداف حتى أنه بعد أن ابتعد . خيل لى للحظة أنه أبويا الفرماوى .. أبوك ياضاحى ، نعم ياضاحى كان لدى شعور قوى أنه هو .

أذهلت المفاجأة ضاحى .

– أمتأكد انه هو ؟

– نعم . عندما همس لى عن قرب ، لم أكن أتخيل ذلك .. لايمكن أن أكون مخطئا .

تعجبا مما يحدث وهما يدركان سر غيابه ، قال ضاحى :

– قالها جدى بنفسه .

– كنت أريد أن أراك وأرى زاهية ، لم أطق الانتظار . قلت :لابد أن أنصرف الآن .

قال ضاحى :

– معك حق ، فرجال البوليس ينتشرون فى الفرما ، حتى إننى تعجبت لمجيئك الآن .

اصطحبنا أحد الصيادين الذين كانوا معنا أنا وسالم وجرجس فجر اليوم التالى ، أوصلنا حلمى أولا ، وعندما اقتربنا من الفرما رأيت بعض الصيادين من معارفنا وساعدونا حتى دخلنا بيت عم بطرس وبقيت معهم حتى منتصف الليل ثم جئت .

حكى له ضاحى ماحدث بعد أن أخذ يمهد له ، حتى أن مهران أحس من لهجته حدوث مكروه ، لكن لم يكن يتخيل أبدا ماحدث لزاهية . بكيا معا . وصمم مهران أن يصل إليها حتى لو كانت فى آخر الدنيا . وطلب منه أن يذهبا على الفور للبحث عنها وإحضارها .

قال ضاحى :

- ننتظر فقط أياماً قليلة حتى يأتوا ولن يراها هذا المصيلحى ثانية ، أما إدريس فسيكون حسابه معى وهو والسعيد .

فجع مهران وشعر أن العالم يتهاوى به . ولم يكف عن البكاء بينما ضاحى يواسيه أحيانا وينخرط فى البكاء معه أحيانا أخرى . حتى بدأ نور الصباح يتسلل من الخارج ، وفوجىء بأمينة تقف أمامهما ، ربتت على مهران قائلة :

- إنهض .. تعالى معى .

- إلى أين ؟

أمسكت بيده وقادته إلى حجرة السيد القبوطى وأدخلته . أغلقت الباب ثم إتخذت جلستها أمامها طوال اليوم كما تعودت .

وعندما أوغل الليل تسلل عائدا إلى البحيرة بعد أن تواعد مع ضاحى أن يلحق به بمجرد عودة إدريس والسعيد والمصيلحى ومعرفة مكان زاهية .

الفصل الثانى والثلاثون

عاد إدريس والسعيد . سرى خبر وصولهم كحريق تؤججه الريح . فتحت أبواب الدور خرج الجميع من بيوتهم ورأى العسكر حركة غير عادية فأسرعوا نحوهم يلوحون بالسياط يأمرونهم بملازمة الدور . قالت لهم أمينة :

– اليوم عرس فى الفرما . أليس من حق أهلها أن يقيموا الأعراس أنا أم العريس ونحن ذاهبون لملاقاته ، وهؤلاء أهلى وجيرانى .

وقف العسكر أمامها حائرين ، وهى تقول :

دعوا الناس يخرجون من بيوتهم ويفرحوا .

وجد السعيد وإدريس أهل الفرما متجمعين ، تتصدرهم أمينة التى أسرعت إلى إدريس وأمسكت بتلابيبه .

– أين زاهية ؟

حاول أن يخلص يدها ، لكنها أخذت تهزه :

أين زاهية ؟

– زاهية بخير .

– أين هى ؟

– فى بيت زوجها فى رشيد .

أخذت تهزه بعنف :

– لماذا لم تأت معك كما أخذتها .

– هى فى بيت زوجها .

– من رجلها ؟ .. هل أعرفه ؟ ..

أخذت تدور بين الناس وهى تردد :

أنا لا أعرف زوج إبنتي .. إبنتى التى كانت فى حضنى لم تدخل بيت أخيها ، باعها . .أخوها باعها !

دفعت السعيد فى صدره وهى تواصل :

الرجال أصحاب الهمة والنخوة باعوا أختهم ..

قالت وهى تصرخ :

ماذا فعلتما بها ياخسيسان ؟ ماذا فعلتما بزاهية ؟ أين هى ؟

قال السعيد :

هى فى عصمة رجل وسيأتى بها لزيارتكم .

قال إدريس :

ألسنا أيضا أخويها ومسئولين عنها ؟ هل ذنبنا أننا زوجناها لرجل مقتدر له مقامه ؟ أم نرميها ونفرط فيها ؟ سترناها بدلا من تركها لهذا الصبى الذى كنتم تريدون تزويجها له ولم يكن على قدر كلمته ، وهاهو قد تركها ومضى ، أنتركها كالأرض البور لتكون مطمعا للغرباء الذين ملأوا الفرما ، أم نسترها ؟

– ومتى كنت مسئولا عنها ، حتى تكون رجل هذا البيت .. بعتها بجوال حبوب وقبضت الثمن .

توقف إدريس وهو يرمى ببصره مكان بيته ، إقترب منه وهو لايصدق عينيه حتى توقف أمامه .

– لن تقيم فى الفرما ما بعد اليوم ، ليس لك مكان بيننا .

أخذ يتوعد ويهدد أهل الفرما كلهم . إقتربت أمينة منه .

– تبكى على بيتك ولم تبك على أختك .

صفعته على وجهه ،وقبل أن يفيق كانت تنهال بيدها الأخرى على صدغه الآخر ، وأخذت تكيل له الضرب .

فأمسك بكلتى يديها :

– كفى .. إحمدى الله أنى وجدت رجلاً مثل المصيلحى يرضى بها ، لم تكن

تفعل شيئا سوى ترديد الخرافات التى يرددها جدها ، والتى ذهبت بعقلها .

أنشبت أظافرها فى وجهه :

مثلك لايقيم حرمه لأى شيء . تاجرت بنا كلنا ، ثم تتاجر بنا الآن فرداً فرداً.

توجهت إلى السعيد وهى تصفعه وتبصق عليه :

وأنت رضيت أن تتبعه كالكلب الأجرب .

أما عائشة ، فقد أفهمت زوجها أنها إنتقلت للإقامة فى البيت الكبير هى وأولادها ولن تعود إليه إلا إذا عادت زاهية .

عبثا حاول إقناعها أن تعود بالأولاد ، ولكنها رفضت قائلة :

لن أنتظر حتى أرى أولادى يباعون مثلما بعتما أختكما ، ولن آمن على أولادى معك .

أخذ يبكى ويستعطفها لكنها أصرت ألا تعود إلا إذا أعاد زاهية كما أخذها .

إندفع ضاحى نحو إدريس ولكمه فى وجهه فأمسك به إدريس وسدد له لكمة قوية جعلته يترنح فأمسك به الأهالى ، واندفع العسكر يلوحون بالسياط حتى فرقوهم وأمروا كلاً منهم بأن يلزم بيته .

ظل ضاحى ساهرا حتى أوغل الليل وأخذ القارب متجهاً جنوبى البحيرة ، أخذ يبحث عن مكان أمين يركنه فيه . ثم أخذ يخوض وسط البوص والهيش إلى ذلك المكان الذى يعرفه جيدا والذى أختبأ فيه من قبل مع شباب الفرما . نادى مهران فأجابه ، إقتاده إلى المكان الذى يختبيء فيه مع الرجال الآخرين وعرفه بهم . أخبره ضاحى بما حدث وقال له إنه قد عرف من إدريس والسعيد أنها موجودة فى بيت مصيلحى فى رشيد . ثم قال :

– نذهب على الفور فليس أمامنا وقت نضيعه .

طلب منه مهران الانتظار بعض الوقت، فقال له ضاحى :

– ولماذ ننتظر؟ يجب أن نذهب على الفور .

– ستعرف بعد قليل .

- ماذا هناك يامهران . أراك تضيع الوقت ، ألا يهمك أمر زاهية ؟ وأنت الذى كنت تستعجل الذهاب .

- أتقول لى هذا الكلام ؟ الله يسامحك ، ولكنك سترى .

- ماذا تخبىء يامهران ؟

- لا تتعجل الأمور .

حار ضاحى فى أمر مهران وعما يخفى وراءه .

بعد قليل سمع صوتا الهيش ورأى عيدان البوص تميل ثم ظهر رجل ملثم فانتفض ضاحى واقفا ، لم يتمالك ضاحى نفسه وأماط الرجل اللثام عن وجهه . ولم يكن ما توقعه كل منهما .

قال الرجل :

ستذهبان إلى المنزلة ومنها إلى دمياط ، يجب أن تصلوا فى صباح اليوم التالى ، فهناك مركب سيتجه إلى رشيد ، اسألا عن الحاج عبدالفتاح ، وقولا له إنكما من طرف المنزلاوى ، وسيتولى أمر سفركما إلى رشيد ، وهناك ستستدلان على بيت المصيلحى ، وستعودان ومعكما زاهية .

إنصرف الرجل على الفور ، دون أن يكشف لهم من هو ، ومن الذى أرسله إليهما ، إستقلا القارب التى سارت بهما بين البوص والهيش ، ورغم حيرة ضاحى فقد أثلج صدره أن أباه ربما يكون قريباً منهما ، وربما هو الذى أرسل إليهما هذا الرجل . نفس الإحساس الذى ساور مهران ، عندما تحدث إليه الرجل الملثم الذى ساعده على الهرب هو ورفاقه من عمال الحفر بأنه السيد القبوطى نفسه . قال مهران لضاحى أنه بعد إن عاد أخبره رفاقه أن ينتظر مجىء شخص ماقبل أن يغادرهم ثانية .

أخذا يتناوبان التجديف طوال الليل حتى وصلا إلى المنزلة فى الصباح الباكر وهناك تركا القارب مع أحد معارف السيد الفرماوى ثم اتجها نحو دمياط ، وصلا إلى الميناء وسألا فى الميناء عن الحاج عبدالفتاح ، وعرفا أنه صاحب المركب التي

ستبحر إلى رشيد ، كان مركبا كبيرا اتسع لكميات كبيرة من البضائع وأماكن للركاب . وعرفا أنه سيبحر فجر اليوم التالى .

جاءت أعداد من الركاب بأمتعتهم وكذلك عربات محملة بالبضائع ، قام المراكبية بتحويل البضائع إلى المركب ، ثم أبحر متجها إلى رشيد ، بمحاذاة الشاطىء الذى يبدو كشريط صغير من بعيد . وبعد إبحار يوم ونصف وصلا إلى رشيد .

كانا قد تعرفا على بعض الرشيدية أثناء سير المركب ، وسألا بحذر عن المصيلحى دياب ، وعلما أنه معروف فى رشيد ، وأنه متزوج من إثنتين ولديه أبناء كبار أكبر عمرا من زاهية ، ويقيم بالقرب من الميناء فى بيت كبير تقيم فيه إحدى زوجتيه ، ولم يشر أحد بشئ إلى زواجه الجديد . فهل هو البيت الذى تقيم فيه زاهية أم أنها تقيم فى البيت الآخر ؟وعندما رسى المركب فى رشيد نزلا مع بقية الركاب ، دون أن يثيرا تساؤلات بين الركاب فى حتى لا يلفتا الأنظار . سارا بعض خطوات وسمعا الشخص الذى سألاه يلحق بهما قائلا :

حظكما سيىء فقد سألت لكما عن المصيلحى لأخبره أنكما تسألان عنه وعرفت أنه أبحر إلى الفرما . لكن يمكن أن أدلكما على بيته .

سار معهما مسافة قصيرة بين بيوت رشيد الكبيرة الواسعة التى تختلف تماما عن بيوت الفرما ، فهى بيوت ضخمة ، يتألف معظمها من عدة طوابق وذات شبابيك واسعة وبوابات ضخمة .

أشار الرجل إلى بيت على مسيرة بضع خطوات من المرسى ويطل على البحر وقال : هذا هو بيته إذا أردتما التوجه إليه ، لكنه غير موجود الآن .

ثم حياهما ومضى .

كانا محظوظين لأنه غادر رشيد ، لكنهما حارا أى البيتين تقيم فيه زاهية ؟ حاولا معرفة ذلك فتوجها إلى مقهى قريب وجلسا فيه . كان هناك بعض الرجال جلس بعضهم فرادى ، أخذا يتجاذبان أطراف الحديث مع رجل كان يجلس وحده

ويبدو من هيئته أنه صياد . سألاه عن المصيلحى ، فأثارا فضوله بغرابة لهجتهما ، سألهما : من أين ؟

قال : نحن من معارفه بالفرما وقد جئنا إليه فوجدناه قد رحل .

تظاهرا بخيبة أملهما فقال الرجل : هو يذهب إلى الفرما كثيراً ويورد بضائع إلى هناك ويقال إنه يعمل مع الكومبانية .

قالها كمن يؤكد معلوماته .

قال ضاحى : نعم ، وهو معروف عندنا فى الفرما ، كما هو معروف هنا فى رشيد .

قال مهران : وقد تزوج بعروس جديدة من الفرما .

زال تحفظ الرجل وقال : نعم علمنا أنها فتاة صغيرة ، أصغر من أبنائه وقد أحضرها معه إلي بيت زوجته القديمة ، وتركها معها وذهب إلى الفرما .

حكى لهما عن أسرته التى تملك المراكب الكبيرة ويعمل أفرادها فى البحر أبا عن جد . كانوا صيادين ثم بنوا المراكب الكبيرة التى تبحر فى المالح وتذهب إلى بر الشام ولديه ثروة ضخمة ، وقد بدأ يعمل مع كومبانيه القنال ، فزادت ثروته . أخذ الرجل يسألهما عن الفرما وأهلها وهما يجاوبانه حتى استأذن فى الإنصراف ، نهضا بعده وتوجها إلى بيت المصيلحى القريب من الميناء ، بعد أن علموا أن زاهية تقيم فيه مع زوجته القديمة .

طرقا الباب ففتحت لهم جارية وسألتهما عما يريدان ، قال ضاحى : أنا شقيق زاهيه وهذا إبن عمى وقد جئنا لزيارتها . تركتهما عند الباب ، ودخلت ثم عادت بعد قليل وأدخلتهما إلى فناء بالدار وأشارت إلى أريكة خشبية فجلسا ثم تركتهم ودخلت .

جاءت سيدة بدينة وسلمت عليهما وهى تتفحصهما بنظراتها ، حيياها بأدب . قال ضاحى إنه شقيق زاهية وقد جاء لزيارتها ومعه إبن عمها .

قالت السيدة : المفروض أن تأتيا ورب الدار موجود فقد تركها أمانة ولا

تؤاخذاني فأنا لم أركما قبلا . لا أعرف سوى شقيقيها الكبيرين اللذين حضرا معها.

قال ضاحي : إدريس والسعيد حضرا نيابة عن الأسرة ولم أستطع الحضور وقتها ، وكان المفروض أن والدتي ستحضر معنا لكنها تأخرت في اللحظة الأخيرة لأن جدي بعافية ، وقد جئنا لرؤيتها والإطمئنان عليها .

- يبدو أن ذلك شغلها عن حضور عرس ابنتها ، فقد قلت لنفسي كيف لا تحضر عرسها وترى البيت الذي ستتزوج فيه إبنتها ، الذي هو بيتي ، أم أنها إطمأنت إلى مقدرة العريس واكتفت بذلك .

قال مهران : كل شيء قسمة ونصيب ، وهي كأم يصعب عليها فراق ابنتها .

لماذا تركتها تتزوج من رجل في عمر أبيها ، أبنائي أكبر منكما ، وهي مازالت صبية صغيرة ، أم ضاقت بها الفرما ؟

أمام هذا التعريض تمالكا رباطة جأشهما ، وقال ضاحي : لا لزوم لهذا الكلام الآن نحن نريد رؤية زاهية والاطمئنان علهيا .

قالت المرأة : هي لم تكف عن البكاء وتريد العودة إلى الفرما ، وتقول إنها لم تكن تريد أن تتزوجه وإنها تكرهه ، هل هذا يرضي ربنا أو يرضي أمها وأبيها ؟

إندفع الدم في رأسيهما وكرر طلب السماح برؤيتها .

كانت السيدة تبدو وكأنها تريد استدراجهما في الكلام للتأكد من أمر ما ، لكنهما توخيا الحرص في حديثهما خشية من أي سوء فهم .

إستدعت السيدة جارية وطلبت منها إخبار زاهيه أن تحضر لرؤية ضيوف من أهلها .

جاءت زاهيه مسرعة وهي تتعثر في خطواتها ، صرخت عندما رأت ضاحي ومهران وارتمت في أحضان ضاحي وهي تبكي قائلة : خذني يا ضاحي من هنا .. خذني يا ضاحي إلى الفرما ، سأموت لو بقيت هنا . أخذ يهدئها قائلا : سلمي على إبن عمك .

لم تقو على أن تمد يدها إلى مهران وازداد بكاءها .

– خذانى إلى الفرما ولا تتركانى .

كانت زوجة المصيلحى تجلس مكانها ترقبهم . قالت لضاحى : كما ترى ، منذ جاءت وهى لا تكف عن البكاء وتردد أنها تريد العودة إلى الفرما .

كانوا جميعا فى حالة يرثى لها ، أخذ ضاحى يهدئها وهو يربت عليها .

قالت المرأة : كفى يا زاهيه أنت الآن فى عصمة رجل وهو غير موجود ، يجب أن تراعى غيبته .

قالت وهى تصرخ : قلت له أن يأخذنى معه إلى الفرما ، توسلت إليه، لكنه رفض وتركنى .

– لا يمكنك الذهاب فى غيابه ، فهذا عيب .

قال ضاحى الذى لم يستطع الحديث معها صراحة فى وجود المرأة : إهدئى يا زاهيه سوف نبيت ليلتنا فى رشيد وسنأتى غدا لرؤيتك .

– أهكذا يا ضاحى ؟ أتتركنى ؟ وأنت يا مهران .

حاولا إفهامها بشكل ما ، لكنها كانت تصرخ ولا تريد أن تسمع حتى تدخلت المرأة قائلة : كفى يا زاهية، تركك الحاج أمانة ، أتتصورين أن بمقدورك أن تذهبى فى غيابه .

نهض ضاحى ومهران وأمسكت بها المرأة حتى ينصرفا ، قال لها ضاحى بأدب :

– إذا سمحت لنا بالمجىء غدا لرؤيتها قبل أن نذهب .

– والله لا أدرى ماذا أقول ، لا مانع ، لكن كما تريان فذلك سيجعلها تجن .

إنصرفا وقلباهما يكاد يمزقهما الألم مما حل بزاهيه التى أصبحت شديدة النحول والشحوب ، وعزما أن يأخذاها ولو بالقوة إذا استدعى الأمر . كان مقرراً أن المركب يبحر صباح اليوم التالى إلى دمياط ولابد أن يتدبرا الأمر .

ذهبا إلى المرسى وأكدا على الموعد وقضيا ليلة لم يغمض لهما فيها جفن ،

وهما يستعيدان الأحداث ويلعنان السعيد وإدريس ويتوعدانهما .

فى صباح اليوم التالى ، طرقا البيت مبكرا وفتحت لهما الخادمة ، وبعد قليل جاءت السيدة بصحبة زاهيه وأخبرتهما أنها منذ الأمس لم تكف عن البكاء والصراخ . كانت ملامح السيدة أكثر ليونة ورحبت بهما . قالت : لو كنت أملك من أمرها شيئا لتركتها ولكن الحاج أودعها أمانة .. الله يسامحه .

نظرت لهما نظرة ذات مغزى وهى تنهض قائلة : نسينا أن نقوم بالواجب . تركتهما إلى الداخل ، وفى ثوان قليلة كانوا يصطحبون زاهيه وهما يسرعان بها إلى المرسى .

الفصل الثالث والثلاثون

لم تكن زاهيه تملك سوى دموعها التي كانت تحاول أن تغالبها فتشعر بالاختناق وهى تكشف لضاحى ومهران خدعة السعيد وإدريس ، فبعد أن صعدت معهما إلى المركب وأبحرت بهم، رأت ذلك الرجل ، يربت عليها وهو يرحب بها ، شعرت بجسدها يقشعر ، أمسكت بإدريس لتنتحى به جانبا ورأت المركب تبتعد عن الفرما فى اتجاه آخر بعيداً عن اتجاه الكومبانية ، سألت إدريس : إلى أين نحن ذاهبون؟ لقد ابتعدنا عن الفرما .

قال لها : إسمعى يا زاهية ، مهران ذهب إلى حاله ، بعد أن عجز عن الوفاء بوعده لك بالزواج ، فهو معدم لا يملك شيئا ، وأنت تستحقين من هو أفضل منه .

– ماذا تقول يا إدريس هل نسيت أن أبى قرأ الفاتحة ، وحضرتها أنت والسعيد والشيخ محمد . هل تراجع موافقة أبى ؟

– هذا الكلام مضى عليه وقت طويل ولم يتم الزواج. مهران نفسه لم يعد له وجود ، وأنت لم تعودى فتاة صغيرة كما كنت . أصبحت فتاة كبيرة يتمناك الكثيرون .

– ماذا تقصد يا إدريس بالضبط ؟ وإلى أين نحن ذاهبون ؟

– لا أريد سوى أن أراك عروسا تزينين بيت زوجك .

– لا أريد سماع هذا الكلام . أريد العودة إلى الفرما .

– كيف ؟ المركب أبحر ، ونحن ذاهبون إلى رشيد لتتفسحى وترى الدنيا .

– لا أريد ذلك ، أنا أود العودة للفرما .

أخذت أبكى وأطلب العودة . فقال لى ستعودين ، لكنه بعد ذلك أخذ يكلمنى هو

والسعيد عن المصيلحي وكيف أنه رجل مقتدر يملك هذا المركب ومراكب أخرى ، ويسكن بيتا كبيرا كالقصر في رشيد ، وينثر المال بلا حساب . وكان هذا المصيلحي يأتي ويتحدث إليّ ، لكني لم أرتح لرؤيته أو حديثه معي ، حتى فاتحني إدريس قائلاً أنه يريد الزواج مني .

غلبتها دموعها وأخذت تنتحب وهي تردد : لم يرحمني هو أو إدريس ، وعندما رق السعيد لحالي نهره إدريس وتشاجرا معا ، كان يقول لي إن المصيلحي أحضر لي المجوهرات وسيأتي بالمزيد منها والثياب الغالية ، وسأنعم في العز معه .

كانت كلماتها متقطعة بينما ضاحي يربت عليها وهو يحاول أن يوقفها عن الكلام رحمة بها . لكنها كانت تحكي كمن تستعيد كابوسا مفزعا .

كان مهران في حالة يرثي لها وهو يستمع إليها . قال : كفي يا زاهيه ، سوف تنسين كل شئ وتعودين إلي جدك وجدتك وأمك . لن يستطيع أحد أن يمسك بسوء ولن ترى وجه هذا المصيلحي بعد اليوم .

كانا يحاولان إلهاءها عن الحكي وهما يحدثانها عن جدها الذي سترد إليه الروح برؤيتها ، وعن أمها وجدتها اللتين تنتظرانها بلهفة ، وعما فعله أهل الفرما ببيت إدريس وهجومهم على بيت المصيلحي .

بعد أن وصل المركب إلى دمياط ، طلبا منها أن تخفي وجهها ومضيا بها مسرعين باتجاه المنزلة ، حيث تركا القارب ليستقلاه إلى الفرما ، وتزودا بالطعام في طريقهم .

إتجها بالمركب إلى غابات البوص جنوبي البحيرة . ركنا القارب وخاضا في المياه الضحلة وهما يحملان زاهية ، حتى وصلا ذلك المكان الذي يعرفانه جيدا ، بقعة من الأرض وسط المياه الضحلة ينمو عليها البوص بكثافة ، شعر بهما الرجال رفاق مهران فتجمعوا حولهم ، وقاموا بمساعدتهم بتسوية مكان وفرشه بعيدان البوص بحيث أصبح مستويا ، ثم أحاطوه بالعيدان من كل جانب ، كي تستريح فيه زاهية .

حكى لها مهران عن هروبه من ساحة الحفر ، ولجوئه إلى البحيرة بصحبة هؤلاء الرجال ، وعن الرجل الملثم الذى ساعدهم على الهرب ، أفضى إليها هو وضاحى باعتقادهم أنه ربما يكون السيد القبوطي نفسه ، وإلا كيف عرف بما جرى وساعدهم على إحضارها من رشيد .

هتفت زاهيه : هل هو أبى .. حقا ، أين هو ؟ أريد أن أراه .

قال مهران : لا أحد منا يعرف مكانه ، وهؤلاء الرجال لا يعرفون عنه شيئا سوى أنه الرجل الملثم ، وأحيانا يدعونه المنزلاوى .

– ربما يكون هو فعلا ، وإلا إلى أين ذهب ؟ جدى يؤكد أنه لم يغادر الفرما ، وهو لابد أن يعود ثانية ، لا يمكن أن يتركنى هكذا .

كانت هى أيضا قد تسلل إليها شعور ضاحى ومهران بأن أباها يمكن أن يظهر لها فجأة ، استسلمت لهذا الإحساس وهى تجول بعينيها فى السماء المفتوحة أمامها ، بنفس شعور جدتها سكينة فى الليلة التى حبلت فيها بأمها أمينة ، وشعور جدها السيد الفرماوى خلال متابعته لتلك النقطة على خط الأفق .

لم يكفوا خلال الثلاثة أيام التى أمضوها متخفين فى غابات البوص عن الحديث عن السيد القبوطى ، ينتابهم إحساس ما أنه قد يظهر لهم فجأة . وخلال هذه الأيام الثلاثة كانوا يستطلعون أخبار الفرما ، حتى تأكدوا أن المصيلحى قد غادرها ، فقرر ضاحى أن يعود بزاهيه إلى الفرما . ودعهم مهران وهو يعد برؤيتهم فى أقرب فرصة . واستقلا القارب إلى الفرما .

ثار المصيلحى عندما رأى ما لحق ببيته ، وأخذ يتوعد أهل الفرما وأهل زاهيه بألا يروا ابنتهم بعد اليوم وسيجعلها تخدم فى بيته كالكلبة . قال ذلك لإدريس والسعيد ، وتشاجروا بسبب ذلك .

قال له إدريس : لقد هدم بيتى بسبب ما فعلته بأختى ، وإياك أن تنفذ تهديدك .

قال المصيلحى : إعتقدت أنكم آدميون بجد ، وكنت أنوى أن أحضرها لتقيم فى هذا البيت وتكون قريبة من أهلها ، لكننى تراجعت عما انتويت ، ولن يراها أحد بعد اليوم .

ذهب مصيلحى إلى السيد جيرار وحكي له ما حدث فقال له جيرار : لقد لقوا جزاء ما فعلوه ، أم تريد أن نسحب قوات البوليس الموجودة فى ساحات الحفر لتحرس لك بيتك .

غادر المصيلحى الفرما ساخطا فى الصباح . بعد ظهر ذلك اليوم دخل ضاحى وزاهيه المناخ ، ومنذ وطئت أقدامهما شاطىء الفرما تجمع الناس حولهما وساروا فى موكب حتى البيت ، كانوا يشعرون بما تعانيه زاهيه ، لم يثقلوا عليها بالكلام ولم يقولوا سوى كلمات الترحيب حتى وصلت إلى البيت، وارتمت فى أحضان أمها وجدها، وجدتها وانفجرت فى البكاء .

– خطفوك يا أميرة، لكنك عدت ثانية .

قال جدها وهو يحتضنها : ستنسين كل شىء وسيعود كل شىء أفضل مما كان .

– كيف يا جدى ؟

تلوذ بأحضانه وأحضان جدتها فيقول لها : كدت أموت فى غيابك يازاهيه . أحمد الله أنى رأيتك ثانية . كنت أخشى أن يوافينى الأجل دون أن أراك ، أحمد الله.

عادت زاهيه لكنها لم تكن كما كانت . انطفأت ابتسامتها ، واختفت ضحكتها ولم يعد لها سوى الدموع ، تسللت المرارة إلى حلقها ، ولم تعد الفرما بالنسبة لها كما كانت . وتزدرد الطعام بصعوبة . كانت أمينة تطعمها ، وتضع لها الطعام فى فمها كطفلة صغيرة ، فتدفعه بلسانها . وظلت صورة المصيلحى تطاردها فى صحوها ونومها ككابوس ، تصحو فزعة وهى تراه يهجم عليها كالوحش وتشق صرخاتها سكون البيت . لم يرحم دموعها وتوسلاتها ، يغرس أنيابه فى لحمها

ويغلق عليها باب الحجرة عندما يغادرها حتى أن زوجته نفسها التى استقبلتها متجهمة أشفقت لحالها ، دقت باب الحجرة مرة قائلة : حرام عليك يا مصيلحى البنت ستموت .. لا أدرى كيف تركها أهلها هكذا ؟

كانت هيئة أخويها اللذين حضرا معها لا توحى بأنهم أناس فقراء يرمون إبنتهم هكذا ، وكانت المرأة تتساءل كيف تركتها أمها وأبوها حتى دون أن يحضرا معها ، أم أن البنت يتيمة وإخوتها يريدون التخلص منها ، ويطمعون فى ثروة المصيلحى ؟

قبل أن يغادر المصيلحى رشيد أوصى زوجته بألا تغيب البنت عن عينيها ، فأخذت تسألها عن أهلها ، وعلمت منها ما حدث فازدادت إشفاقا عليها وقالت لها : لو كان الأمر بيدى لأخذتك إليهم لكننى أخشى غضبه . حتى جاء ضاحى ومهران ، فتأكدت بصورة ما أن الزواج تم بصورة غير طبيعية ، فأتاحت لهم فرصة الهرب، وهى تعلم ما سينالها منه، لكنها شرحت الأمر لأبنائها الرجال كى يساندوها فى مواجهة أبيهم .

رغم ذلك لم تسلم من ثورته وتجمع حولها أبناؤها ، وهم يقولون له : كيف بعد أن بلغ بك الكبر يقال إنك اختطفت صبية أصغر من أولادك فى غياب أهلها ، وعاشرتها بالقوة . وذلك يسبب لك فضيحة تهز مكانتك بين الناس وبين التجار الذين يتعاملون معك .

وأدرك المصيلحى أنه لن ينالها وهى فى حماية أهلها فى الفرما دون أن يريق ماء وجهه ، فصمم على الانتقام من إدريس والسعيد وهو يفكر فى أمر الشابين اللذين جاءا ليأخذاها ، ومن يكون إبن عمها هذا ؟ هو رجل غريب لو افترض أن أحدهما أخوها بحق ، لقد هربت مع رجل غريب ، لابد أنه ذلك الصياد الذى كان سيتزوجها . كان يحاول أن يتمالك نفسه بعد أن أفلتت الأمور من يديه ، وأخذ يفكر فى طريقة ينتقم بها لنفسه .

لم يعرف إدريس خبر هروب زاهيه وعودتها إلى الفرما إلا من المصيلحى نفسه

فقال له : لقد أخذناها إلى بيتك وسهلنا لك الأمور ، لكنك لم تصنها ، وحمد لله أنها عادت إلى أهلها .

قال المصيلحى : هى زوجتى شرعا وأستطيع استعادتها بالقوة ، لكنها فتاة سائبة فاجرة لم يربها رجل .. لتهرب مع رجل غريب .

- كفى عند هذا الحد يا مصيلحى ، فالبنت أصغر من أولادك ، وقد غررنا بها جميعا لأجل خاطرك ، وأنت فشلت فى ترويضها وكفى ما لاقته ، وقد عادت إلى الفرما مع أخيها أمام الناس كلهم .

- ومن يكون هذا الغريب الذى أخذها أخوها فى وجوده . لم تقل لى إن لك إبن عم . يأخذها له .. يأخذها لعشيقها .

- إخرس أيها البغل .. لقد تحملتك بما يكفى . إن نعلها أطهر منك . طلقها إن كنت رجلا حرا بحق فهى لا تريدك . وأى كلام ستقوله سينقص من قدرك فى نظر الناس .

انصرف إدريس بعد أن اشتعل الخلاف بينهما وكل منهما يتوعد الآخر . وبعيدا عن كل هذا ، كانت زاهية تجتر أحزانها وضاحى يكاد يتمزق حزنا عليها ولا يفارقها ، ويعتصره الألم ، ولا يدرى ماذا يفعل .

عاد الشبان الذين ذهبوا إلى الحفر بعد شهر أمضوه فى العمل المضنى تحت السياط يعانون من الهزال . عادوا بوجوه ممصوصة وعيدان هزيلة وقد نال المرض منهم ، ولم يمض وقت طويل فى تضميد جراحهم حتى جاء العسكر ليأخذوا دفعه جديدة ، تجددت معها أحزان الفرما . لم يعد مهران، فقد ظل هاربا ومطلوبا . كان يتسلل خلسة في الليل إلى بيت القبوطى لرؤية زاهيه والاطمئنان عليها ثم يعود متسللا . كانت صحتها تتدهور وقد أخذت تتقيأ حتى تبين أنها حامل . بكت زاهيه ، لكن أمينة أخذت تسرى عنها قائلة : إن المولود القادم هو إبنك وإبننا فلن يراه المصيلحى ، ولن يستطيع أن ينتزعه منك .

رغم كل شىء أظهر الجميع فرحتهم بالمولود القادم إبن زاهيه ، قال لها

ضاحى : سيكون إبنى وسيربى وسطنا ولن يعرف غير الفرما مثلما ربيت أنت ، كان يخشى أن يصل الخبر إلى المصيلحى وتتعرض زاهيه لأذاه بعد أن ركب رأسه ورفض أن يطلقها .

كان ضاحى يفكر فى الأحداث التى مرت عليهم خلال الشهور القليلة الماضية كأنها استغرقت عمرا طويلا ، تتزاحم صورها أمامه ، ويشعر بنفسه قد كبر كثيرا وأصبح هو المسئول عن الأسرة ، عن جده الذى تتدهور صحته يوما بعد يوم ، ومسئولا عن جدته وأمه وزاهية . لم يكن يغيب عنهم لحظة واحدة ، كل منهم يتطلب منه الوجود بجانبه . يداهمه ليل الفرما الطويل فيجافيه النوم . كل بيت مغلق على همه . الشبان الذين يساقون إلى ساحة الحفر مع مطلع كل شهر . تتجدد الأحزان ليس بذهابهم فقط ، وإنما أيضا بعودة من سبقوهم من الشبان ممصوصين مثقلين بالمرض والهرم ، حتى أخذت معظم البيوت تغلق وأخذ أهلها يغادرون الفرما دون أن تتاح الفرصة لبعضهم لتوديع الآخرين . ولولا هروب مهران لكان موجودا إلى جانبه ، ولخفف عنه الكثير .

ووسط ذلك ، كان صوت القصف والغناء يسمع آتيا من بيت كهرمانه التى استولت عليه من إدريس ، أصبح مأوى للغوازى والراقصات ورجال الكومبانيه الذين يتوافدون عليه مع قدوم الليل . يفكر فى أبيه الذى اختار طريقه ومضى فيه ، فقد أتى إلى الفرما بعد أن قضى عمرا فى التجوال وهو يحلم بالاستقرار والأسرة والذرية ، جمع حوله أهل الفرما الذين جاء معظمهم من أماكن شتى حول البحيرة . يفكر فى الأيام التى قضاها فى المحروسة ، والغناء الذى أحبه ، وتخت الشيخ عبد الله الشرقاوى الذى كان يقدمه للمستمعين فتتعالى صيحات الإعجاب ، وهو يؤدى الأدوار والتواشيح بقلب صاف لا يعرف الهموم . تبدو له كرؤى بعيدة والأنغام تتسرب إليه مع الكلمات التى يعجز عن النطق بها .

يأتى الليل فيتزاحم بتلك الصور والذكريات وهى تتتابع أمام عينيه تتسلل إليه

تلك الأنغام متخللة تلك المشاهد . ويسمع صوتا كأنه صدى لما يتردد فى أعماقه ، يتحرك من فراشه ويقف فى النافذة يتنسم نسمات محملة بالرطوبة يتخللها وشيش البحر . يتسرب الصوت إلى مسامعه ، يرهف السمع ويسمعه واضحا ، يهدهد حواسه .. يا إلهى هل يمكن أن يكون حقيقة ؟ يحاول أن يتبين مصدر الصوت ، من خيام الأنفار .. يغادر البيت ويمشى فى سكون الليل ، يزداد الصوت اقترابا ، وتخترق أذنه الكلمات .

ونسم يا هوا امبارح
وسلم لى على ناسى
وتكتب فى الجواب وتقول
دا كان يوم الفراق قاسى

يقترب من الخيام فى هدأة الليل ويرى مجموعة من الأنفار وقد التفوا فى حلقة . يقترب منهم ويقف أمامهم وهم يواصلون ، يفسحون له مكانا بينهم قائلين : ضم إلينا .

يجلس بينهم كالمنوم والغناء ينتقل بينهم من شخص إلى آخر فى الحلقة ، ينتهى الدور فيبدأ دور ، وتتتابع الأدوار ، يجلس بينهم بعض الشوام الذين ترك معظمهم العمل فى الحفر بعد قدوم المصريين وعملوا كتجار ، وكمستخدمين فى الكومبانية ، يغنى أحدهم :

يارايحين ع حلب حبى معكن راح
يا محملين العنب تحت العنب تفاح
كل حبيبه معه ونا حبيبى راح
يارب نسمة هوا يجى الحلو فيها

ويدور الغناء حتى يأتى الدور على ضاحى ، يتطلعون إليه ليكمل . يختنق بالكلمات ويحاول أن يسلك لها طريقا ، ثم يغنى مقطعا مثلهم :

مركب حبيبى م الغرب جايه

فارده قلوعها طية بطية
تعوم وتيجى على شبر ميه
فيها اللى احبه يسأل علىّ

ثم يغنى الــذى يليه فى الجلسة . تعرف بهم وتعرفوا عليه وانصرف قرب الفجر ، مواعداً إياهم أن يوافيهم فى الغد .

شعر بالدم يسرى فى أوصاله ويطرق رأسه . هو يعيش منوما كأنه فى حلم . هؤلاء الأنفار ، رغم كل ما يلاقونه من بأس وما يتهددهم من أخطار ، مازالت لهم قلوب تنبض وترسل الدماء فيتجسد فى نغم ، ينشدون من قراهم البعيدة التى تركوها .. يا إلهى .

الفصل الرابع والثلاثون

لم يدر السيد الفرماوى، وهو يجلس فى نفس المكان على المصطبة القبلية، ما يدور حوله من تغيرات . ولم يتابع ما يقوم به عمال الحفر وهم يلقون كل يوم بكميات من الرديم على شاطىء البحيرة ، وتلك القاطرات التى فى حجم عربات السمك التى يدفعونها بأيديهم على قضبان مثل القضبان التى تسير عليها قطارات السكك الحديدية التى تحمل مياه الشرب التى تأتى بها المراكب على شاطىء البحيرة إلى ساحة الحفر وتعود محملة بالرديم ، أو تلك الترعة التى تم حفرها من جنوبى المناخ إلى ساحات الحفر . إذ ضعف بصره وأصبح كل ما يحيط به مجرد ضجيج يثيره هؤلاء الذين جاءوا ليغرقوا الفرما ، حتى أنه لم يلحظ مع الوقت شاطىء البحيرة وهو يتباعد تدريجيا عن منزله ، أو هذه البيوت الخشبية التى أقيمت على عجالة بعد أن تمت تسوية الأرض وأحيطت بالكيب لمبيت عمال الحفر . معظمها بلا أبواب أو نوافذ ، بالإضافة إلى الخيام . لم ينتبه إلى مشهد البحيرة وهو يختفى تدريجيا وهو جالس فى نفس المكان . كان ينادى ضاحى أو سكينة ليطلب منهم أن يأخذوا بيده ليجلسوه على المصطبة القبلية أمام البحيرة .

يلح فى طلب زاهية حتى تأتى وتجلس بجواره ، يحيطها بذراعه ، فتجلس منكمشة بجواره ، وقد اختفت ضحكتها ، وكفت عن مشاكسته . وقد بدأت بطنها تنتفخ وهى مازالت لا تصدق ما حدث لها . تهرب بتفكيرها بعيدا عن تلك الذكرى المفزعة ، تنظر إلى بقايا جدران البيت الذى لم يكتمل بناؤه ، ويتردد صوت مهران وهو يعدها أن يكون بيتا جميلا يليق بأميرة التنيس . كان يعد لطلائه بلون البحر ،

وقد زين الجدران بالقواقع والأصداف التى جمعها هو وضاحى وظلا يصنعان منها تلك الأشكال البديعة . كل ذلك يبدو كذكرى بعيدة . ها هو الغبار قد طمسها ، وتصدعت الجدارن وتهاوت أثناء عمل عمال الحفر . تشعر بحركة الجنين فتمتد يدها لتحيط ببطنها . قالت لها عائشة إن تلك علامة طيبة على صحة الجنين . كانت تهتم بها ويطعامها، وقد التف حولها أولاد عائشة يسألونها عن الطفل القادم ، تماما مثلما كانت تفعل هى وضاحى عندما كانت عائشة حامل . كانت أمها تخشى عليها الخروج من باب الدار ، إذا مازلت تخشى أن يدبر لها المصيلحى مكيدة ، كما كانت تخشى عليها من السعيد وإدريس . لكن أمام إلحاح السيد الفرماوى كانت زاهية تخرج من الدار لتكون بجواره .

كان السيد الفرماوى ينادى مهران . عبثا كانوا يحاولون إقناعه بأن مهران غير موجود ، وهو يؤكد أنه كان لتوه يقف أمامه ، حتى أشار ذات مرة إلى ضاحى قائلا : لماذا تنكر نفسك منى يا ولد يا مهران ؟

– أنا ضاحى يا جدي .

– أتنكر نفسك ثانية يا ولد ؟ ضاحى فى المحروسة أم تظنني غافلا ، لا أدرى شيئا . يضطر ضاحى أن يكون مهران ، وقد تعودوا جميعا على ذلك . ثم لا يلبث أن ينتبه إليه قائلا : ضاحى ..

يفتح ذراعيه ويحتضنه : متى جئت ؟ قل لى ماذا فعلت فى المحروسة ؟ يازاهية .. ضاحى جاء .

كان عوض يجهل هروب أخيه ، ويمر على بيت القبوطى بين حين وآخر عله يسمع أخبارا عنه ، كان قد انتهز فرصة العمل مع الكومبانية للتسلل إلى ساحة الحفر وتسمع الأخبار . فقد رحل الأنفار الذين كانوا موجودين وجاء غيرهم ، وأصبح التفكير فى البحث عنه وسط الأنفار مستحيلا ، وبعيدا عن ساحة الحفر كان أيضا يتسقط الأخبار . أخذ يلوم نفسه لأنه تخلى عنه منذ كان صغيرا إرضاء للسعيد ولم يتشبث بوجوده معه ، وهاهى النهاية ، صحيح أن السيد

القبوطى أحاطه برعايته ، وكان يقيم مع السيد الفرماوى ، لكنه تخلى عنه على أى حال وكان يجب أن يكون فى رعايته . صمم على أن يبذل جهدا فى البحث عنه فى كل مكان وإذا وجده الآن يمكنه أن يتحدث إلى المسيو جيرار كى يعفو عنه ، كما فعل إدريس لأجل أخيه .

حاول قدر الإمكان أن يتخفى عن إدريس حتى تستقيم أموره وتقوى شوكته . وهو يستمد أسباب قوة إدريس فى العمل مع الكومبانية ، وهذا السعيد الذى تعود منذ صباه أن ينظر إليه بتعال رغم توصية أبيه ورغم أن العمل بالوكالة قد قام على أكتافه ، وفى النهاية يطرده بكل بساطة . كان خلال عمله مع السعيد وإدريس قد عرف طريق العمل مع الكومبانية واستطاع بدأب أن يصل للمسيو جيرار ، وأخذ يورد العمال من طائفة المعمار الذين تحتاجهم الكومبانية لإقامة المنشآت والأبنية والمنازل ، فضلا عن توريد الحرفيين والصناع .

أما إدريس فكان يبذل جهدا كبيرا كى يستطيع الحفاظ على مكانته لدى الكومبانية ، واتفق مع أصحاب مراكب آخرين من بينهم إبراهيم زوج أخته فاطمة الذى قام ببناء مركب جديد كبير . وعوضه ذلك عن الاستعانة بمراكب المصيلحى بعد أن احتدم الخلاف بينهما ، كان السعيد يعاونه وينتقل معه من مكان إلى آخر بعد أن استولت عائشة وأمه على الوكالة . ولم ينس إدريس أن يفى بوعده للمسيو فيليب فكان يحول البضائع والمياه إلى رأس الجسر بالجمال بعد أن تم تحسين المرسى الذى أقيم فى الفرما . أمر أخر لم يكن يتوقعه هو ظهور عوض الذى استطاع أن يتسلل إلى الكومبانية ويصل للمسيو جيرار . فقد طرده السعيد من الوكالة وهو لا يملك شيئا ، لكنه انتهز فرصة التوسعات التى كانت تقوم بها الكومبانية فى الفترة الأخيرة كى يورد لها الحرفيين الذين تحتاجهم فى هذه التوسعات ، وهو عمل لم يكن يتطلب أى قدر من المال كى يبدأ به عوض ، لكن سرعان ما در عليه الكثير .

كانت الكومبانية تريد الانتهاء من حفر الترعة البحرية من الفرما حتى رأس

الجسر فى أسرع وقت ، حتى أن الاحتفال الذى تقرر إقامته قد بدأ الاستعداد له، وتردد أن الوالى سيحضره بنفسه هو والمسيو دليسبس ، كما سيأتى الخواجات المشاركون فى الكومبانية وضيوفهم ، وكذلك النظار والوجهاء . فى نفس الوقت ازدادت أحوال العمال سوءاً يوما بعد يوم لقلة المياه ، فكان العمال يتساقطون فى ساحة الحفر ، رغم ذلك شددت الكومبانية على العمال فى العمل فقلت أوقات الراحة ، وأتوا بكلوبات لإضاءة ساحات الحفر ليلا وتواصل العمل ليل نهار ، وازداد توقيع عقوبات الجلد على العمال فى كل ساحات الحفر لاتهامهم بالتقصير ، فازداد سخط العمال وزادت حالات الهروب ، بعضهم كان ينجح فى الهروب والآخرون كانوا يعيدونهم ويجلدونهم بلا رحمة حتى مات عدد منهم بسبب ذلك .

كان ضاحى يرى كل ذلك ويتعجب كيف يستطيع هؤلاء العمال رغم كل ذلك أن يجدوا فسحه من الوقت يتجمعون فيها ويتعرفون على بعضهم البعض ويعقدون الضمة ليغنوا ، حرص أن يكون معهم حتى أن بعض رؤساء الأنفار إنضموا لهم، ومنهم بعض الشوام . فكانوا يغنون أغان من بلادهم عندما يأتى الدور عليهم فى الغناء ، واتسعت الضمة ، والغريب أن هؤلاء الذين استهواهم الاستماع إلى الغناء، كانوا يشاركون فيه عندما يأتى الدور عليهم فى الضمة .

شارك ضاحى بحماس، ورغم أن كثيرا من الأصوات لم تكن تصلح للمغنى، كان أصحابها يغنون بإحساس قوى يعبرون فيه عن لوعتهم لفراق الأهل والأحبة، كل منهم يغنى مقطعا من الغناء المنتشر فى بلدته ، أى أغنية يحفظها كأنه يستحضر بها قريته وأهله ووجوه من أحبهم ، كان غناءهم هو الزاد الذى يقتاتون به ويشعرهم برحابة العالم الذى أخذ يضيق عليهم فى الفرما .

كان يحكى ذلك لزاهيه فأثار اهتمامها . وأخذت تستمع إليه وهو يصف لها ما يحدث أثناء الغناء ويردد الكلمات التى يتغنون بها ، وهو يشرحها لها . كان الجد ينصت له فى نوبات الانتباه . قال له : تصور يا جدى أن بعضهم يرتجل الغناء

أيضا عن أحوالهم وما يلاقونه . ذكر له أن أحد الدمياطية فى قرية قرب دمياط تعود أن يزوروا مولد سيدى أبو المعاطى كل عام حتى أنه أسمى ابنه باسمه ، وعندما جاء عليه الدور فى الغناء قال :

يا أبو المعاطى أنا دخيلك

فى كل مولد باسعي واجيلك

بس السنة دى أنا مش فاضيلك

ضحك الموجودون خاصة عندما أخذ يردد لهم بعض الأغنيات التى تغنى فى مولد سيدى أبو المعاطى الذى يذهب إليه منذ أن كان صغيرا ، حتى أنهم أخذوا يرددونها عن الأولياء فى بلادهم .

وقتها كان السيد الفرماوى يستمع بانتباه ، حتى قال لضاحى ذات مرة : عندما تذهب هذا المساء خذنى معك يا ضاحى ، أريد أن أسمع غناءهم ، فهذا أمر عجيب ، مازال هؤلاء الناس الذين تذهب صحتهم وأعمارهم فى الحفر يحاولون أن يؤكدوا أنهم مازالوا يعيشون .

أما زاهية فكانت تستمع وتحاول أن تستوعب ويأخذها الحماس عندما ينجح ضاحى فى أن ينسيها أحزانها للحظات ، ثم تعود لتتذكر ما حدث كأنه كابوس تود لو تصحو منه . لكن كيف ؟ وهى تحمل فى أحشائها ثمرة تذكرها دائما بما حدث لها ويطاردها شبح مصيلحى فى صحوها ونومها وهو يرفض الطلاق . كانوا يخفون عنها ما يشيعه فى الفرما بين الهنجراوية أنها هربت مع عشيقها . فكانوا يستمعون له ، وهم يعلمون تماما ما جرى لها ، وهى بدورها لم تكن تغادر الدار وقد أخفت خبر حملها ، فرغم كل شئ كانت أمها وجدتها وعائشة يحطنها بالرعاية ، معبرا عن فرحتهن بالمولود القادم كى يشعرنها به ، بأمل أن تنشغل به عما حدث .

عندما كان مهران يتسلل ليلا ليطمئن عليها كان يجدها مستيقظة كما لو كانت تعرف موعده ، فيطمئنها قائلا : سيعود كل شئ كما كان يا زاهية ، وسيكبر

مولودك بيننا لا تنعى هما طالما كلنا بجوارك ، ولن تضعى مولودك إلا وستكونين قد طلقت من المصيلحى .

أخبر ضاحى مهران بأن أخاه عوض ظل يسأل دائما عنه كما لو كان يخمن أنهم يعرفون مخبأه ، حتى أشفق عليه ضاحى من طول البحث فأسر إليه بالأمر ، فقال مهران : حتى لو استطاع أن يجعلهم يطلقون سراحى فلن أعود الآن ، أنا الآن أأنس بصحبة هؤلاء الرجال كأننا أسرة واحدة . لا تتصور ما يقومون به من أعمال لمساعدة العمال على الهرب وتأمين طريقهم معرضين أنفسهم للأخطار ، وكل يوم يتزايد عددنا ، لأن بعضهم لم ينجحوا فى العودة إلى قراهم فعادوا ثانية وانضموا إلينا . حكايات كثيرة نسمعها منهم عن الأيام التى أمضوها هاربين يتنقلون من مكان لآخر هربا من البوليس ، واستطاعوا خلال تجوالهم أن يتعرفوا على أناس فى هذه القرى وأن يعقدوا صلات معهم ، كثير من هؤلاء الناس لهم أبناء ورجال عملوا ويعملون فى الحفر ، ساعدوهم على التسلل والاختفاء عن عيون العسكر والدرك .

لم يتخيل المصيلحى نفسه رغم وجود رجاله أن يستيقظ من نومه وسكين مشهر فى وجهه وشبح ملثم لم يستطع أن يتبين من يجثم على صدره ، التقط أنفاسه بمشقة بعد أن شعر أن روحه تسحب منه ، وكان هناك شخص آخر ملثم يحرس المكان وهو يحذره ألا يصدر أى صوت .

قال الشخص الذى يشهر السكين : بإمكانى أن أخلص عليك وأخلص زاهيه منك إلى الأبد أيها الخنزير وأجعلها ضمن ورثتك . وإذا لم تطلقها سوف أفعل ذلك، لكن قبلها سوف أميتك حيا وأغرق مراكبك ، كفى مالاقته منك ومن أفعالك المشينة . لو كنت رجلا حقا لما أبقيتها هكذا .. إياك أن تفتح فمك بكلمة أو تصدر أى صوت .

مرر حد السكين أمام وجهه ، ثم نهض قائلا : تطلقها من الغد ، وتخرس تماما عنها فلا تمسها بأى كلمة أيها الخنزير ، ولا تعتقد أنك ببعيد عنا مهما فعلت .

رأى المصيلحى الموت جاثما فوقه يقبض أنفاسه التى كان يحاول أن يلتقطها بمشقة ، لم يستطع أن يحرك ساكنا من فراشه كأن أى حركه ستقضى على البقيه منه ، وظل هكذا حتى الصباح ، حين جاء الخادم ليوقظه بعد أن طال نومه وجده مستلقيا فى فراشه وما زال الفزع مرتسما على وجهه حتى اعتقدوا أن شيئا ألم به ، كأنما حط فى شيخوخة طاعنة ، تحامل على نفسه ونهض متساندا عليه ، ولم يمض منتصف النهار حتى كان هناك من يطرق باب بيت القبوطى ليخبرهم أن المصيلحى طلق زاهية .

لأول مرة تشعر زاهية بكثير من الراحة لأنها تخلصت من مصيلحى للأبد ، لن يربى مولودها ، فهو إبنها وحدها الذى ستكرس حياتها له .

عم الهدوء المنزل ومن فيه . التقطوا أنفاسهم بعد طلاق زاهية ، أمضى ضاحى ليلته مع العمال يستمع إلى أغانيهم ويشاركهم الغناء ، واصطحب جده معه إلى الضمة رحب به العمال ، حتى أنهم بعد ذلك كانوا يسألون ضاحى عنه عندما يغيب .

وكان الكثيرون منهم يقعون مرضى نتيجة العمل الشاق وقلة المياه ونقص الطعام الذى يقيم أودهم بالكاد ، كان البعض منهم قد وهنت قواهم حتى هاجمهم المرض ولم يعودوا يقوون على العمل فى ساحات الحفر وقد انتشرت بينهم نوبات الاسهال والقئ . وما لبث أن تعالت الأصوات .. الوبا .

عشرات كانوا يتساقطون يوميا فى ساحات الحفر . جاء أطباء الكومبانية وأمروا بنقل الموتى بعيدا عن الصحراء . وصرخ العمال من أجل المياه ، حتى عجز رؤساء الأنفار فى السيطرة عليهم ، فهم أنفسهم كانوا خائفين . وزادت حالات الهروب كأنه الهروب من الجحيم . استشرى الوباء فى مساكن العمال والفرما ، انتاب الذعر الأهالى مما يحيط بهم ، أغلقوا البيوت واحتفظوا بكميات من المؤن . وكانوا يحذرون بعضهم البعض من الاقتراب من

مساكن العمال . كانت أمينة تخشى على ضاحى ذهابه يوميا إليهم وأخذت تستحلفه ألا يذهب ، ولم تكن فى حاجة إلى إلحاح ، فقد عم الحزن مساكن العمال لوفاة الكثيرين منهم .

كان العمل فى حفر الترعة البحرية قد أوشك على الانتهاء حين عاد العمال فى نهاية اليوم مجهدين ليتكدسوا داخل تلك البيوت ، وبعدها بقليل انطلقت صرخات مدوية : حريق .. حريق .

شاهدوا ألسنة اللهب وهى تتصاعد وتستشرى . خرج كل أهالى الفرما مفزوعين من منظر النيران التى تنتشر سريعا وهى تقترب من منازلهم ، وما لبث البعض من العمال ورجال الفرما أن أسرعوا ناحية البحيرة ليجلبوا المياه لإطفاء الحريق ، ويسابقون الوقت قبل أن تلتهم بقية مساكن العمال والأهالى ، أخرجت النساء كل الأوعية من المنازل لحمل المياه من البحيرة ، وخرج الشيوخ الكبار واقتادوهم بعيدا فى صحبة النساء والأطفال . وبعد ساعات تمكنوا من إخماد الحريق ، بعد أن أتى على معظم مساكن العمال إثر اندلاع شرر من موقد كان أحدهم يعد عليه طعاما .

لم ينتبه إلا القليل من أهالى الفرما إلى السيد الفرماوى الذى كان واقفا وسطهم يبكى وهو يصيح : يا سيد يا قبوطى .. أين أنت ؟ لم يصدقوا .. قلتها ولم يصدقوا .

الفصل الخامس والثلاثون

وضعت زاهية مولودتها يمنى . نسى الجميع ، أو تناسوا أحزانهم مع قدوم المولودة ، والتف الجميع حولها يتناوبون حملها ورعايتها هى وأمها ، أحاط أبناء عائشة بيمنى لا يكادون يفترقون عنها . وكانت مشاعر زاهية المتأرجحة بين مشاعر الأمومة الوليدة لديها خلال فترة الحمل وبين ذكرى ذلك الكابوس الذى يربطها بالمصيلحي قد جرفها فيض من مشاعر الأمومة التى ولدت مع طفلتها ، خاصة بعد أن طلقت منه . وعرف بيت القبوطى الفرح الذى غاب عنه منذ سنوات .

ظل مهران يأتى متسللا للاطمئنان على زاهية . عندما وضعت، حمل الوليدة بين يديه فرحا كأنها ابنته ، وهو يمنى نفسه وزاهية باجتماع شملهما . تعجب ضاحى خلال تردد مهران عليهم لأنه كان يحمل بارودة وقد أخفاها فى طيات ملابسه ، قال إنهم يساعدون العمال على النجاة بحياتهم بعد انتشار الوباء فى رأس الجسر والتمساح ، لأن كثيرا من الهاربين يجهلون مسالك الطرق ، وضلوا طريقهم فى الصحراء دون طعام أو ماء ، ولقى الكثيرون منهم حتفهم ، وهناك أناس كثيرون يساعدوننا ويمدوننا بالسلاح .

أتذكر حلمى الذى هرب معى من ساحة الحفر ، الذى حدثتك عنه قبلا ، لم يستطع العودة ودخول قريته وعاد إلينا ثانية بعد أن علم أن البوليس منتشر فى كل مكان ولم يستطع أن يعرف أى أخبار عن أسرته رغم أنه كان قريبا منهم ، خاف أن ينكشف أمره ، فعاد ثانية إلي الفرما وبقى معنا .

عادت زاهية للجلوس بجوار جدها وهى تحتضن طفلتها يمنى ، يحيط

بهم أولاد عائشة . كان السيد الفرماوى يحمل الوليدة بين يديه مثلما كان يفعل مع زاهية وهي وليدة ويضمها إليه ، ينسرب إليه الشعور بالحياة يوقظ مشاعره وتعود إليه لحظات الانتباه . يحكى لزاهية عن مولدها هى وضاحى ، وعن ارتباطه بها هو وسكينة ، ثم يحكى لها عن أبيها السيد القبوطى الذى لا تعرفه ، يحاول أن يجمع شتات الذاكرة ، يحكى لها عن المرة الأولى التى رآه فيها عندما جاء إلى الفرما ، وعن الأيام الثلاثة السابقة لمجيئه التى أمضاها جالسا أمام البحيرة . يحكى لها ما عرفه عنه وما رآه خلال اصطحابه له فى البحيرة والأماكن التى ترددا عليها ، وعن زيارتهم للمحروسة .. حكايات تسمعها منه لأول مرة ، غير تلك التى سمعتها منه هى وضاحى ومهران ، تتأمل المعنى ، تستمع بدهشة ، حكايات تدخل الرهبة والإجلال إلى قلبها ، ثم يعود ليخلط بينها وبين حكاياته القديمة عن مملكة التنيس الرابضة فى أعماق البحيرة وعن أميرتها الجميلة ، وعن بن سلام الذى وطأ الماء دون أن تبتل قدماه ، وعن بن إدريس هذا الذى اختفى فجأة كما ظهر فجأة . وحتى عندما كان جدها يفعل ذلك، كانت تستمع إليه بشغف ، وتحاول أن تتبين المعنى ، تتفتح أبواب ممالك شتى تجول بداخلها وتشاهد وهى تسمع ، كلها تبدو حقيقية ، ألم يحك لها عن اختطاف أميرة التنيس ؟

يجلس السيد الفرماوى على المصطبة القبلية صامتا مستغرقاً ، لا يشعر بمن حوله ، ثم يعلو صوته فجأة مناديا مهران ، يطلب منه أن يعّد القارب كى يخرجا للصيد وعندما لا يجيبه أحد يعلو صوته : يا مهران .. يا مهران ، هيا لقد تأخرنا.

يجيبه ضاحى : حاضر يابا الفرماوى ، المركب جاهزة .

– خذ بيدى يا ولد .. لماذا يهتز المركب ؟

يجيبه قائلا : أنا ممسك به جيدا ، مد قدمك لا تخش شيئا .

كانوا قد تعودوا على ذلك وهم ينظرون إليه . يكتم الأطفال ضحكاتهم وهو جالس على المصطبة يهتز ، ومهران يقود له القارب ، يظلل عينيه بيده

وهو يتلفت حوله .

– يا مهران .. من الذى يسير هناك عند المرسى ؟

– هذا عمى بطرس .

– لا ، هذا عمك همام .

– آه صحيح ، ظننته عمى بطرس .

– ها أنا أرى أفضل منك .

يصمت قليلا ثم يقول : أنظر .

– ماذا ؟

– انظر حولك جيدا يا ولد ، عجبا .. ألا ترى الشبار اللاتى تتراقص حول المركب .. ذيولها متحنية ، كأنها عرائس البحر ، تكاد تقفز فى المركب وتقول لك اصطادنى .. ماذا تنتظر ؟

أو يجلس ساهما أحيانا ، يحاول ضاحى أن يخرجه عن صمته ليتأكد أنه بخير ، فيقول له : ألم يحن أوان العودة يابا الفرماوى ؟

– هل إقتربنا من تل بن سلام ؟

– نعم يابا الفرماوى .

يشير بإصبعه قائلا : إركن القارب هناك ، وخذ بيدى .

يمسك ضاحى بيده وهو يغادر المركب ويهتز مع اهتزازه ، ويطلب منه أن يتجه به للمقام .

أو يصيح فجأة : يا مهران إشوى لنا سمكتين .

– الراكية جاهزة .

يميل على زاهية قائلا : الله على رائحة السمك المشوى .. آه لو كان ضاحى معنا الآن ، العفريت وحشنى . ذهب ليغنى فى المحروسة ونسى الفرما .

كانت زاهية تعود إلى أمها أمينة لتسألها تلك الأسئلة التى كانت تحيرها ، عما يقوله جدها عن أبيها ، مازلت أمينة تجلس على باب حجرة السيد القبوطى ،

ومازال الناس يترددون عليها . يذكرون السيد القبوطى، كلماته ومواقفه، يتحدثون مع بعضهم البعض كأنهم يتحدثون إليه ، كان وجودهم بجوار أمينة أمام حجرته كأنهم فى حضرته ، حتى الأنفار الذين سمعوا عنه ولم يروه ، كانوا كثيرا ما يتوقفون ، خاصة معارف ضاحى فى جلسة الضمة ، يستمعون إلى الأحاديث الدائرة ، وينظرون إلى أمينة فى إجلال ، تقترب منها زاهية والأسئلة تلوح على ملامحها . تتناول منها يمنى وتضمها إليها ، ثم تلتفت إليها قائلة : ستعرفين كل شئ .

تم الانتهاء من حفر الترعة البحرية من بحر الفرما حتى رأس الجسر . وأقيم إحتفال كبير فى الفرما حضره الوالى سعيد باشا قبل وفاته ، وأطلق اسمه على الفرما فصارت بورسعيد ، لكنها بالنسبة لأهلها ظلت كما هى .. الفرما . كما أطلقوا على التمساح الإسماعيلية. وبعدها بدأ العمل فى المنطقة الممتدة من رأس الجسر حتى التمساح . تم توجيه العمال إلى هذه المنطقة ، وكان العمل فيها أشق، نظرا لوعورة الأرض الصخرية ،.كان العمال يتساقطون من الإعياء ، ولم ترحمهم سياط إسماعيل حمدى الذى ظل يجوب ساحات الحفر على صهوة جواده محاطا برجاله ، يوقعون العقوبات على الأنفار ، ويتعقبون الهاربين منهم . ورغم حفر ترعة المياه العذبة حتى التمساح ، مازالت هناك صعوبة فى نقلها إلى تجمعات العمال البعيدة وتوفير الكميات اللازمة منها . ومع تفشى الوباء إنتشر الفزع بين العمال وهم يرون زملاء لهم يتساقطون كل يوم ، بينما هم عاجزون عن إسعافهم أو طلب النجدة من الكومبانية ، فازدادت حالات الهرب .

نقل الكثيرون من الهنجراوية نشاطهم إلى رأس الجسر والتمساح . وكان إدريس قد سبق إلى هناك منذ تعرفه على فيليب ومعه السعيد ، وكان نقل المؤن يتم عن طريق الترعة البحرية ، ومع تقدم العمل بنى إدريس بيتا فى التمساح ليقيم فيه . إشتدت المنافسة بين المتعاملين مع الكومبانية ، خاصة أن تقدم العمل قد جذب الكثيرين من مدن وبلدان أخرى كثيرة ، كان معظمهم قد انتقلوا للزقازيق

التى أصبحت همزة الوصل بين ساحات الحفر والوادى ، فوجئ بعوض الذى انتقل أيضا إلي هناك ، وكان يورد الحرفيين الذين تحتاج إليهم الكومبانية مع التوسع فى المباني والإنشاءات .

كان يتم جلب العمال بأعداد أكثر جدا من ذى قبل، من مختلف مديريات مصر يساقون كالعبيد مقيدين فى حراسة البوليس . كان العسكر يحيطون بالطريق على امتداده من الزقازيق إلى التمساح بينما تقطع قوافل العمال الطريق الذاهبين منهم والعائدين ، لم يكن العمال وحدهم الذين يقطعون الطريق ، فقد امتلأ أيضا بالباعة الجائلين ومقاولى الأنفار والسماسرة والموردين والحرفيين وطوائف المعمار.. ، طوفان من البشر ، حتى كأنه لم يعد أحد فى بر مصر إلا وقطع هذا الطريق.

أخذ الوباء ينتشر من رأس الجسر متسللا فى البداية إلى المناطق المحيطة بساحات الحفر ، وأخذت العدوى تتزايد ، إذ حملها العمال العائدون إلى القرى والمدن فى كافة أنحاء مصر . ولم يحد ذلك من جلب المزيد من العمال إلى ساحات الحفر . وصار الهروب يتم بأعداد كبيرة وفى جماعات . فانتشر رجال البوليس والخفراء فى كل مكان لتعقب الهاربين .

كان أهل الفرما يتناقلون أنباء الوباء الذى انتشر فى ساحات الحفر من رأس الجسر حتى التمساح ، وقد ظنوا أنهم بمنأى عنه بعد انتهاء الحفر فى الفرما وتناقص عدد العمال المتواجدين بها ، حتى بدأت تثير فزعهم جثث طافية للحيوانات النافقة التى يرمى بها الموج على شواطئ البحر والبحيرة . ورأوا الموت يداهمهم .

كانت تعليمات الكومبانية أن يبلغوا فورا عن حالات الوفاة . وكان وجود جثث المتوفين يساعد على تفشى الوباء ، فكانوا يأخذونها بعيدا إلى الجانب الآخر من ساحة الحفر فى الصحراء ، حيث يأمرونهم بحفر حفر عميقة وكبيرة فى الرمال ووضع الموتى فيه وتغطية الجثث بالجير الحى ثم ردمها ، كانت رائحة الموت تهب

على الفرما مما أصاب الناس بالذعر ، فبدأوا يهجرون البلدة . كانت عائشة تمنع أولادها من الخروج وتبخر المنزل بالشيح، كما كانت أمينة وسكينة تقومان بغلى الشيح وبعض الأعشاب والسوائل ليشربها الجميع ،خاصة زاهية التى انتابهم الخوف عليها وعلى وليدتها .

كان المشهد فى ساحة الحفر مفزعا . الهواء نفسه أصبح يحمل الموت للجميع. كانت هناك لجنة طبية قد حضرت من الخارج وأولت اهتمامها أولا للمسئولين ثم العمال ، ثم أخذت تجوب ساحة الحفر . لكن الموت الذى استشرى ، وهو يحصد المئات كل يوم ، كان أكبر بكثير من أى جهد يبذل للسيطرة عليه .

الفصل السادس والثلاثون

لم يكد مهران يعود إلى الفرما بعد انتهاء الحفر ويلتقط أنفاسه، حتى فوجئ بمجئ حلمي. لم يصدق أنه عاد بهذه السرعة ليراه كما تواعدا هما وبقية رفاقهما، إندفع نحوه يعانقه، لكنه أدرك منذ اللحظة الأولى أن هناك هما يثقل عليه، أدرك ذلك من معرفته به خلال تلك السنوات التى أمضياها معا وربطت بينهما صداقة قوية. كان مهران يعتبر حلمي وسليم من خيرة الرجال الذين التقى بهم.

حاول مهران دون أن يثقل على حلمي معرفة ما ألم به، وما أن سأله عن أهله حتى فوجئ بالدموع تتقاطر على خديه دون أن يستطيع إيقافها. أخذ مهران يهدئه، حتى استعاد تماسكه. وبعدها، أخذ يحكي ما حدث له.

قال له: عدت إلى أهلي بعد غيبة عشر سنوات عنهم، وعن القرية التى تربيت فيها وسط أهلها فأنكروني.

طرقت باب دارنا، بعد أن أخذت أتخيل طوال الطريق أن صبياً في التاسعة سيفتح لى الباب، فآخذه بين ذراعي، وأضمه إليّ وأنا أتطلع إلى ملامح وجهه التى تشبهني أو تشبه زينب، وأنتظر ماذا سيفعل عندما أقول له إننى أبوه، هل سيصدقني وتتهلل ملامحه ثم يرتمي في حضني؟ أم أنه لن يصدقني وسيسرع بالهرب من أمامي؟ كان ذلك ما استولى على فكرى طوال الطريق حتى دخلت القرية. لم أتوقف فى أى مكان من تلك الأماكن التى أحمل لها ذكرى فى نفسي، ، ولم أنظر فى أى وجه حتى لا يستوقفني وأسرعت نحو دارنا.

فتحت لى الباب إمرأة شابة لا أعرفها يحيط بها أطفال صغار، سألتها: أليست هذه دار أحمد نصر؟ أو مأت برأسها ونادت زوجها : كان أخي الأصغر

حسان. لم يتعرف عليّ، لكنني عرفته على الفور رغم أنني تركته على عتبة الشباب، قلت له: أنا حلمي .. أخوك، توقف للحظة قبل أن يندفع إلى حضني وهو يربت عليّ، سألته عن أمي وأبي، فأخبرني أن أبي توفي بعد رحيلي بشهور قليلة، وأمي توفيت قبل سنتين ، كانت يراودها الأمل أن أكون على قيد الحياة، لكنهم يئسوا من عودتي بعد إنتهاء مدة الجهادية، وانتهاء مدة الحفر، وبعد مرور سنوات طويلة دون سماع خبر عني، فاحتسبوني عند الله.

سألته عن زينب، لكنه لم يجب، وأطرق صامتا، ولما ألححت بالسؤال، غير موضوع الحديث ، ونهض واقفا قال وهو يسرع مهرولا: سأنادي إخوتي.

جاءوا متدافعين نحوي وأبناؤهم حولهم حتى إمتلأت باحة الدار، وأنا أفتح ذراعي .. عبد الرازق وحسنين وستيته وحسنة، وأخذت أعانقهم، وحسنة تقبلني وقد سالت دموعها وتقول : أحمد الله أنك مازلت حيا، أخيرا عدت لنا .

أخذت أنظر في وجوه الأولاد، ولا أعرف معظمهم. سألت عن زينب زوجتي، صمتوا جميعاً وأخذت حسنة تربت عليّ من بين دموعها .

أخذت أتلفت حولي على أراها وسطهم. سألتهم: أين زينب؟ هل تقيم في بيت أهلها؟ أم ماذا جرى لها؟

أخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض، قال حسان: لابد أن يعرف.

جلس بجواري قائلا: إعتقدنا أنك في ذمة الله، وجاء أهلها وأخذوها هي وابنها.

– ماذا؟! إبنها.. إبني .. هل هو ..؟

– نعم إبنك.

– أريد أن أراه أين هو، أنا ذاهب إليه.

قالت حسنة وهي تحاول إيقاف دموعها : زينب تزوجت بآخر.

– زوجتي تتزوج بآخر .. كيف؟

تقد م عبد الرازق متجهم الوجه وقال لهم: كفى. أشار لهم أن يتبعوه، وطلب مني أن أبقى حيث أنا، وآنتحى بهم جانبا.

سمعت حوارامحتدما ثم حسنة تنفجر باكية: لا، حرام عليكم.

لحق بها حسنين وهو يحاول تهدئتها، ويطلب من عبد الرازق ألا يتسرع .
ويعلو صوت عبد الرازق صائحا: من يدرينا أنه حلمي؟ لا الهيئة هيئة حلمى، ولا اللهجة لهجته.

صدمتني كلماته وشعرت بالدنيا تدور بى. تعالى صياحهم فى وقت واحد بين مصدق ومكذب ولم أدرك حتى تلك اللحظة أن شكلى قد تغير إلى هذا الحد. وأخذت أقول لهم : أنا حلمي ألا تعرفون أخاكم؟

قال عبد الرازق: لو كنت حلمى بجد، أين كنت طوال هذه السنوات؟ لماذا تركت إبنك؟ هذا لو كنت أبوه حقا!

حكيت لهم عما حدث بعد أن أنهيت الجهادية، وهروبى من الحفر ومحاولتى للعودة، وانضمامى إلى الرجال فى البحيرة . إستمعوا إلىّ فى إهتمام وساد صمت، وهم يستمعون، صدقت حسنة وحسان ما حكيته وبانت الحيرة فى نظرات ستيته وهى تتطلع إليهم، حتى قطع حسنين الصمت قائلا: وأين كان رجال البوليس والدرك وانتم تفعلون ذلك؟ فهم لا يتركون أحداً يمر من قرية إلى أخرى بسلام، فما بال ساحات الحفر؟

قال عبد الرازق: ألم أقل لكم، لا يمكن أن يكون هذا حلمى. حلمى مات من زمن، وزوجته تزوجت بآخر.

كان الخبر قد انتشر في القرية وتجمع الناس حولنا واستمعوا إلى ما جرى، وهم يتفحصوننى بين مكذب ومصدق، أخذوا يسألوننى عن السنوات التى أمضيتها بعيداً، وعما فعلته خلالها، ويسألوننى عن بعض الأحداث التى جرت فى القرية قبل أن أغادرها، وأنا أجيب على تساؤلاتهم، وأزيد فى ذكر بعض الوقائع. أحكى عن أبى وأمى وعن بعض أقربائنا، وكنت أفاجأ ببعضهم حولى. لم أستطع أن أتعرف على معظمهم، أحكى عن الأحداث التى وقعت ونحن صغار. بدأ البعض يغيرون موقفهم ويتعاطفون معى.

لكن حسنين قال: أتصدقون هذا الكلام، إذا كان لم يتعرف على أقاربه ومنهم

أبناء أعمامه، فكيف يكون هو حلمى؟

رددت عليه بأننى مكثت عشر سنوات مغتربا وقد كبرنا جميعا وتغيرت هيئاتنا، وأنهم أيضاً قد التبس عليهم الأمر ولم يتعرفوا على.

قال عبد الرازق: من يدرينا ؟ ربما كنت مع حلمى فى الجهادية أو الحفر قبل وفاته ، واستمعت منه إلى كل تلك الحكايات عنا وعن القرية، وانتهزت الفرصة وجئت لتستولى على ميراث أخينا.

قالت حسنة: كفى يا عبد الرازق، لقد جرت على نصيبنا فى الميراث، والآن تنكر أخاك حتى تستولى على ميراثه.

قلت لهم إننى لا أريد شيئا من الميراث، كل ما أطلبه هو ابنى، الذى ولد وكبر وأنا بعيد عنه .

إنضمت ستيته إلى حسنة فى حديثها عن الميراث، لكنها كانت متشككة فى أمرى ولم تعرف كيف تحسم رأيها.

رفضوا أن أبيت فى الدار فافترشت المصطبة بجوار الباب. وسرى الخبر فى كل مكان فى القرية، فتوافد الناس علىّ ، كل منهم يحاول بطريقته التأكد مما أقول وهم يقارعون بعضهم البعض الحجج أمامى، طلبت رؤية زينب وإبنى فتطوع البعض بالذهاب إلي زينب، لكنها خافت علي الولد منى ، فطلبت رؤيتها ربما تتعرف علىّ بنفسها وتجعلنى أراه . استهجن البعض الفكرة، قالوا إنها فى عصمة رجل وهى مسئولة منه، وأيد أخرون رأيى. أخيرا حسموا الأمر بالاستعانه بشيخ القرية وإمام الجامع فى نفس الوقت، قلت لهم: أهو الشيخ مسعود؟ وكان هو فعلا، وأكد ذلك للبعض صدق روايتى . لكن عندما جاء فى جمع من الناس بعد صلاة العشاء، لم أستطع أن أميزه بينهم فقد طعن فى السن، فعادوا يتشككون. أفتى الشيخ مسعود بأن زينب عليها أن تختار بينى وبين زوجها الذى تزوجته فى غيابى، وعندما قال عبد الرازق إننى لست حلمى، أضاف الشيخ مسعود قائلا: هذا لو كان هو فعلا حلمى.

أرسلوا فى طلبها، جاء زوجها معها وهو يبرطم ويسب. وكاد يتهجم على، لكن

الناس أمسكوا به، وزينب تردد عن بعد: لا، ليس هو. حتى أن البعض طلب منها أن تقترب منى وتنظر فى وجهى جيداً، لكنها أخذت تدفع بيديها وتردد: ليس هو .. ليس هو .

أخذت أذكرها بأحاديث دارت بيننا، ووقائع عشناها معا، بيوم عرسنا، وما جرى فيه.

جذبها زوجها وهو يردد : كفى ، هيا بنا، ثم التفت إلىّ قائلا، إياك أن تتعرض لها .

قلت له: أنا لا أريدها، ولا أنوى أن أنازعك عليها، لكننى أريد إبنى الذى فى دارك .

سبعة أيام مكثتها على المصطبة بجوار باب الدار وأهل القرية يتجمعون حولى، كل يوم نعيد ما قلناه ونزيد، دون أن أتمكن من رؤية ابنى، وكما علمت فقد حبست زينب نفسها وإبنى وأولادها الآخرين داخل الدار خشية أن أنتزعه منها، كل هذا وأنا أطفح بالمرارة، حتى بدأوا ينفضون من حولى . وأرسل العمدة في طلبى بعد أن اشتكوا له فهددنى إن لم أغادر القرية فلن يعرف لى أحد مكاناً .

خاتمة

لا يكاد مهران يصدق أنه قد عاد إلى الفرما، وأنه لن يفترق عن زاهية ثانية بعد أن اجتمع شملهما منذ انتهاء العمل فى الحفر، يعمران بيت الجد. يجلس على المصطبة القبلية .. فى نفس المكان الذى كان يجلس فيه الجد وهو يحتضن الصغيرة يمنى، تماما مثلما كان يفعل الجد مع زاهية وهى صغيرة. كل شئ حوله تغير، لم تعد الفرما هى الفرما التى جاءها طفلا وعاش وكبر فيها، بل أصبحت بورسعيد ، حتى وهو يجلس فى مكانه على المصطبة لا يستطيع أن يرى سوى جزء من البحيرة التى تباعدت عن المنزل، وازدحمت المسافة حتى الشاطئ بالبيوت.

كان البيت الذى شرع فى بنائه ليقيم فيه هو وزاهية عندما يتزوجان قد تهدم قبل أن يكتمل، أثناء مد القضبان الحديدية التى تسير عليها العربات الحديدية التى كان العمال يدفعونها عليها لحمل الرديم إلى البحيرة وتحويل المياه. وعندما عاد ثانية وتزوجا، وعدها أن يبنى لها بيتا جديدا على شاطئ البحيرة أجمل من الأول، لكنها أصرت أن يقيما فى بيت الجد حتى تكون بالقرب من أمها أمينة فى البيت الكبير، بعد أن نال منها الكبر وما لقيته من هموم، ومازالت تجلس أمام حجرة السيد القبوطى، تحيط بها عائشة وأبناؤها، بعد وفاة الجد الذى لم يحتمل الوباء، فمات على الفور، ولم تمض أيام حتى لحقت به سكينة.

أما ضاحى، فقد انطلق محلقا فى عالم المغنى بزاد وفير من الأغانى التى كان يتغنى بها عمال السخرة فى جلسات الضمة. جاء إلى الفرما عدد من العمال الذين عملوا فى الحفر مصطحبين أسرهم معهم ليقيموا فيها، ومازالوا يتغنون

بتلك الأغاني والأدوار التى رددوها مع زملائهم ، وكل دور من الأغنية يحمل بصمة القرية أو موطن المغنى الذى رددها فى جلسة الضمة، فجمعت هذه الأدوار ملامح بر مصر. كانوا يغنون تلك الأغاني ليست كأدوار مقسمة كما كانوا بل يغنون الأدوار كأغنية واحدة . ينتهزون فرص الموالد والأعياد وحفلات العرس أو أى مناسبة سارة ليعقدوا الضمة ويغنوا تلك الأغاني التى حفظوها عن زملائهم أو شاركوهم فيها، قد يثير دور من الأغنية لديهم ذكريات عن المناسبة التى قيلت فيها، والطريقة التى قيلت بها، ومن تغنى بها أو إشارة إلى البلدة أو القرية التى جاء منها.

كان ضاحي خلال تجواله يردد هذه الأغاني، ويرددها مع الأدوار القديمة والتواشيح والطقاطيق التى حفظها عن الشيخ عبد الله الشرقاوى. كان أحيانا ما يمزج بينهما، يحكى لمهران وزاهية عن الحماس الذى يستقبل به الناس هذه الأغاني التى أثارت دهشتهم وإعجابهم .. فكانوا يلتفون حوله بعد انتهائه من الغناء ويسألونه عمن نظم هذه الكلمات أو عمن حفظها عنه، فيحكى لهم كيف كان يتغنى بها العمال فى السخرة. تزداد دهشتهم وإعجابهم. كيف كان العمال فى السخرة يتغنون بتلك الكلمات رغم كل الظروف القاسية التى عاشوها؟

تتزاحم الصور والذكريات، يجلس مهران على المصطبة القبلية، ويتذكر تلك الأيام التى أمضاها مع رفاقه متنقلا بين جزر البحيرة وشواطئها وغابة البوص والصحراء المحيطة بالفرما، وهم يقتادون العمال الهاربين ويؤمنون طريقهم، ويعبرون بهم البحيرة ويدلونهم على مسالك الصحراء، وقد تسلحوا بالبنادق التى كان يمدهم بها أتباع الرجل الملثم . بعضهم كانوا من عسكر الجهادية وعلى دراية بالأسلحة، وهم الذين دربوهم على استخدام البنادق. وهذا الرجل الملثم الذى كانوا يشعرون أنه قريب منهم دائما، رغم أنهم لم يكونوا يرونه إلا نادرا، يبدو على دراية كبيرة بالبحيرة وشواطئها والقرى المحيطة بها ، دائما ما كان يظهر لهم فى الوقت المناسب ليخرجهم من مأزق أو ورطة، أو يمد لهم يد العون، مما كان يبعث الطمأنينة فى نفوسهم . قلبه يحدثه أحياناً أنه السيد القبوطى نفسه، لكنه لا

يستطيع أن يجزم بذلك.

أمينة مازالت تؤكد لهم أن السيد القبوطي لم يغادر الفرما وأنه لابد آت، حتى أنهم لكثرة ما رددت ذلك أصبحوا يترقبون اللحظة التى يقبل عليهم فيها، وزاهية تجزم بذلك مؤمنة على كلام أمها.

تجرى الصغيرة يمنى نحوها فتضمها إليها، تداعبها وتتأمل ملامحها، تجلسها فى حجرها. تتطلع يمنى إلى أمها وتقول لها فى كلمات متكسرة: إحك لى حكاية الأميرة .

« تمت »

رقم الايداع : ١٣١٥٤ / ٢٠٠٤
I.S.B-N
977-07-1051-2

أحـــدث إصـــدارات روايات الهـــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٥٥	النـــول	محمد ديب	يوليه ٢٠٠٣	٦,٠٠
٦٥٦	خيال الظل	جورج سيمينون	أغسطس ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥٧	أوراق العائلة	محمد البساطى	سبتمبر ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥٨	شارع مصنع النسيج	صفوت عبدالمجيد	أكتوبر ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥٩	المصرى	محمد أنقار	نوفمبر ٢٠٠٣	٦,٠٠
٦٦٠	حياة وزمن مايكل	ج . م كوتسى	ديسمبر ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٦١	ما علينا	زياد عبدالفتاح	يناير ٢٠٠٤	٥,٠٠
٦٦٢	قصر الأفراح	محمد عبدالسلام العمرى	فبراير ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٦٣	سوق هرج	عائد خصباك	مارس ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٦٤	الساعات	مايكل كننجهام	إبريل ٢٠٠٤	٧,٠٠
٦٦٥	نوافذ النوافذ	جمال الغيطانى	مايو ٢٠٠٤	٥,٠٠
٦٦٦	صنعاء.. الوجه الآخر	د. إبراهيم اسحاق	يونيه ٢٠٠٤	٦,٠٠

هذه الرواية

لم يدر السيد الفرماوى وهو يقطع رحلة الذاكرة، كيف انسربت منه الحكايات إلى حفيدته زاهية، وهو يحكى لها عن أبيها السيد القبوطى، والمرة الأولى التى رآه فيها، والأحداث التى سبقت مجيئه حتى اختفائه الذى هز أرجاء الفرما ، كما كان يحكى لها عن مملكة التنيس الرابضة فى أعماق البحيرة وعن أميرتها الجميلة.

يستعيد بتلك الحكايات على الطوفان الذى داهم الفرما مع مجئ رجال الكومبانية وحفر الترعة وما صاحبها من أحداث.

هل تجيب تلك الحكايات عن تساؤلات زاهية، وما شاهدته وما تعرضت له من أحداث؟

هذا ما تحاول الرواية أن تطرحه من تساؤلات حول تلك الفترة التى شهدت حفر قناة السويس وتلقى بظلالها حول هؤلاء الناس الذين شهدوا أحداثها .. وعن هوية هؤلاء العمال الذين دفعوا حياتهم ثمنا لحفر قناة السويس وأيضا من قبضوا الثمن.

ترى كيف ستحكى زاهية تلك الحكايات إلى ابنتها يمنى؟



سهام بيومى

- تعمل صحفية بجريدة الجمهورية منذ منتصف السبعينات.
- بدأت نشر أعمالها الأدبية منذ عام ١٩٧٩.
- نشرت قصصا قصيرة في المجلات الأدبية داخل مصر وخارجها.
- لها دراسات ميدانية عن بعض احياء القاهرة منها دراسة عن شارع قصر النيل تحولت إلي فيلم تسجيلي.
- تكتب قصصا للأطفال.
- لها دراسة عن مدينة بورسعيد نشرت أجزاء منها في بعض المجلات.
- ترجمت بعض قصصها القصيرة إلي الانجليزية والألمانية كما ترجمت فصول من رواياتها إلي الفرنسية.
- صدرت لها مجموعة قصصية بعنوان الخيل والليل عن دار المستقبل العربي (١٩٨٦) ورواية خرائط للموج عن دار الهلال ١٩٩٧.

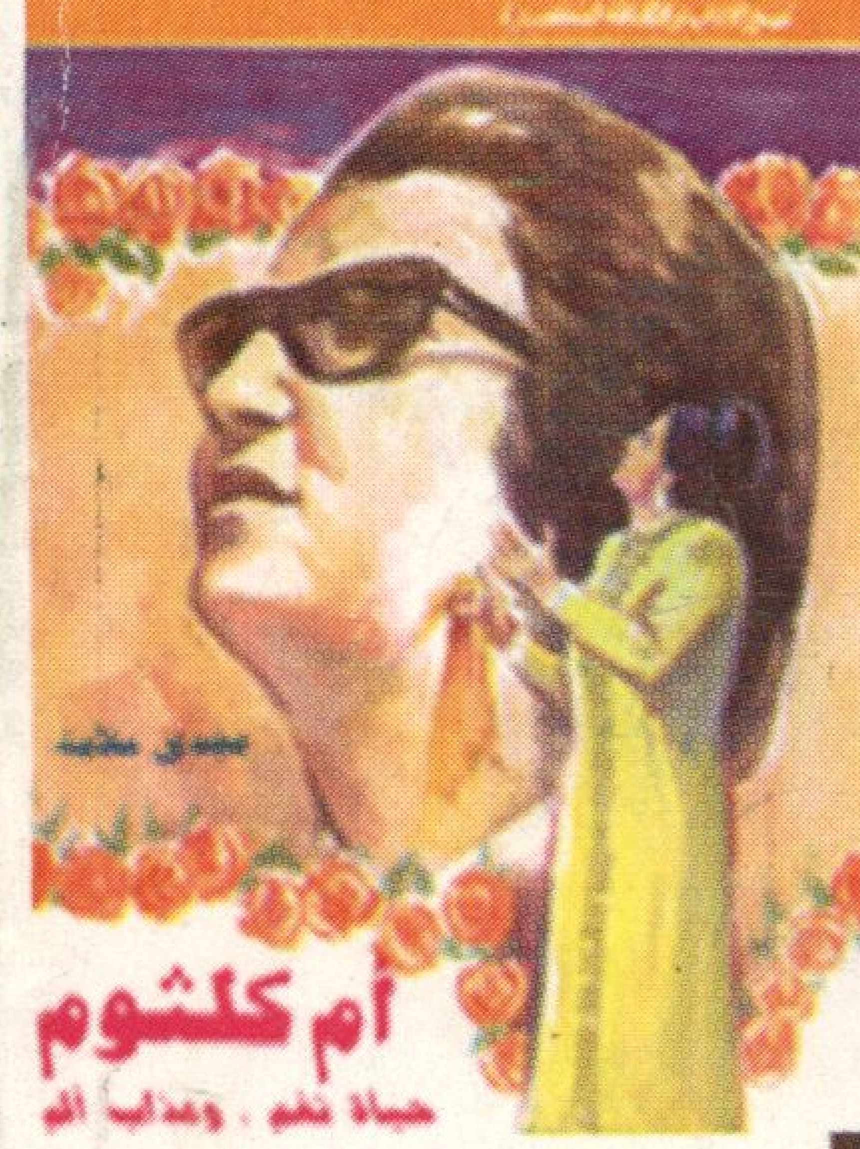
روايات الهلال تقدم

ربيع حار
(رحلة الصبر والصبار)

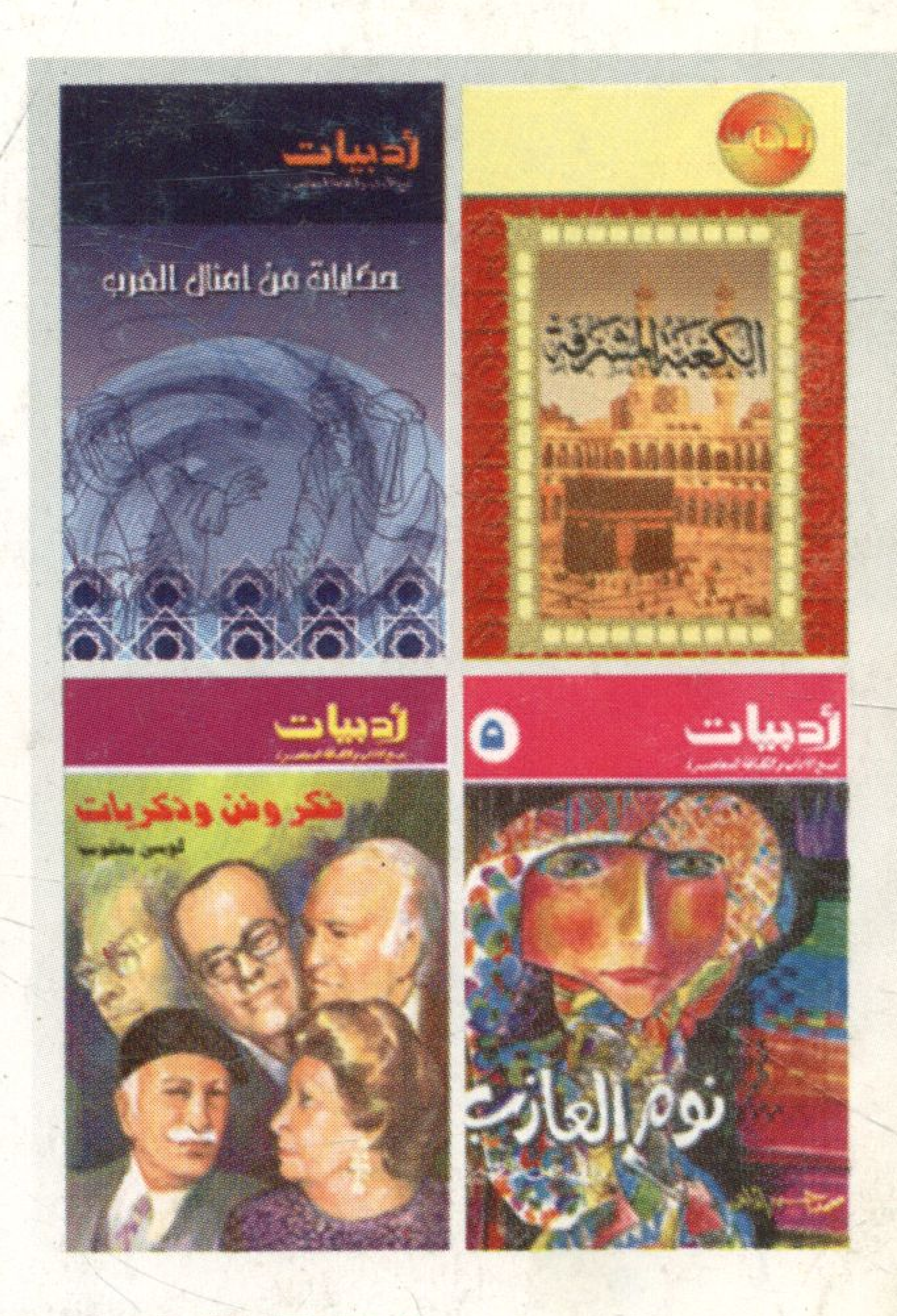
تأليف:
سحر خليفة

تصدر: ١٥ أغسطس ٢٠٠٤

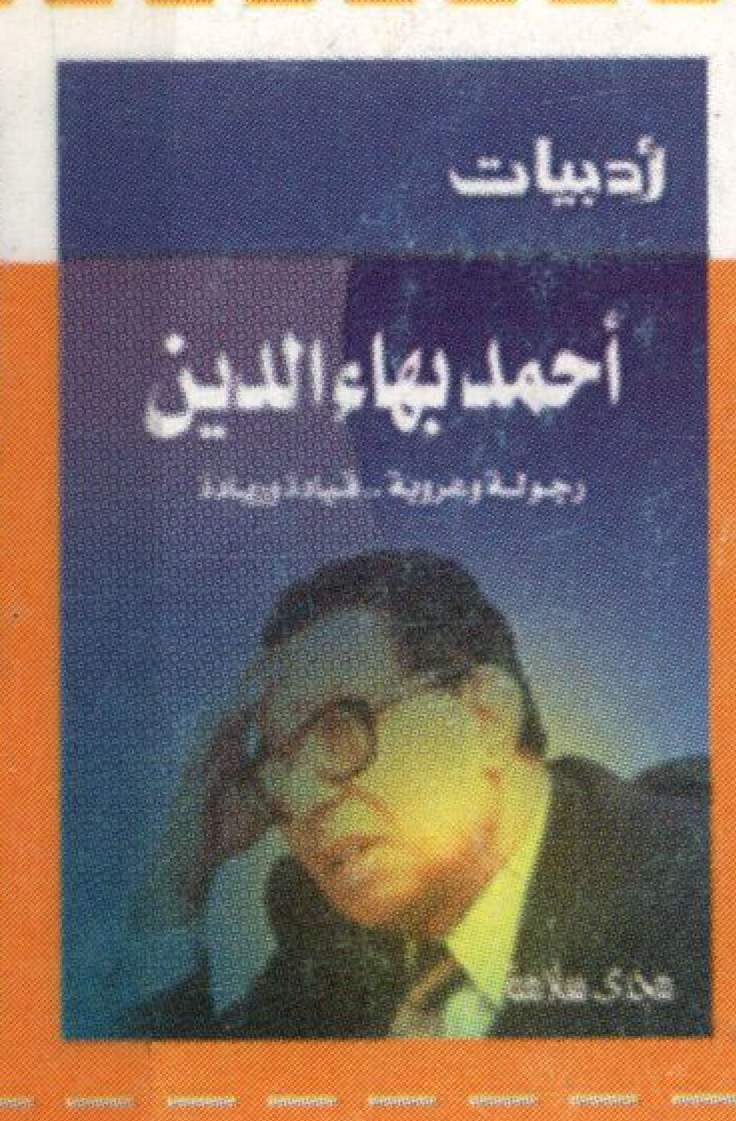














طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع :
الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى
روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع -
٤ شارع بدوى محرم بك - الإسكندرية .